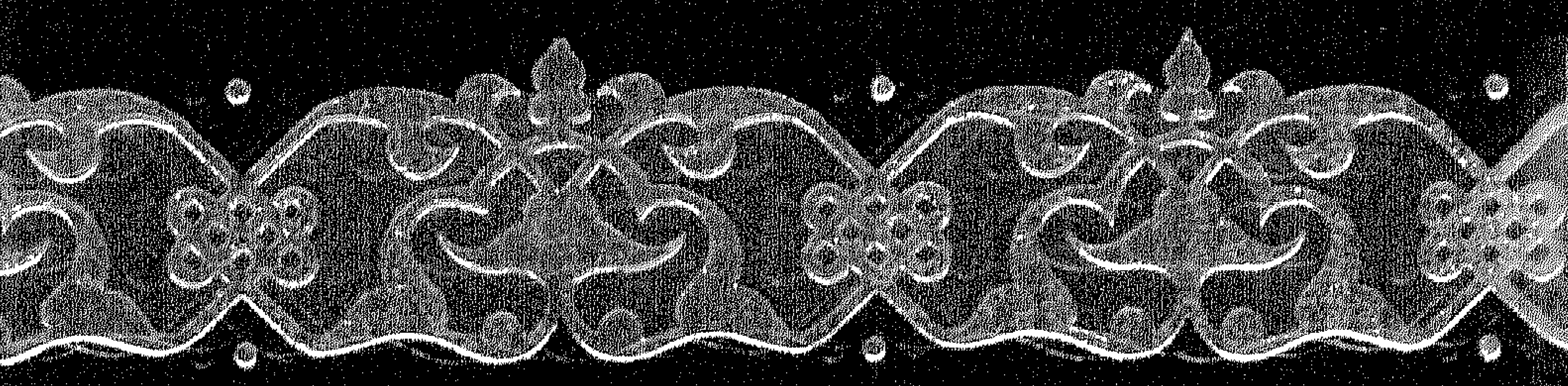
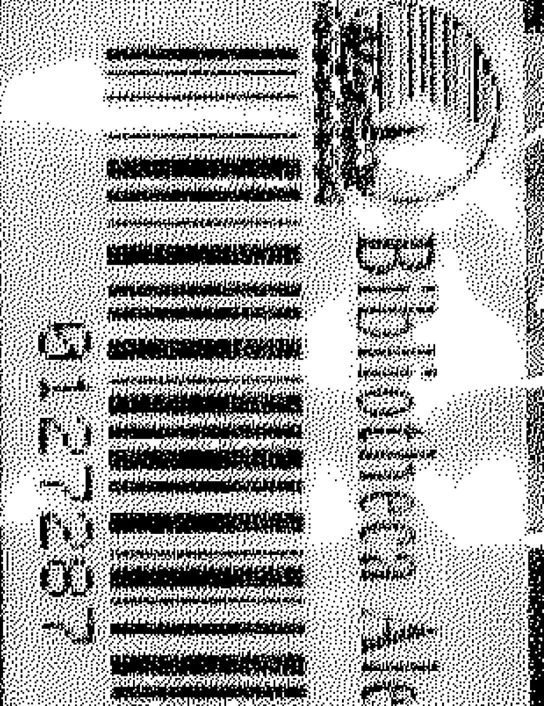


المصلح الإسلامي

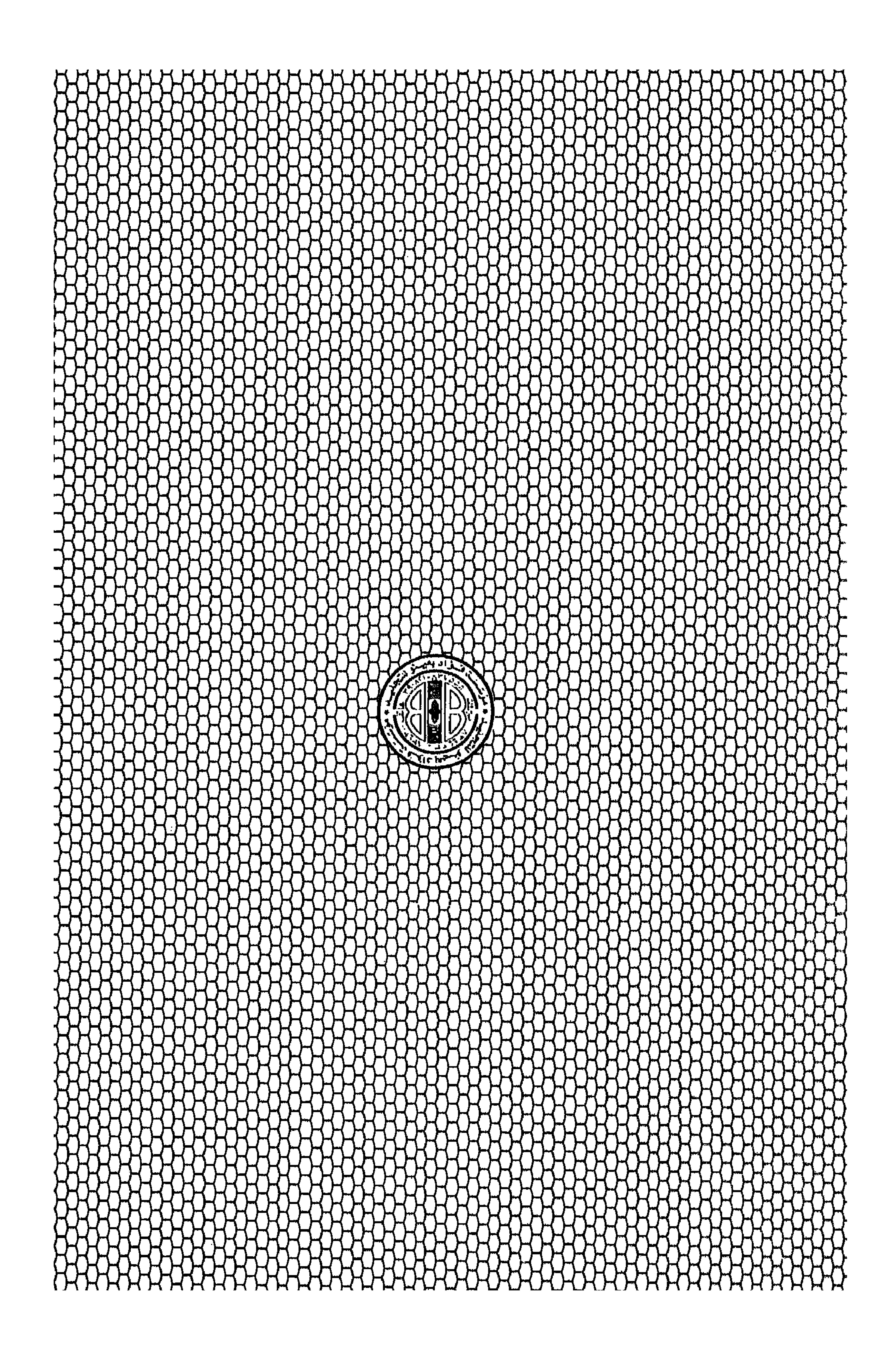
السَّيِّد مُحْسِن الأمين

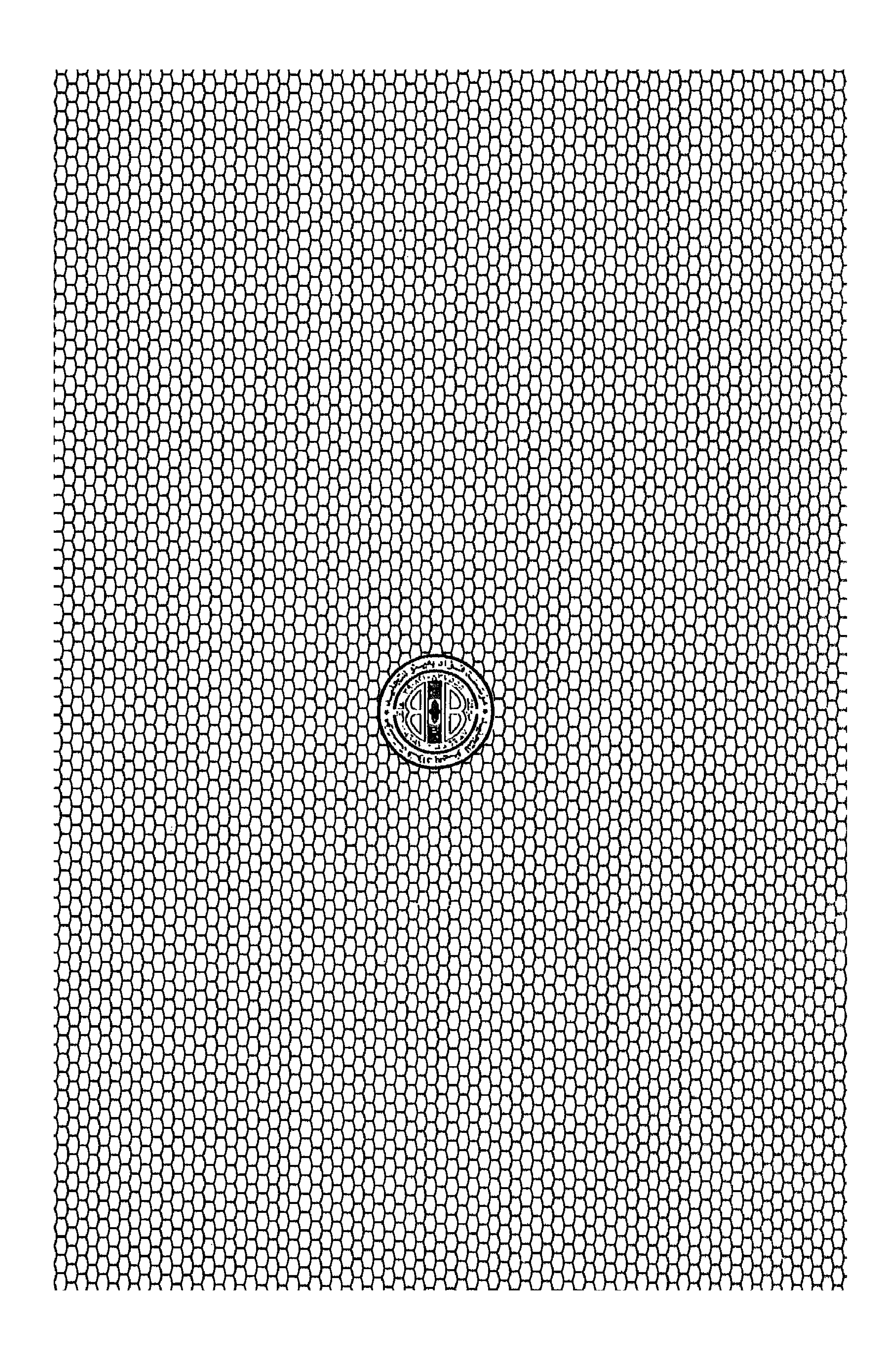
في ذكراه السنوية الأربعين





المُسْتَشارِيَّة الثَّقافِيَّة لِلجُمهُورِيَّة الإِسْلامِيَّة الإِيرانِيَّة بِدِمَشْق

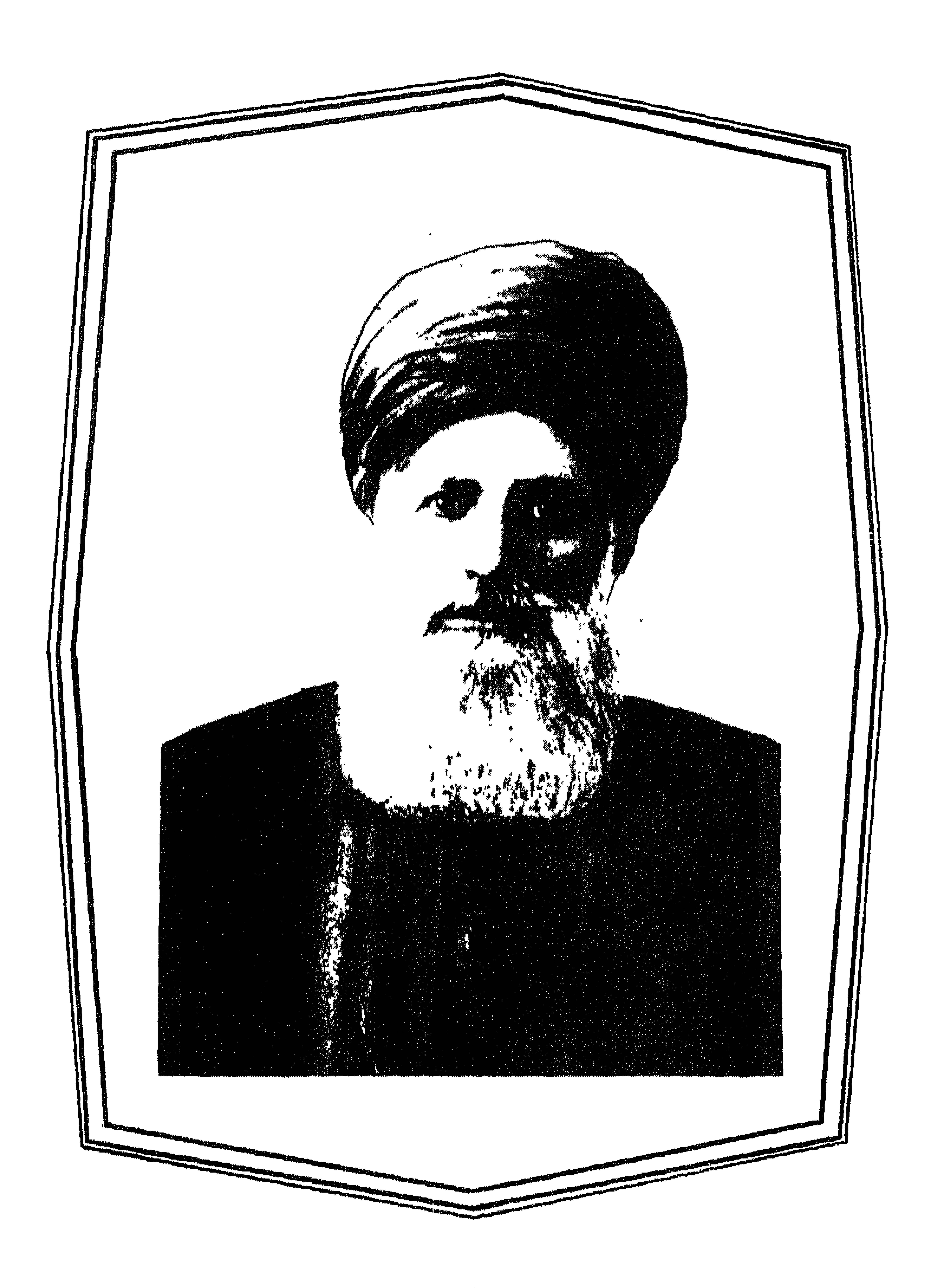


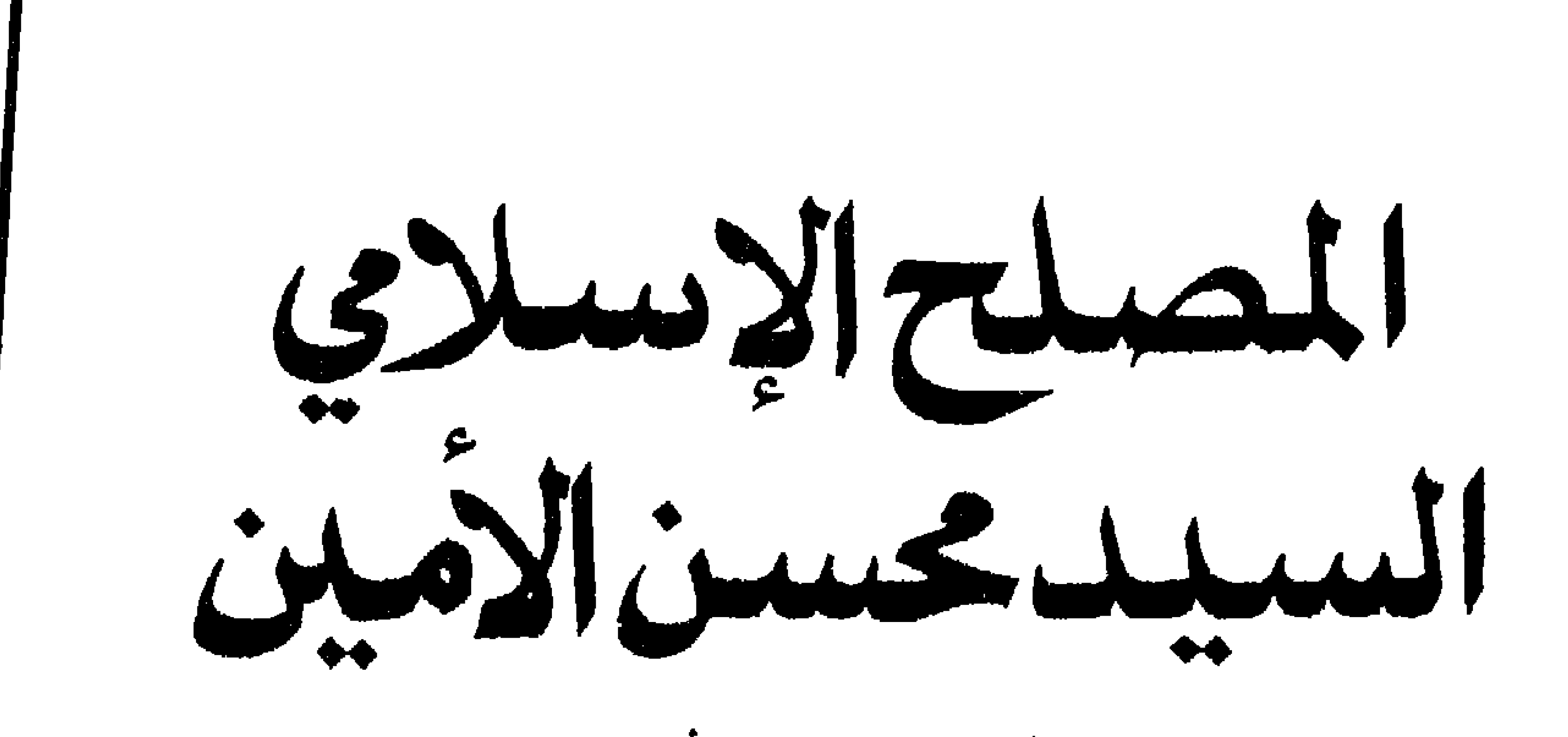




المصلح الإسلامي
السيد محسن الأمين

في ذكراه السنوية الأربعين





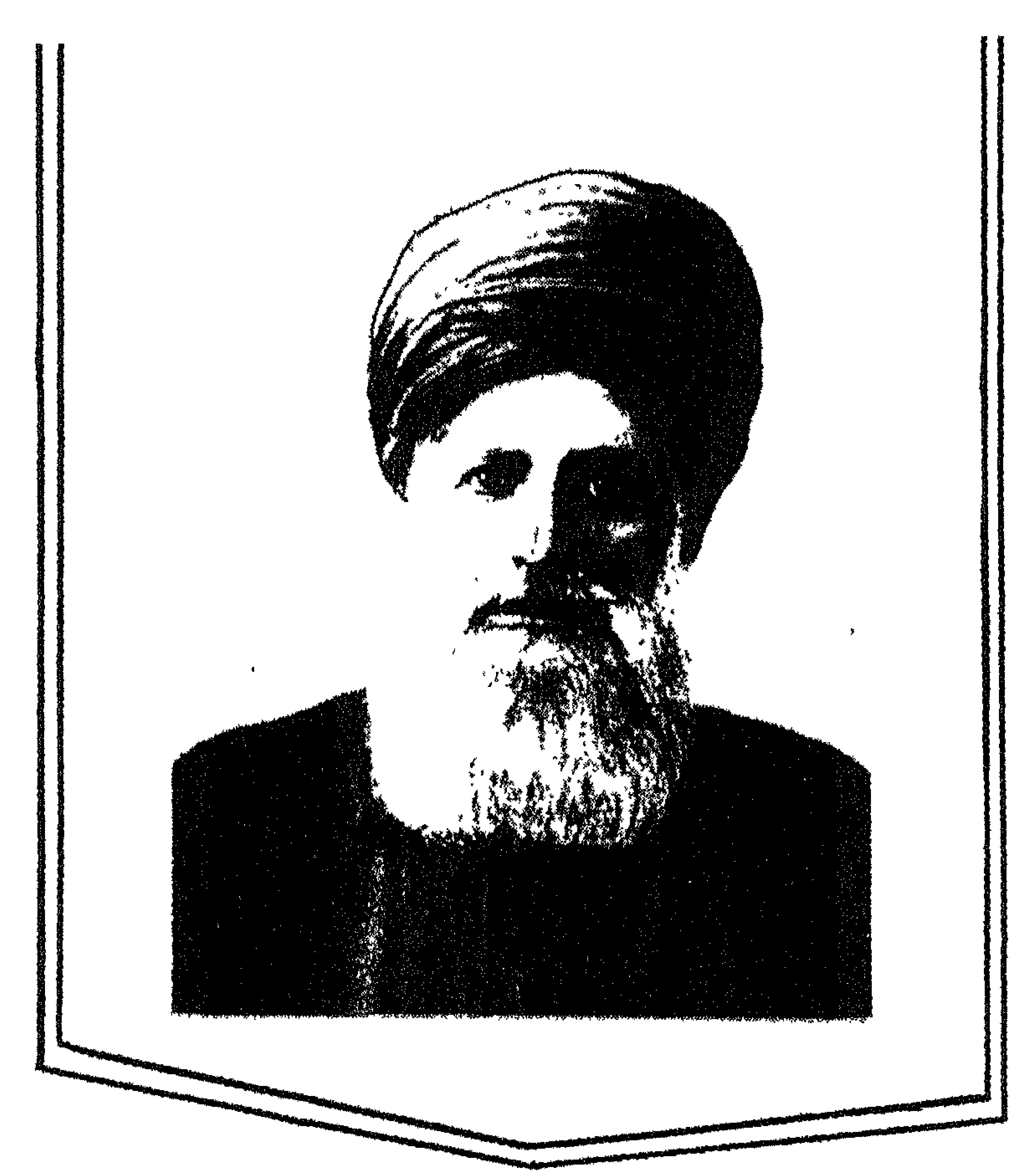
المصلح الإسلامي
السيد محسن الأمين

في ذكراه السنوية الأربعين

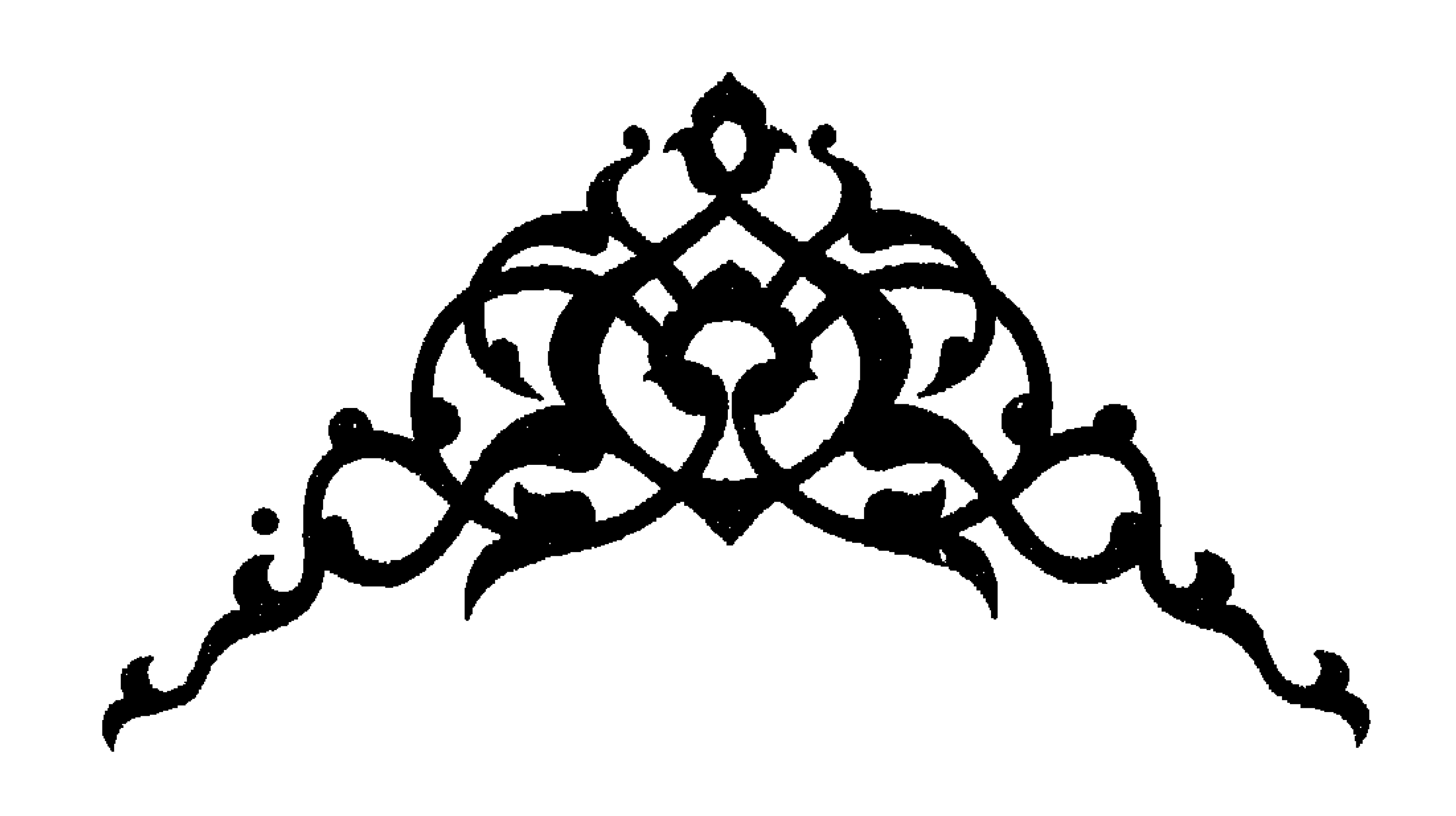
بمناسبة الذكرى السنوية الأربعين لرحيله
(٢٠ - ٢١) شوال ١٤١٢ هـ - (٢٢ - ٢٣) نيسان ١٩٩٢ م

المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية
. دمشق .


بسم الله الرحمن الرحيم




هذا ضريح حجة الإسلام السيد محسن الأمين الحسيني العاملي
قدس الله سره توفي في (٤) رجب ١٣٧١ هجرية



أيها النجم ماغربت ولكن	جزت ما لا تسمو إليه العيون
أيها القلب ما سكنت ولكن	ساد هذا الكون الحزين السكون
ضمن هذا الضريح بأس علي	وتقاه وعلمه المخزون
ومجن السمحاء في كل خطب	مدلهم والصارم المسنون
صقلته كف الحكيم وسنت	قدرة الله غربه لا القيون
وعماد الإسلام حامي حماه	في البرايا أمينه المأمون
شمسه تاجه حلاه علاه	بدره صبحه المنير المبين
واللباب المختار من عترة	المختار فينا والجوهر المكنون
فليمزّق للمجد أرخت قلبٌ	فعماد الإسلام هذا الدفين

شعر المرحوم الأستاذ أحمد صندوق

مقدمة الكتاب

* *

بسم الله الرحمن الرحيم

تضيء سماء تاريخنا العريق نجوم زاهرة نستهدي بها في ظلمة الليل الحالك ونستنير بالفكر الثري الذي تركته لنا مخلدةً نفسها عبر الأجيال.

ويأتي انعقاد الندوات والمؤتمرات الفكرية لتكريم هذه الصفوة من أبناء الأمة مع أنها ما برحت حيّة في قلوبنا وضمائرنا، ولكن من أجل دفع عجلة المجتمع صوب التكامل والسمو ليتم تسليط الأضواء على هذه القدوة الحسنة وللإستفادة من تراثها ومواقفها التربوية والعلمية والسياسية.

وإن المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق وإسهاماً منها في عملية إحياء التراث الثقافي والفكري لأمتنا المجيدة دأبت على إحياء ذكرى هذه المنارات الخالدة والمشاعل الوضاءة وجاء مؤتمر دراسة أفكار المصلح العلامة السيد محسن الأمين حلقة ضمن هذه السلسلة.

وقد تزامن انعقاد المؤتمر مع الذكرى السنوية الأربعين لرحيل هذا العلامة المصلح ليكون تكريماً لمناهجه الإصلاحية في مجالات العلم والمعرفة وتثميناً لمواقفه الوطنية والسياسية والمبدئية من الغزو الإستكباري لربوع عالمنا الإسلامي بأوجهه السياسية والعسكرية والثقافية.

* *

وقد حقق المؤتمر نجاحاً لا بأس به على الرغم من قصر مدته حيث لاقى إقبالاً من قبل جمهور الباحثين والأساتذة الجامعيين الذين يطمحون لإقتفاء خطى هذا العالم العامل، وتعميقاً للفائدة قررت المستشارية طبع البحوث والدراسات في كتاب خرج بالحلة التي ترونها آملين أن نكون قد حققنا الهدف المنشود وقدّمنا للعلامة الأمين بعض ما يستحقه من تقدير.

وقد لبى الدعوة للمشاركة في المؤتمر علماء وأساتذة من الجمهورية العربية السورية والجمهورية اللبنانية والجمهورية الإسلامية الإيرانية حيث قدموا دراسات وبحوثاً عالجوا فيها مختلف جوانب شخصية هذا العلامة الفذ تجدونها مرتبة حسب تسلسلها في برنامج المؤتمر اليومي بعد نبذة عن سيرة العلامة الفقيد.

ولا يفوتنا أن نشكر مجمع اللغة العربية لتعاونه في إقامة المؤتمر ومكتبة الأسد الوطنية لإستضافة جلسات المؤتمر وكل الذين شاركوا في إنجاح هذه التظاهرة الفكرية سائلين المولى جلّ وعلا أن يشد أزرنا لخدمة هذا الدين الحنيف إنه من وراء القصد.

محمد شريعتي

المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية

في الجمهورية العربية السورية

جوانب من سيرة العلامة الأمين بقلمه *

* *

النسب :

أبو محمد الباقر محسن ابن الصالح العابد الزاهد التقي النقي الورع السيد عبد الكريم ابن العلامة الفقيه الرئيس الجليل السيد علي ابن الرئيس السيد محمد الأمين ابن العالم الفقيه الرئيس الجليل السيد أبي الحسن موسى ابن العالم الفاضل الرئيس السيد حيدر ابن العالم الفاضل السيد أحمد ابن الفاضل السيد إبراهيم المنتهي نسبه إلى الحسين ذي الدمعة بن زيد الشهيد ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين الشهيد ابن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام، العلوي الفاطمي الهاشمي الحلي العاملي الشقرائي .

ووجدنا نسباً لجدنا السيد أبي الحسن موسى مع بعض الفلسطينيين بخط غاية في الجودة وعليه خطوط العلماء من الفريقين وشهاداتهم وفيه ذكر أبناء السيد أبي الحسن المذكور وغيرهم من متفرعات العشيرة وقد ادعاه هذا الفلسطيني وادعى أنه من ذرية صاحب النسب ولا ندري كيف وصل إليه ولعله مما نهب في حادثة الجزار من ذخائر جبل عامل ومنها الكتب التي أوقدت في أفران عكا برهة من الزمن واختار علماء عكا منها جملة من نفائس مخطوطاتها فأخذوها وكان هذا النسب منها والله أعلم ونحن ننقله هنا وهذه صورته .

---

* كما ورد في موسوعته «أعيان الشيعة» الجزء الأخير .

السيد موسى المعروف بأبي الحسن الحسيني ابن حيدر بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن قاسم بن علي بن علاء الدين بن علي الأعرج بن إبراهيم بن محمد بن علي بن مظفر بن محمد بن علي ابن حمزة بن الحسين بن محمد بن عبيد الله بن علي بن عيسى ووصفه بالحسني من قبل أمه فإنها حسنية ففي النسب المذكور أن السيد أبا الحسن موسى أمه فاطمة بنت خليل بن محمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن يوسف بن محمد بن الحسن بن عيسى بن فاضل بن يحيى بن جوبان بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن جوبان بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن داود بن إدريس بن داود بن أحمد بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وعلى النسب شهادة جماعة من المفتين ونقباء الأشراف والقضاة والخطباء وغيرهم من أهل السنة فعليه شهادة إسماعيل بن أحمد العاني المفتي بدمشق وشهادة محمد أسعد الصديقي وشهادة عبد الرحمن البزري المفتي بصيدا وشهادة أحمد خطيب الجمعة باسكلة صور وشهادة السيد حمزة العجلاني النقيب بدمشق وشهادة أحمد الحسيني اليافي وفيها أبيات منها

كموسى شريف الذات والوصف إذ غدا ... له نسب قد زاد فخرا ومعتلى
أبو حسن يعزى لحيدر أصله ... فلا زال محمياً به ومكملا

وشهادة محمد النائب بمدينة صور وشهادة السيد حسين قائمقام نقيب الأشراف بمدينة صفد وشهادة إبراهيم المولى خلافة في دمشق والسيد محمد العلمي نقيب الأشراف في مدينة صيدا. وعليه شهادة جماعة من علماء الشيعة في ذلك العصر فعليه شهادة بخط الشيخ سليمان معتوق وعليه بخط الشيخ إبراهيم بن يحيى العاملي ما صورته: ليس يخفى على أحد من العقلاء أمر شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء فكيف يحتاج هذا الأمر إلى شهادة الشاهدين وقد صرح بصحته بقية العارفين في الأمة المحمدية وطراز العصابة العلوية الغني بذاته عن زكي أسمائه وصفاته سنام مجد العلماء وواسطة عقد الفضلاء طاهر السر والعلن سيدنا وشيخنا أبو الحسن لا زال بدر سعده في بروج الكمال وشمس مجده في أمن من الزوال وقد خدمت جيد هذا النسب العالي بعقد من النظام الغالي كما هو شأن العبيد والموالي فقلت:

لقد عظمت أنساب آل محمد ... فليس لهم في العالمين مناسب
ومن مثلهم والشمس بعض جدودهم ... وبدر الدجى والنيرات الشواقب
إذا ما رياض الحزن طابت فروعها ... فلا يمترى أن الأصول أطايب
إذا ما انتمى منهم حسيب تهللت ... له الأرض وانثالت عليه المناقب
بني كل فياض اليدين تراثه ... إذا ما قضى طرف رمح وقاضب
غطارفة شم الأنوف نصيبهم ... من المجد مقسوم سنام وغارب

المولد

ولدت في قرية شقراء من بلاد جبل عامل سنة ١٢٨٤ هذا هو الصواب في تاريخ مولدي وما ذكرته في غير هذا الموضع من أن ولادتي سنة ١٢٨٢ أو غير ذلك فهو خطأ ولم يكن مولدي مؤرخاً لكن والدي أخبرني أن ولادتي كانت سنة بناء جسر القاقعية الجديد وقد قرأت تاريخ بنائه على الصخرة التي كانت موضوعة عليه وسقطت فإذا هو سنة ١٢٨٤ وأخبرت أيضاً أن ولادتي سنة ولادة السيد يوسف ابن السيد حسن بن إبراهيم خلف وقد أرخها عمنا السيد عبد الله بقوله (حسن يوسف بازغ) وهو يبلغ ١٢٨٤ فتحققت من ذلك ومن إمارات أخر أن مولدي في ذلك العام، وقد بلغت إلى حين تحرير هذه الكلمات وهو غرة شوال سنة ١٣٧٠ ستة وثمانين عاماً فقد وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً وضعفت القوى وتواردت على الجسم العلل والأسقام وجاء نذير الأجل وعزفت النفس عن الدنيا وكل ما فيها وماتت الشهوات وضاق من نفسنا ما كان متسعاً حتى الرجاء وحتى الخوف والأمل مع ما تراكم وتتابع من الهموم واعتور من نوائب الدهر لكن الهمة والحمد لله والعزم والجد باقية كما كانت أيام الشباب وإن كانت القدرة على العمل أضعف، والحواس بحمده تعالى صحيحة سالمة والمواظبة على المطالعة والتصنيف والتأليف ليلي ونهاري وعشيي وإبكاري باقية كما كانت لا اشتغل بشيء سوى ذلك إلا ما تدعو الضرورة القاهرة إليه ولست أدري متى يوافيني الأجل المحتوم فقد أصبح مني قريباً أسأله تعالى أن يختم أعمالي بالصالحات وأن يجعل ما بقي من عمري مصروفاً في طاعته وأن يوفقني لإكمال هذا الكتاب[1] تأليفاً وطبعاً وغيره مما شرعت به وأن يجعل مستقبل عمري خيراً من ماضيه وأن يجعل ما ألفته من حديث وقديم ستراً بيني وبين نار الجحيم إنه رؤوف رحيم وعجلت بهذه الترجمة قبل الوصول إلى محلها من الكتاب خوفاً من مفاجأة الأجل وبالله التوفيق.

أصل العشيرة

الذي سمعناه متواتراً من شيوخ العشيرة أن الأصل من الحلة جاء أحد الأجداد منها إلى جبل عامل بطلب من أهلها ليكون مرجعاً دينياً ومرشداً. ولسنا نعلم من هو على التحقيق بل هو مردد بين السيد إبراهيم وابنه السيد أحمد وابنه السيد حيدر. والسيد حيدر سكن شقراء وتوفي سنة ١١٧٥ كما هو مرسوم على لوح قبره في مقبرتها الشرقية القديمة وولد له في شقرا عدة أولاد ذكور وإناث نبغ منهم السيد أبو الحسن موسى.

وصاحب مفتاح الكرامة هو ابن ابنه وابن أخي السيد أبي الحسن ويظهر من آثاره أنه كان واسع الحال عريض الجاه وأفراد العشيرة البارعون تجد تراجمهم في مواضعها من هذا الكتاب.

النسبة

كانت العشيرة قبل هذا الوقت تعرف بقشاقش أو قشاقيش ولا يعرف إن ذلك نسبة إلى أي شيء. واحتمل بعض العلماء أن يكون ذلك تصحيف الإقساسي نسبة إلى إقساس مالك قرية الكوفة والإقساسيون طائفة كبيرة هم من ذرية جدنا الحسين ذي العبرة ينسبون إلى هذه القرية.

ثم عرفت العشيرة بآل الأمين نسبة إلى السيد محمد الأمين ابن السيد أبي الحسن موسى ووالد جدنا السيد علي الأمين فصار يقال لذريته آل الأمين.

والد المؤلف

وأما السيد عبد الكريم ابن السيد علي والد المؤلف فكان تقياً نقياً صالحاً صواماً قواماً طيب السريرة بكاء من خشية الله تعالى حج بيت الله الحرام وزار بيت المقدس وزار المشاهد المقدسة في العراق وكان عازماً على زيارة مشهد الرضا عليه السلام فأشار عليه ابن عمه السيد كاظم أن ينفق ما يريد إنفاقه في ذلك السفر على طلبة العلم من أبناء إخوته فقبل إشارته وعاد من العراق وبعد هجرتنا إلى العراق لطلب العلم بمدة هاجر إليها مع باقي العائلة ودفن في النجف الأشرف في الصحن الشريف سنة ١٣١٥ وكان عند وفاة أبيه يتيماً، فكفله بعدما تزوجت أمه أخوه السيد محمد الأمين لكنه لم يلتفت إليه كما يجب وأساءت زوجته الحاجة خاتون بنت شبت معاملته حتى أنها لما توفيت بسقوط البيت عليها واحتراق جبينها بالموقد طلب إليه أن يسمح عنها فأبى مع ما كان عليه من طهارة النفس ورقة القلب مما دل على شدة إساءتها إليه، أما باقي إخوته الصغار فكفلتهم أمهاتهم وكن من العائلة ولم يتزوجن فلم يجر عليهم ما جرى على الوالد وأخيه السيد أمين الذي تزوجت أمه أيضاً ببعض أقاربها وكانت من حولا من آل الغنوي، وربما كان للقرابة بين الزوجين تأثير في ذلك. ولما ترعرع الوالد تسلم هو وأخوه السيد أمين ما خصهما من ميراث أبيهما بالشركة واستغلاه وانفردا لأنفسهما في الدار التي كانت نصيبهما من ميراث أبيهما.

والدة المؤلف

وتزوج الوالد ابنة العالم الصالح الشيخ محمد حسين فلحة الميسي وهي والدة المؤلف وكانت من فضليات النساء عاقلة صالحة ذكية مدبرة عابدة مواظبة على الأوراد والأدعية توفيت في حدود سنة ١٣٠٠ وكان لها وللوالد الفضل العظيم في تربية المؤلف وتفريغه لطلب العلم وحثه على ذلك ومراقبته

في سن الطفولة ولما توفيت قال في رثائها من أبيات:

حويت يا قبر لو تدري مطهرة ... من العيوب اكتست ثوباً من الشرف
من معدن طاب أصلاً في العلا فزكت ... منه الفروع ونور الشمس غير خفي
يا ديمة من سحاب العفو مثقلة ... إذا مررت بجنبي قبرها فقفي
روي جوانب قبر طاب ساكنه ... ولا أقول إذا رويته انصرفي
ويا سحاب الغوادي روتربتها ... حتى تعود كمثل الروضة الأنف
يا خير والدة براً ومرحمة ... بنجلها هو حلف الوجد والأسف
لينعمنك عيناً بالفعال فقد ... علمت من ذا الذي أبقيت من خلف
والدهر يعلم من نابت نوائبه ... فتى لغير إله العرش لم يخف
إن تصبحي من حلول الموت في تلف ... فإنما خلق الإنسان للتلف
قد كان يمنعها بعدي القرار ولو ... دنا المزار لفرط الحب والشغف
فكيف واليوم عاد الحشر موعدنا ... والشمل منا شتيت غير مؤتلف

جد المؤلف لأبيه

أما جد المؤلف لأبيه السيد علي فكان فقيهاً رئيساً ذا شهرة واسعة وتأتي ترجمته وترجمة باقي الأجداد في محالها وبعضها تقدم في محله.

جده لأمه

أما جده لأمه الشيخ محمد حسين فلحة العاملي الميسي من آل رزق فكان عالماً فاضلاً صالحاً ورعاً تقياً شاعراً قرأ في مدرسة جبع ثم سافر إلى النجف الأشرف لطلب العلم مع ولده خالنا الشيخ حسين فلحة فأقام في النجف مدة ثم توفي.

خال المؤلف

وكان ولده خالنا المذكور غاية في الفهم والذكاء وحدة الخاطر شهماً كريماً سخياً أبي النفس عالي الهمة بقي في النجف مدة بعد وفاة والده ثم عاد إلى جبل عامل وتوفي في قرية ميس قبل عودتنا من العراق للمرة الأولى بمدة يسيرة وكان له أخ يسمى الشيخ أحمد مرت ترجمته.

جدة المؤلف لأبيه

هي بنت السيد إبراهيم خلف الحسيني من شقراء تزوجت بعد وفاة زوجها جدنا السيد علي بالحاج ظاهر عجمي من أرنون الشقيف.

تعلم القرآن الكريم

بعـدمـا بلغت سن التمييـز وأظن أن سني لم يتجـاوز يومئذ السبع وذلك بين سنة ١٢٩١ و١٢٩٢ وكنت وحيد أبوي ذهبت بي الوالدة إلى معلم القرآن في القرية فلما دخلت مكان التعليم ضاق صدري ضيقاً شديداً وجزعت جزعاً مفرطاً (أولاً) لأن ذلك طبيعة الأطفال (ثانياً) لما كان في التعليم من القساوة فالفلقة معلقة في الحائط فوق رأس المعلم وهي خشبة بطول ثلاثة أشبار تقريباً مثقوب طرفاها وفيها حبل دقيق يوضـع فيهـا السـاقـان وتشد عليهما وعنده عصوان طويلة وقصيرة والأطفال جلوس إلى جانبه فإذا غضب المعلم على واحد لذنب هو من الصغائر وهو قريب منه تناوله ضرباً على رجليه بالعصا القصيرة فإن كان بعيداً عنه ضربه عليها بالعصا الطويلة وإذا غضب على الجميع تناولهم بالضرب على أرجلهم بالعصـا الطـويلة وهـم جلوس صابـرون على هذا البـلاء خوفـاً من الأشد منه وهو الفلقة. وإذا غضب المعلم على واحـد لذنب هو عنـده من الكبـائـر كأن يهرب فراراً مما يلاقيـه، أرسل المعلم الأطفال الكبار ليأتـوا به كما يرسـل رئيس الشـرطـة أو الـدرك جنوده لإحضار من يريد عقابه فإن حضر معهم مشياً على الأقدام وإلا حملوه مشهراً بين الناس وهو يبكي ويصيح ولا من مجيب وهم في أثناء ذلك ينشدون الأناشيد في ذمه فيضعونه أمام المعلم معتزين فرحين فيأمرهم أن يلقوه على ظهره ويرفعوا رجليه ثم يتناول الفلقة ويضـع رجليـه بين الحبس والخشبـة ويفتل الخشبة حتى يقبض الحبل على رجليه قبضاً شديداً ويمسك بأحد طرفي الخشبة واحد قوي من التلاميذ وبالطرف الآخر مثله ثم ينهال المعلم ضرباً على رجليه بعصا دقيقـة أو قضيب وهـو يبكي ويصيـح ويستغيث فلا يغـاث والمعلم يقول له تهرب بعد يا خبيث فيقول له والله يا شيخي ما عدت أهـرب أبـداً أمـا عدد الجلدات فليس له حد في شرع المعلمـين وليس هو كحد الـزنـا وشـرب الخمـر له مقـدار معين بل هو من نوع التعزير الموكول أمره في الشرع إلى نظر الإمام وهذا موكول أمره إلى نظر المعلم فيختلف بحسب اختلاف ذنب الطفل وتكرره منه ومقدار درجة عقل المعلم وتفاوت حاله في الغضب وحظ الطفل في السعادة والتعاسة ثم يأمر الشيخ بفك الفلقة عن رجليه ويقوم الطفل يمسح دموعه ويجلس في مكانه والأطفال ينظرون إليه شزراً متبسمين تبسماً خفياً ولا يقل ألمه من ذلـك عن ألمـه من الضـرب ثم يعلق الشيـخ الفلقة في الوتد المثبت في الحائط وهذه الفلقة لا تزال معلقة هناك يراها الصبيان رمزاً إلى أن من أتى بذنب فهذه معدة له ولا يتكلم أهل الطفل في شأنه بشيء بل يقولون للمعلم لك اللحم ولنا الجلد والعظم اعتقاداً منهم أن ذلك في مصلحته وأنه محتاج إلى التأديب لذلك لا يجسر الطفل إذا هرب أن يأتي إلى بيت أهله ولا يتوقف المعلم عن تأديبه بأي نوع من أنواع التأديب.

فبقيت ذلك اليوم عند المعلم وما أظن أني أكملته وما تعلمت شيئاً وفي اليوم الثاني أبيت الذهاب إلى المعلم، ولم يشـاؤوا أن يجبروني على ذلـك لكـوني وحيـد أبـوي وشـدة شفقتهما علي فتولت الوالدة تعليمي القرآن أما الوالد فهو وإن كان لا يقصر عنها اهتماماً بتعليمي لكنه لا يراقبني كمراقبتها. أما الخط

فكان شيوخ العائلة الجيدو الخط يكتبون لي قاعدة على لوح من التنك بمداد من تراب أبيض ثم على الورق إلى أن ختمت القرآن وتعلمت الخط في مدة يسيرة ثم لما أخذت في طلب العلم كنت أكتب في وقت العطلة على بعض الخطاطين.

ولم يكن لي في حال الصغر رغبة فيما يعتاده الصبيان من اللعب وإن كنت أتعاطاه قليلاً.

وقد تعلمت السباحة وركوب الخيل والمطاردة لتعارف ذلك في المحيط الذي نحن فيه لكن ما تعلمت الصيد بالبندقية لأن ذلك يعاب على من يطلب العلم ولا أطلقت يوماً بندقية ولا مسدساً إلا مرة واحدة كانت عندنا بندقية صيد يأخذها فلاحنا معه إلى الحقل يصطاد بها فاستعصت مرة الدكة التي فيها ولم تثر فتناولتها وأنا صغير السن وحركت الزناد فثارت.

وكنت يوماً مع جماعة في بعض متنزهات دمشق ومعهم مسدس فصوبته إلى شجرة وغمضت عيني وأطلقته فأصاب المرمى.

ويظهر أن هذه الطريقة وهي الشدة في التأديب على الصبيان كانت متبعة في القديم من المعلمين حتى مع أولاد الخلفاء والملوك والأمراء. فقد رووا أن المأمون أبطأ على المعلم فلما حضر ضربه المعلم فبكى فبينا هو يبكي إذ قيل جاء الوزير البرمكي فمسح المأمون دموعه وسوى عليه ثيابه وجلس كما ينبغي لابن الخليفة أن يجلس مع الوزير ثم قال ليدخل فدخل وحادثه ساعة ثم انصرف ونظر المأمون إلى المعلم وقد تغير فسأله عن سبب تغيره فقال خفت أن تخبره بما جرى فينالني منه سوء فقال سامحك الله عن هذا وخذ في وردك ولا تفكر في شيء مما جرى وكيف يمكن أن أخبره به وبعد فأنا محتاج إلى التأديب وهذا يدل على رجاحة عقل المأمون.

وضرب يوماً المعلم أولاد الكبراء على غير ذنب وهو يعلمه فسئل عن ذلك فقال أردت أن يعرف مرارة الظلم فلا يظلم أحداً. وكان المعتصم بن الرشيد شبه أمي يقرأ ولا يكتب لأنه كان عبد صغير يتعلم معه في الكتاب فمات العبد فقال له الرشيد مات غلامك قال نعم واستراح من الكتاب فقال له بلغ بك الحال من كراهة الكتاب أن تغبط غلامك على الموت لأنه استراح من الكتاب وأعفاه من الذهاب إلى العلم فخرج يقرأ ولا يكتب فلهذا لما كتب بعض العمال إلى المعتصم كتاباً فيه لفظ الكلأ لم يفهم معناه فسأل الوزير فلم يعرفه فقال المعتصم خليفة أمي ووزير عامي كيف تصلح على هذا حال فسأل بعض الكتاب عنه ففسره فعزل الوزير واستوزر الكاتب وهذا يدلنا على مكانة العلم ومكانة الجهل فهذا بعلمه صار وزيراً وهذا بجهله عزل عن الوزارة. وكان الخلفاء والملوك يعتنون كثيراً بتعليم أبنائهم والأبناء يعظمون مشايخهم.

كان الأمين والمأمون يتعلمان النحو والأدب عند الكسائي وكان للرشيد عين عليه فقام الكسائي يوماً ليخرج فتسابقا إلى تقديم نعليه فأصلح بينهما أن يقدم كل واحد فرداً فأخبر العين الرشيد بذلك

فارسل إلى الكسائي وقال له من أعز الناس قال أمير المؤمنين قال لا بل أعز الناس الناس من يتسابق أولاد أمير المؤمنين إلى تقديم نعليه فاعتذر إليه الكسائي فقال له الرشيد هذا يدل على حسن تأديبك إياهما. وهذا يدلنا على أن شرف العلم من شرف السلطان.

ومهما قلنا بقساوة التعليم في تلك الأعصار ولينها اليوم لا نستطيع أن نقول أن نتائج التعليم اليوم الأخلاقية والدينية تعادل نتائجه في تلك الأعصار.

نموذج من طريقة التعليم في العصر السابق

يبدأ الطفل بقراءة الحروف الهجائية حتى يحفظها ثم يأخذ في تعلم المنقوط وغير المنقوط وعدد نقط الحروف فيقول (أ) لا شيء عليه (ب) نقطة من تحت (ت) نقطتان من فوق (ث) ثلاث نقط من فوق وهكذا ثم في معرفة الحركات والسكون فيقول ألف أ نصب ألف اخفض ألف أ جزم وهكذا إلى الآخر ثم الباء وباقي الحروف بهذا الترتيب ثم الفتحتان والكسرتان والرفعتان بهذا الترتيب لكنهم لا ينطقون بها يدل على ذلك بلفظ صحيح ويسمون الكسر خفضاً والضم رفعاً والسكون جزماً.

ومن العادة التي كانت متبعة أحياناً أنه إذا وصل الطفل إلى سورة الضحى فعليه أن يأتي إلى الشيخ بشيء من بيض الدجاج أقله خمس أوست وأكثره عشر ليقلى بمناسبة قوله تعالى في هذه السورة ما ودعك ربك وما قلى. وإذا وصل إلى عم عليه أن يأتي بغنمة إن كان موسراً وهي عبارة عن الكرش والرأس والأكارع من الذبيحة بمناسبة قرب لفظة عم من غمة وكل ذلك كقرب زياد من آل حرب. فإذا ختم القرآن زفه الأطفال إلى بيت أهله فأطعموهم الحلوى وسقوهم الماء والسكر.

الحرب بين روسية والدولة العثمانية

وفي حوالي سنة ١٢٩٠هـ كانت الحرب بين روسية والدولة العثمانية وأنا في سن الطفولة ووقع الناس في شدة وضيق وأخيراً غُلبت الدولة العثمانية ودخل الروس بحر استانبول فردهم أسطول الانكليز، وأخذ الإنكليز مقابل ذلك جزيرة قبرص وأعلنت الدولة العثمانية أفلاسها وطبعت ورقاً للمعاملة كان يسمى قوائم.

تعلم علمي النحو والصرف

بعدما ختمت القرآن وتعلمت الكتابة شرعت في قراءة علم النحو وتعلم إجادة الخط فابتدأت بحفظ متن الأجرومية وإعراب أمثلتها غيباً كما هو المألوف فأول ما يبدأ به إعراب البسملة ويقال عنه إعراب لفظ الجلالة وعلامة جره كسر الهاء تأدباً وفي غيره يقال وعلامة جره كسر آخره ثم بإعراب الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع وعند تعداد حروف الجر يذكر لكل واحدة مثال ويعرب وعند ذكر النواصب كذلك وعند ذكر الجوازم كذلك والمثال قد يكون جملة مختصرة مثل سرت من البصرة وقد يكون آية قرآنية مثل وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وقد يكون بيتاً من الشعر أو شطر بيت مثل (وإذا تصبك خصاصة فتجمل) عند عد إذا من الجوازم في الشعر خاصة وأول البيت (استغن ما أغناك ربك بالغنى) ويعد صاحب الأجرومية من النواصب كي ولام كي مع أن اللام إذا دخلت على كي فالناصب كي واللام جارة ويعد من الجوازم لم ولما وألم وألما وفيه خطأ ظاهر.

وكان شيوخ العشيرة أمثال السيد عباس مرتضى والسيد محمد حسين أحمد والسيد محمد حسين عبد الله وغيرهم يكتبون لي الدروس وإعراب أمثلتها فأحفظ ما أمكنني حفظه درساً أو درسين غيباً وأتلوه على مستمع وأشتغل بعض الوقت بتعلم حسن الخط وعند العصر لا بد لي كل يوم من قراءة الماضي من الدروس غيباً لتبقى ثابتة في الذهن لكن بدون مستمع وكنت أقرأ الماضي كل يوم في دارنا وفيه محلان للسكنى الوالدة مع الأخوات في محل وأنا في محل وحدي أتلو فيه الماضي من الدروس كما أنزل حتى إذا وصلت إلى النواصب وهي عشرة والجوازم وهي ثمانية عشر يأخذني الملل من إعراب أمثلتها الكثيرة الطويلة وقد سبقها حروف الجر وحروف القسم وإعراب أمثلتها الطويلة فأقتصر من النواصب والجوازم على سرد أسمائها دون ذكر أمثلتها وإعرابها وأجعل كل مضارع منها كأنه قد مضى من قبل أن تلقى عليه الجوازم على حد قول المتنبي. فينقص من المدة أكثر من نصفها وكنت أعلم أني إذا خرجت من البيت قبل انتهاء المدة المعتادة لقراءة الماضي تعلم والدتي أني لم أتم قراءته فأبقى في البيت ساكتاً فأسمع والدتي تقول لإحدى أخواتي أن تنظرني أأقرأ الماضي أم لا فإذا قاربت البيت رفعت صوتي بالقراءة فإذا عادت سكت حتى ينقضي الوقت فأخرج.

وفي بعض الأيام ضاعت مني الأجرومية الوحيدة النسخة فكانت المصيبة بها جلى ولا كمصيبة صاحب المغني بالمغني حين سقط منه في البحر في سفره إلى الحج لكن صاحب المغني أعاد كتابته من حفظه أما أنا فلم يكن ذلك باستطاعتي ولا أتذكر الآن ما صنعته لتدارك ذلك أوجدتها بعد ضياعها أم استغنيت عنها وكتب لي ما بقي منها وكيف كان فقد طويت مرحلتها وانتقلت إلى مرحلة ثانية:

وهي الشروع في قراءة قطر الندا وبل الصدا لابن هشام الأنصاري في النحو وفي قراءة شرح سعد الدين التفتازاني على متن عزي في التصريف وذلك بين سنة ١٢٩٥ و١٢٩٦ فشرعت في قراءة ذينك

الكتابين على السيد محمد حسين ابن عمنا السيد عبد الله وكان فاضلاً حسن الأخلاق فحضرت عنده القراءة أنا ورفيقان لي من بني عمنا هما أكبر مني سناً بكثير فجلسنا أمامه في المسجد على ركبنا متأدبين كما هي العادة وشرع أحدنا يقرأ العبارة كما هي العادة أيضاً بأن يقرأ أحد التلاميذ عبارة الكتاب والباقون يضبطـون عليـه ثم يفسـرهـا لهم الأستـاذ ثم يقومون فيعيد الذي قرأ العبارة ما قاله الأستاذ في تفسيرها والباقون يراقبونه هل أصاب أو أخطأ وفي اليوم الثاني يقرأ العبارة تلميذ آخر ويعيد ما كرره الأستاذ حتى ينتهي الدور ويعود إلى الذي قرأ أولاً. فلما قرأ: أصل، (الكلمة قول مفرد) قال له الأستاذ قف فوقف فقال الأستاذ كل ما مر في أول الدرس (ص) فمعناه أصل وكلما مر (ش) فمعناه شرح فليكن ذلك على علم منكم فقلنا نعم ثم قال اعلم أن لا بد لكل طالب علم قبل الشروع فيه من معرفة ثلاثة أشياء حد العلم ومـوضـوعـه وغـايتـه أمـا حده فلئـلا يدخـل فيه ما ليس منه وأما موضوعه فلأن تمايز العلوم بتمايز الموضوع وأما غايته فلئلا يكون طلبه عبثاً ولئلا يكون كمن ركب متن عمياً وخبط عشوا (ولكنه قال وخبط خبطة عشوا) فلا يزيده كثرة السير إلا بعداً. أما حد علم النحو فهو علم بأصول يعرف به أحوال أواخر الكلم من حيث الإعراب والبناء وموضوعه الكلمات العربية وغايته صون اللسان عن خطأ في المقال فلما سمعت هذا الكلام أظلمت الدنيا في وجهي، وسني يومئذ نحو العشر سنين وقلت في نفسي هذا علم لا يمكن أن أتعلم منه شيئاً إن كان كله من هذا القبيل متن عمياً خبطة عشوا ما هو هذا الكلام. لكن هذا الدرس أفادني درساً في التعليم وكيف ينبغي أن يكون. ثم قال الشيخ احفظوا هذا الذي ألقيته عليكم غيباً لتعيدوه علي غداً ولست أتذكر ما جرى لنا في حل هذه المشكلة أضربنا صفحاً عن حفظه أم كتبه لنا وحفظناه ثم ابتدأ أحد رفيقي يقرأ درس التصريف وكانا أكبر مني سناً - كما مر - لكنهما في منتهى البلادة. فقال اعلم أن التصريف في اللغة التغيير وفي الاصطلاح تحويل الأصل إلى أمثلة متعددة لمعان مختلفة لا تحصل تلك المعاني إلا بها. وشدد اللام من تحصل فضربه الشيخ على هذه الغلطة القبيحة وأدركت أنا حينئذ تقدمه في البلادة لأن كلمة تحصل مبذولة معروفة لا يمكن أن يقرأها عامي بتشديد اللام فقال له ذلك التلميذ لما ضربه والله لو ضربتني بخشب البيت ما نزل من عيني دمعة.

أول ديوان شعر قرأته

كان لوالـدي صديق اسمـه الحـاج محمـود مروة من الزرارية ينزل عندنا في طريقه إلى بنت جبيل فأوصيتـه أن يشـتري لي ديـوان شعر من بيروت فاشترى لي ديوان أبي فراس الحمداني فجعلت أقرأ فيه وحفظت كثيراً منه لا يزال في حفظي إلى اليوم وكنت أفهم أكثر معانيه والبعض لا أفهمه والبعض أفهمه على غير وجهه لأنني كنت صغير السن جداً وهو أول ديوان شعر قرأته.

في كربلاء

فدخلناها في ذي الحجة وأدركنا بها زيارة عرفة ووجدنا فيها طائفة من العامليين من بني عمنا وغيرهم وسمعت كلامنا بنت عمنا السيد محسن النجفية فوجدته لا يفترق شيئاً عن كلام أهل العراق فعجبت من ذلك ثم ذهبنا إلى النجف بطريق الماء.

في النجف

ونزلنا في دار بعض بني عمنا وفي يوم وصولنا قال لي أن لي صديقاً كان في بلاد إيران وحضر فاذهب معي للسلام عليه فذهبنا نحو الساعة التاسعة نهاراً وسلمنا عليه وجاؤوا لنا بالسكاير والشاي والقهوة فشربنا وبقينا إلى نحو الساعة العاشرة فأشرت إليه بالذهاب فلم يفعل وقام ناس وجاء آخرون فأشرت إليه بالقيام فلم يفعل ولا يناسب أن أخرج وأدعه ومع ذلك فلست أهتدي الطريق إلى الدار إلى أن بلغت الساعة نحو الحادية عشرة فأشرت إليه بالقيام فلم يقم وقرب وقت المغرب فذهب الناس جميعاً وأشرت إليه بالقيام فلم يفعل إلى أن صار الساعة نحو الواحدة فكان الحال كذلك وإلى الساعة الثانية ونحن جلوس فلما صارت الساعة الثالثة جيء بالعشاء فتعشينا معهم وما قمنا حتى قاربت الساعة الرابعة فقلت له هذا فراق بيني وبينك لن أصحبك بعدها أبداً ثم اكترينا داراً في محلة الحويش وانتقلنا إليها وشرعنا في الدرس والتدريس وكان جارنا الشيخ ملا حسين قلي الهمذاني الفقيه العارف الأخلاقي المشهور فحضرت يومين في درسه الأخلاقي ثم تركت وعكفت على دروس الأصول والفقه ثم ندمت على أن لا أكون حضرت درسه الأخلاقي إلى آخر حياته وقد توفي ونحن في النجف الأشرف وكان جل تلاميذه العرفاء الصالحون وفيهم بعكس ذلك لأن الحكمة كماء المطر إذا نزل على ماثمره مر ازداد مرارة وإذا نزل على ما ثمره حلو ازداد حلاوة.

وبعد الاستقرار في تلك الدار شرعنا في القراءة على المشايخ وشرع الطلاب في القراءة علينا. وكانت صاحبة الدار تسكن فيها معنا لأنها كانت متزوجة برجل من بيت الخرسان ولها ابن منه توفي فورثت الدار منهما وكانت تسكن معها ملا نائحة على الحسين(ع) ذاكرة لمصيبته وهي طرشاء واسم إحداهما عزيزية بالتصغير فلم نأتلف مع صاحبة البيت وخرجنا قبل إكمال السنة فسكنا في محلة العمارة.

أقسام التدريس في النجف

التدريس هناك قسمان (الأول) تدريس السطوح وهو القراءة من الكتاب ولكل علم من العلوم كتب مخصوصة يدرس فيها ذلك العلم فيقرأ المدرس عبارة الكتاب ويفسرها للطلاب وإن كان له نظر

خاص واعتراض بينه ومن كان له من الطلاب قابلية الرد عليه ومباحثته رد عليه وباحثه فيقرؤون أولاً النحو والصرف ثم البيان والمنطق ثم الأصول والفقه في كتب مخصوصة لهذه ومنهم من يقرأ علم الكلام الإلهي وحده أو الطبيعي والإلهي.

(الثاني) تدريس الخارج أي الخارج عن الكتاب وهو إلقاء الدرس بدون كتاب وهذا يكون في علمي الأصول والفقه لنيل درجة الاجتهاد لمن وفقه الله لذلك فيلقي الشيخ مسائل أصول الفقه واحدة بعد الأخرى ويذكر أقوال العلماء فيها وحججهم ويفندها ويختار أحدها ويصحح دليله ويحتج عليه ويناقشه الطلاب ويجيبهم ويردون عليه ويرد عليهم وكذلك الفقه يذكر الفرع الفقهي وأقوال العلماء فيه وأدلتهم من الأخبار وغيرها وإجماعهم ويناقشه الطلاب على نحو ما مر في علم الأصول وهكذا حتى تنتهي مسائل الباب الذي شرع فيه فينتقل إلى باب آخر وهذا القسم يكون التدريس فيه بعد الفراغ من القسم الأول وهو تدريس السطوح.

تنظيم الدروس

الدروس منظمة تنظيماً طبيعياً بحسب الكتب وبحسب السطح والخارج ففي النحو والصرف مثلاً يبدأ بقراءة كتب مخصوصة وبعد إتمامها ينتقل إلى غيرها وهكذا باقي العلوم ويبدأ بالنحو والصرف وبعد إكمالها ينتقل إلى البيان والمنطق وبعد إكمالهما ينتقل إلى الأصول والفقه سطحاً وبعد الفراغ منهما ينتقل إلى الأصول والفقه خارجاً.

وهذا ترتيب جيد نافع إلا أن تطبيقه راجع إلى الطلبة أنفسهم فمنهم من يوفق إلى تطبيقه تطبيقاً تاماً فلا يقرأ في كتاب حتى يتم ما قبله ويتقنه ولا في علم حتى يفرغ من الذي قبله ويتقنه ولا يقرأ درس الخارج حتى يفرغ من السطوح وكثير منهم لا يطبق هذا البرنامج فيشرع في الكتاب المتأخر قبل إكمال المتقدم وفي درس الخارج قبل إتقان السطوح فلا يستفيد شيئاً أو يستفيد فائدة قليلة في مدة طويلة.

وهناك خلل آخر يحصل من اختيار الشيوخ فلا يكون الشيخ صالحاً لتدريس هذا الفن أو لا يكون صالحاً للتدريس أصلاً ويغتر به الطلاب لكن هذا قليل والخلل السابق أكثر منه.

وليس هناك من يجبر على تطبيق هذا البرنامج ولا على اختيار الشيوخ الصالحين للتدريس ولا يمنع شيخ أحداً من درسه إن لم يكن من أهله هذا إن لم يرغبه فيه حباً بتكثير السواد وليس هناك امتحان ترتب الدروس على حسبه.

وهناك خلل ثالث في الدروس الخارجية وهو أن المتأخرين من أهل عصرنا وما قاربه اشتغلوا في تحرير محل النزاع فصرفوا في تدريسه شهوراً وأياماً وفي التعريفات فقالوا أنها غير جامعة أو غير مانعة

فزادوا عليها فجاء الاعتراض من جهات أخرى وأول من انتبه لذلك شيخنا الشيخ ملا كاظم الخراساني فقال في تحرير محل النزاع إن كان النزاع في كذا فالحق كذا وإن كان في كذا فالحق كذا وقال في التعريفات أنها لفظية كقول اللغويين سعدانة نبت فلا يلزم كونها جامعة مانعة.

وخلل رابع وهو إدخال مسائل الكلام في علم أصول الفقه.

(وخامس) وهو التطويل في مسائل من علم الأصول فرضية لا فائدة فيها كدليل الانسداد وتعارض الأحوال وغيرها بل في جميع مسائل الأصول.

(وسادس) وهو إهمال علم الحديث وتصحيح الأسانيد والاكتفاء بتصحيح من سبقهم.

(وسابع) وهو عدم إتقان اللغة العربية ومعرفة خصوصياتها ودقائقها لا سيما من الأعاجم.

أيام التعطيل

تعطل الدروس في النجف في يومي الخميس والجمعة بل في الحقيقة يوم الخميس فقط لأن يوم الجمعة يشتغل فيه بعد الظهر بمطالعة دروس يوم السبت وتعطل الدروس في شهر رمضان وأكثر شهري رجب وشعبان ولا تعطل في الصيف ومن الشائع أن التحصيل بين تعطيلين غير مستحب ولهذا قال بعض الظرفاء لما سئل عن كيفية تحصيله: يوم أنا في الحمام ويوم شيخي في الحمام ويوم خلقي ضيق ويوم شيخي خلقه ضيق ويوم خميس ويوم جمعة ويوم تحصيل بين تعطيلين وتم الأسبوع.

الإجـازة

(منها) إجازة الرواية وهذه لا يشترط في المجاز بها ألا يكون مجتهداً (ومنها) إجازة الاجتهاد وهي شهادة بأن المجاز صار له ملكة استنباط الفروع من الأصول وأنه ثقة عدل يصح أخذ الأحكام عنه ويعرف ذلك بالممارسة لا سيما إن كان من تلاميذ المجيز.

مشاهير العلماء في العراق أيام كنا في النجف

فمن العجم الشيخ ملا كاظم الخراساني والشيخ اقا رضا الهمذاني والشيخ عبد الله المازندراني والسيد كاظم اليزدي والمير زا حبيب الله الرشتي والمير زا حسن ابن المير زا خليل الطهراني ومن الترك الشيخ حسن المامقاني والملا محمد الشرابياني وكلهم مدرسون وغيرهم كثيرون يعسر إحصاؤهم وقد

يكـون فيهم من لا يقصـر عن بعض من ذكـرناه أويساويه . ومن العرب الشيخ محمد طه نجف النجفي وهـو وإن كان أصله من تبريـز إلا أن آل نجف استعـربـوا وهـو رئيس المـدرسين من العرب والشيخ علي رفيش وهـو مدرس والسيـد محمـد ابن السيـد محمـد تقي الطباطبائي آل بحر العلوم وبيده المال المعروف بفلوس الهنـد وهـو مدرس والشيخ عباس الشيخ علي، والشيخ عباس الشيخ حسن كلاهما من أحفاد الشيخ جعفر صاحب كشف الغطـاء والسيد حسين القزويني والشيخ محمود الذهب وغيرهم كثيرون لا يتسع المقام لاستقصائهم ولعل فيهم من يفوق بعض من ذكرناه أو يساويهم.

هذا في النجف أمـا في غيرهـا في سامـراء رئيس الكـل المـيرزا السيد محمد حسن الشيرازي وفي كربلا الشيخ زين العابدين المازندراني وفي الكاظمية الشيخ محمد تقي ابن الشيخ حسن ابن الشيخ أسد الله التسـتري والشيـخ محمـد ابن الحـاج كاظم والسيد مهدي الحيدري والسيد إسماعيل الصدر والسيد حسن الصدر والشيخ مهدي الخالصي وغيرهم كثيرون.

في دمشـــق

وردنـا دمشق في أواخـر شعبـان من سنـة ١٣١٩ في أواخـر الخـريف فوجدنا أمامنا أموراً هي علة العلل ولا بد في إصلاح المجتمع من النظر في إصلاحها:

(١) الأمية والجهل المطبق فقد وجدنا معظم الأطفال يبقون أميين بدون تعليم وبعضهم يتعلمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم.

(٢) وجدنا إخواننا في دمشق متشاكسين منقسمين إلى حزبين بل إلى أحزاب وقد أخذت منهم هذه الحزبية مأخذها.

(٣) مجالس العـزاء ومـا يتلى فيهـا من أحـاديث غير صحيحـة وما يصنع في المشهد المنسوب إلى زينب الصغـرى المكنـاة بأم كلثـوم في قرية راوية من ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات وبعض الأفعال المستنكرة وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر استئصالها لا سيما أنها ملبسة بلباس الدين.

فوجهنـا اهتـمامنـا إلى إصـلاح هذه الأمـور الثـلاثـة أمـا الأمر الأول وهو أمر التعليم فبذلنا غاية الإمكـان في تعليم العلوم العـربيـة لمن يمكن تعليمهم فصاروا بفضل ذلك أهلاً لأن يتكلموا في مجالس العلماء ويناظروا الفضلاء، وجاء مرة رجل عراقي من أهل العلم فرآني أدرسهم في علم النحو فقال من هوان الدنيا على الله أن يدرس مثلك في علم النحو، وأخذنا في إلقاء المواعظ في المجتمعات والمجالس والتفقيـه في الـدين بقـراءة درس فقهي في التبصرة كل ليلة بعد صلاة العشاءين، واتجهنا لإنشاء مدرسة لتعليم النـاشئـة فأخـذنا داراً عارية بدون أجرة ونقلنا إليها (الكتاب) الموجود في المحلة وجعلناها مدرسة

باسم المدرسة العلوية وابتدأنا بإدخال العلوم الحديثة إليها بشكل ضعيف كما هو الشأن في ابتداء كل عمل، وكذلك استأجرنا داراً لتعليم البنات إلى جانب تعليم البنين.

وفي سنة ١٣٢٠ عزمنا إلى الذهاب إلى حج بيت الله الحرام، وقبل السفر أرادني الحاج محمد حسن بيضون على أن أكلم تجار الحي في أن يشتروا دار أخيه الحاج يوسف لتكون مدرسة وكانت لهم ليلة يجتمعون فيها في الأسبوع يتذاكرون أمور تجارتهم ويدعونني فأجلس معهم وذهب معي وحثني على الكلام معهم في ذلك فترددت لاعتقادي أنه من الأطماع الأشعبية وما زال يشير إلي أن أكلمهم وأنا متوقف حتى قرب أوان انصرافهم فقلت في نفسي إن لم ينفع الكلام فلا يضر فقلت لهم إننا نحتاج إلى دار نجعلها مدرسة وهذه دار الحاج يوسف بيضون يريد بيعها وأنا أشتريها لكم مقسطاً ثمنها إلى أربع سنين القسط الأول يدفع بعد سنة وهكذا، وأردت بذلك أن يهون عليهم الأمر بعدم الدفع في الحاضر وقلت إنني أنا أتعهد بدفع قسم من ثمنها كأحدهم فقال زعيم القوم: الآن عندكم مدرسة عارية ولا داعي لشراء هذه فقال آخر دونه في المنزلة نعم الرأي شراؤ ها وكل منا إذا حضر الموت لا بد أن يوصي فلنصرف وصيتنا في حياتنا فلم يشأ الزعيم أن يرد ذلك وقد قبل به من هو دونه فقبل وقبل باقي الجماعة وسافرنا إلى بيروت وكلمنا الحاج يوسف في ذلك وطلبنا منه أن يترك قسماً من الثمن بقدر ما على أحدهم واتفقنا معه على الثمن أن يكون ثمانمائة ليرة افرنسية ذهباً موزعة على خمسة أسهم ونصف على الوجه التالي على: الفقير كاتب هذه السطور والحاج يوسف والحاج عباس رضا والحاج سليم العضل كل واحد سهم والحاج مصطفى الصوان وابن أخته كل بنصف سهم والحاج عبد الله والحاج حمزة الروماني كل بنصف سهم مقسطة على أربع سنين وكتبنا بذلك سندات على هذا النحو.

ثم توجهنا إلى الحجاز عن طريق مصر وجاءنا كتابهم إلى الحجاز باستلامهم الدار ونقل الأولاد إليها وكان بصحبتنا في الحج إيراني من أهل أرومية فأعطاها عشرين ليرة عثمانية ذهباً للمدرسة وحج في تلك السنة ميرزا علي أصغر خان اتابك الصدر الأعظم في إيران لكنه كان معزولاً بسبب قضية المشروطة وعاد مع الحاج الشامي إلى دمشق واجتمعنا به في الطريق ولما وردنا الشام دعونا إلى المدرسة وأقمنا له حفلة فأرسل لنا في اليوم الثاني كتاباً مع ترجمان القنصل ومعه سبعون ليرة عثمانية ودعونا والي سورية عارف بك المارديني فسر كثيراً وخطب خطبة أعرب فيها عن سروره بها رأى وشكرنا وخاطبنا بأجمل خطاب ودفع لنا إعانة للمدرسة عشرين ليرة عثمانية ذهباً فأصلحنا المدرسة من ذلك بنحو ثلاثين ليرة ودفعنا الباقي مما علينا من الأقساط ثم وقفناها مدرسة واستثنينا داراً صغيرة منها لم ندخلها في الوقف لقاء ما بذمتنا من الثمن ويسر الله تعالى دفع جميع الأقساط إلا القسط الأخير فطلبه منا الحاج يوسف فأرسلنا له إن شئت أن تمهلنا به وإن شئت بعنا الدار الصغيرة وأديناه فقال لا تبع الدار وسأحضر للشام ونعمل حفلة لتدارك العجز فكان الأمر كذلك وتبرع الحاضرون في الحفلة وهو منهم بما دفعنا منه الدين وزاد

معنا ما صرفناه على المدرسة . وما زال أمر المدرسة ينتظم شيئاً فشيئاً وقد بقيت مدة غير قليلة لم يتم انتظامها إلا أننا نقابل ذلك بالصبر ولا نمل والأعمال لا يضرها مرور زمن عليها ولم تنتظم فلا بد أن تصل إلى المداومة والصبر إلى الانتظام وإنما يضرها الملل وقلة الصبر فصبرنا وجاهدنا فظفرنا .

ثم وفق الله لشراء دار ثانية هي أحسن من الأولى بمراحل ومن أفخم دور دمشق شريت بقيمة ألف وخمسمائة ليرة عثمانية ذهباً وأصلحت بخمسمائة وهي تساوي أضعاف ذلك بذل ثمنها كل من المحسنين الكرام السيد علي والسيد كامل نظام والحاج رضا النحاس والحاج مهدي اللحام والحاج حسن الحلباوي جازاهم الله خير الجزاء ونقلت إليها التلاميذ، والدار الأولى تستغل ويصرف ريعها على المدرسة وقد أصبحت المدرسة اليوم حين تحرر هذه الكلمات وهو السابع من شهر شوال سنة ١٣٧٠ على أتم نظام وأحسن انتظام ذات صفوف ثانوية وقسم داخلي تفوق جميع مدارس دمشق التي من نوعها بحسن تنظيمها والمحافظة فيها على التحلي بالأخلاق الإسلامية الفاضلة ونجاح طلابها في الامتحانات مائة بالمائة وأصبحت الطلاب تتهافت عليها من جميع الأحياء لما يرى أولياؤهم من تهذيب أخلاق أولادهم ونجاحهم حتى صار يضطرنا الحال أحياناً إلى رد طلبهم لضيق المكان فيحلون علينا ويصرون ووضعنا لكل صف فيها كتاباً للمحفوظات وكتباً تسعة للعقائد والأحكام الشرعية من العبادات والمعاملات والمواريث والحدود والديات وتفسير عدة من الآيات القرآنية وقسم من الأخلاقيات وطبعت هذه الكتب وانتشرت في باقي المدارس وعم نفعها وترجمت إلى الفارسية .

وقد وفق الله تعالى لإيجاد أوقاف لها من جماعة من أهل الخير وفي سنة ١٣٦٧ اشتري لها دكان في سوق الحميدية بألف ليرة عثمانية ذهبية وستزيد أوقافها بعون الله تعالى عاماً فعاماً بفضل الإخلاص وحسن النية .

وكانت مدرسة البنات قد ضاقت بالطالبات فتبرع المرحوم الحاج يوسف بيضون بشراء دار دفع ثمنها ثلاثة آلاف وثمانمائة ليرة عثمانية ذهباً وعين لها من ماله ألف ليرة عثمانية ذهباً يصرف ريعها على نفقاتها فبقيت مدة يتجر بها أحد أولاده ويقوم بنفقات المدرسة ثم اشترى بها عقاراً في بيروت ووقف عليها واعترافاً بفضل الحاج يوسف بيضون أطلقنا اسمه على المدرسة وسميناها المدرسة اليوسفية .

هذا ما وفق الله لعمله بشأن إصلاح الأمر الأول من الأمور الأربعة المتقدم إليها الإشارة وأما الأمر الثاني وهو أمر الحزبية بين أبناء الطائفة والتشاكس الواقع بينهم فرفعه أمر واحد لم نكن نعرفه ولا نعرف أن له هذا الأثر وهو المساواة بين الناس وعدم التحيز لفريق دون آخر وهذا أمر طبعنا عليه ولم نتكلفه تكلفاً .

«أما الأمر الثالث»

وهو إصلاح إقامة العزاء لسيد الشهداء(ع) فكان فيه خلل من عدة جهات (منها) ما يتلوه

الذاكرون من الأخبارالمكذوبة والأغلاط الشائنةوبعض الأعمال التي تجري في المجالس. ذكر مرة رجل وقعة الجمل فقال كان اسم الجمل عسكر بن مردية فقلت في نفسي الجمل كثيراً ما يعرف باسم أما أن يقال ابن فلان أو ابن فلانة فلم يسمع به فسألته فقال هذا موجود في البحار فراجعت البحار فإذا فيه وكان اسم الجمل عسكراً، ثم ابتدأ بكلام جديد فقال: ابن مردويه. وقرأ قارىء يوماً في الكاظمية فلم يذكر في ذلك المجلس حرفاً واحدة صادقاً وكان إلى جانبي السيد مهدي آل السيد حيدر فقلت له أقسمت عليك بالله هل فيما ذكره هذا الرجل حرف صادق قال لا قلت فلماذا لا تنهون قال لا نستطيع ولما حضر الشيخ موسى شرارة إلى جبل عامل أحضر معه مجموعة كتبها له بعض الذاكرين فيها الصحيح والسقيم مما يتلى في مجالس النجف وكان فيها خبر مقتل أمير المؤمنين(ع). وفيه كلام للأصبغ بن نباتة يخاطب به أمير المؤمنين(ع) وقد زيد فيه كلام مسجع منمق منه أن البرد لا يزلزل الجبل الأصم ولفحة الهجير لا تجفف البحر الخضم والليث يضرى إذا خدش والصل يقوى إذا ارتعش ونحو ذلك وكان الشيخ موسى يتلوه ويعجب من بلاغته. ولما كتبت مقتل أمير المؤمنين في المجالس السنية لم أجد له أثراً في كتاب وسمعت الميرزا حسين النوري مرة في داره ينكره على المنبر ويقول إنه لا أصل له وفي تلك المجموعة عدة أحاديث موضوعة وبعض الذاكرين يزيد عبارات وجملاً محزنة ليهيج بها السامعين. وهؤلاء القراء ليس لديهم ذرة من علم ولا معرفة وأكثرهم من العوام ومن كان ذا معرفة لا يتحرى إلا الصحيح ومثل هذه الأمور تجري في كل فرقة وكل طائفة فجهدت في تنزيه هذه الذكرى المباركة عن مثل ذلك ونهيت القراء عن قراءة مثلها[1] وألفت كتاب لواعج الأشجان في مقتل الحسين(ع) وانتقيته من الكتب المعتمدة ورتبته بأحسن ترتيب وأردفته بكتاب أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثأر وبكتاب الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد وبالنعي للشيخ محمد بن نصار وطبعته فراج ذلك رواجاً تاماً.

ورأينا أن تدريب القراء على قراءة الصحيح لا يتم إلا بوضع كتاب فألفنا كتاب المجالس السنية في مناقب ومصائب النبي والعترة النبوية في خمسة أجزاء الأربعة الأولى خاصة بالحسين(ع) وبعضها يزيد على مائة مجلس وطبعناها مراراً والخامس خاص بالنبي والزهراء وباقي الأئمة الأحد عشر وقد نفدت نسخه كلها.

ومن جهات الخلل في إقامة العزاء جرح الرؤوس بالمدى والسيوف ولبس الأكفان وضرب الطبول والنفخ في البوقات وغير ذلك من الأعمال وكان هذا محرم بنص الشرع وحكم العقل فجرح الرؤوس إيذاء للنفس محرم عقلاً وشرعاً لا يترتب عليه فائدة دينية ولا دنيوية بل يترتب عليه زيادة على أنه إيذاء للنفس الضرر الديني وهو إبراز شيعة أهل البيت بصورة الوحشية والسخرية وكل ذلك كلبس الأكفان وباقي الأعمال مزر بفاعله وبطائفته لا يرضاه الله ولا رسوله ولا أهل بيته فهو من عمل الشيطان وتسويل النفس الأمارة بالسوء سواء أسمي بالمواكب الحسينية أم بإقامة الشعائر أم بأي اسم كان فالأسماء لا تغير

حقائق الأشياء وعادات الطغام من العوام لاتكون دليلاً للأحكام. وكانت هذه الأعمال تعمل في المشهد المنسوب إلى السيدة زينب بقرب دمشق أحدثه بعض قناصل إيران ولم أحضره أبداً ونهيت عنه حتى بطل، وقد عملت في ذلك رسالة (التنزيه) طبعت وترجمت إلى الفارسية وقام لها بعض الناس وقعدوا وأبرقوا وأرعدوا وجاشوا وأزبدوا وهيجوا طغام العوام والقشريين ممن ينسب للدين فذهب زبدهم جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض.

لقد أشاعوا في العوام أن فلاناً حرم إقامة العزاء بل زادوا على ذلك أن نسبونا إلى الخروج من الدين واستغلوا بذلك بعض الجامدين من المعممين فقيل لهم أن فلاناً هو الذي شيد المجالس في دمشق فقالوا قد كان هذا في أول أمره لكنه بعد ذلك خرج من دين الإسلام وعمدوا إلى شخص من الذاكرين يسمى السيد صالح الحلي بذلوا له مالاً على أن يقرأ في مجلس أنشؤوه كمسجد الضرار ليقرأ فيه السيد صالح ويقدح فينا ورهن بعضهم لذلك داره وأنفق المال الذي رهنها به في ذلك السبيل[٣].

السفر للحج

في سنة ١٣٢١ عزمنا على الذهاب إلى حج بيت الله الحرام من دمشق الشام ومعنا العيال وليس معنا من النفقة غير خمس ليرات ذهبية فاستدنا لإكمالها ووفق الله بمنه وفضله لذلك وكان ذلك في إمارة الشريف عون.

في مصر

فذهبنا من طريق مصر بحراً من بيروت إلى بور سعيد فالاسماعيلية فالقاهرة وزرنا مشهد رأس الحسين(ع) فخلنا أنفسنا في كربلا لأن ما يفعله المصريون في ذلك المشهد لا ينقص عما يفعله العراقيون الشيعة في كربلا. وهو مشهد مبني بناء متقناً ورأينا فيها مدرساً معمماً جالساً على منبر صغير وحوله تلاميذ يستمعون إلى درسه وزرنا مشهد السيدة زينب وهو مشهد معظم مبني بناء غاية في الاتقان وقد ذكر في حرف الزاي من أعيان الشيعة من هي صاحبة هذا المشهد وزرنا قبر محمد بن أبي بكر والإمام الشافعي أما مشهد السيدة نفيسة فلم نوفق لزيارته ومشهد مالك الأشتر هو خارج القاهرة لذلك لم نوفق لزيارته وذهبنا إلى القناطر الخيرية وهي على النيل وقضينا نهاراً كاملاً هناك بضيافة بعض الدمشقيين الأكارم وذهبنا إلى جنينة الحيوانات وفيها من كل حيوان يمشي على أربع أو يطير بجناحيه منها الأسد ولبوته وهو في مكان منفرد لا يدنو إليه أحد رابض على سرير من الخشب كجلوس الملك على سرير الملك والزرافة والقنغر وحمار الوحش وبقر الوحش والفيل وغيرها من الطيور وحيوانات البر والبحر وإلى

الأهرام وأبو الهول والكنيسة وغيرها وهذه الأسماء والأمور التي مرت مذكورة مفصلة في الرحلة الحجازية الأولى في الجزء الثاني من معادن الجواهر المطبوع.

زيارة الأزهر

وكان ذلك أيام تعطيل الدروس الرسمية فذهبنا إلى الجامع فوجدنا شيخاً يلقي درساً على الحاضرين كان قد فرغ منه فجلست أنا ورفاقي الشاميين فالتمس أحد التلاميذ من الشيخ أن يعيد لهم الدرس وهو في قصة الحكمين وكان قصده تبكيتنا ـ ونحن بزي أهل الشام ـ بما كان يتلاعب به معاوية وعمرو بن العاص بأهل الشام فقال له الشيخ لعل بعض الجالسين لا يروق لهم ما اشتمل عليه الدرس ـ يعنينا ـ فأصر عليه فأعاده وكلما وصل الشيخ إلى شيء يعاب على الشاميين التفت ذلك التلميذ إلينا حتى وصل إلى تلاعب عمرو بأبي موسى فقال التلميذ تشرفنا بأبي موسى.

زيارة بيت المقدس

وفي هذه السنة أي سنة ١٣٢١ ذهبنا من دمشق لزيارة بيت المقدس ومشاهد الأنبياء فيه على نبينا وآله وعليهم أفضل الصلاة والسلام ونزلنا في تكية النبي داود(ع) وهذه التكية أنشأها السلطان سليم العثماني ووقف لها أوقافاً ينزلها الزائرون ويؤتى بالطعام وزارنا فيها الشيخ حسن متولي التكية ومعه رجل مثر من أهل يافا قيل لنا ان عنده ١٤ بيارة لزرع البرتقال والليمون والحمضيات وغيرها وفي يافا من عنده بيارة واحدة يعد غنياً ودعانا اليافي إلى ضيافته عند الرجوع لكنا لم نتمكن من ذلك وقال لنا الشيخ حسن في حديثه إنني ذهبت مرة لدمشق فاستخرت الله أن أنزل عند فلان أو فلان وعدد أشخاصاً فلم تكن الاستخارة جيدة فاستخرت الله أن أنزل عند الشيخ عطا الكسم فجاءت جيدة فنزلت عنده، وأمر الشيخ حسن إبن إخته الشاب الشيخ أحمد أن يصحبنا طيلة إقامتنا في القدس ونزلنا إلى أسفلها رأينا عمودين صغيرين فوقهما قوس صغير مقرنص فسألنا الخادم عنه فقال إنا نقول للعامة هذا لسان الصخرة الذي كلمت به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أما أنتم من أهل المعرفة فلا نقول لكم هذا.
ثم ذهبنا لزيارة المشهد المنسوب إلى موسى(ع) وهذا المشهد المنسوب إليه غير محقق واليهود لا يزورونه بل ينكرون أن يكون قبره هناك ويقولون أنه توفي في التيه ومحل قبره غير معلوم على التعيين إنما المعلوم أنه في التيه (أقول) وإنما ظهر هذا القبر في عهد صلاح الدين الأيوبي فجعل المسلمون يزورونه في يوم

عيد الصليب فلا يفتح في السنة إلا مرة واحدة ويوم زرناه كان مقفلاً وذهبنا إليه في العربة وكانت الطريق معبدة من القدس إلى الشريعة في مكان ما يقولون أن غسل عيسى(ع) حين ولادته فشق فرع للطريق من محاذاة مشهد النبي موسى ورأينا النصارى الروس يلثمون الصخور في الطريق الذي يقولون أنه مر فيها بعيسى حين ولد وذلك قرب القدس وبعد الزيارة سألنا الشيخ هل بقي مزار غير هذا فقال نعم مزار الشيخ حسن الراعي فقلنا ومن هو الشيخ حسن الراعي؟ فقال هوراعي سيدتنا عائشة فذهبنا وزرناه مع علمنا بأن السيدة عائشة لم تأت فلسطين ولم يكن لها راع يسمى الشيخ حسن.

الزيارة الثانية

وتشرفنا أيضاً بزيارة بيت المقدس بعد ذلك من جبل عامل بعد الحرب العامة الأولى والاحتلال الانكليزي مرة ثانية فلما دخلنا مسجد الصخرة جاء الخادم فنظر إلينا ونحن جماعة وقال لأبنه هات الكبة (أي الجبة) فجاء بها ووضع يده على الصخرة وطلب إلينا وضع أيدينا عليها وابتدأ يقول السلام عليك يا صخرة الله فقلت له لا يلزم هنا خلط هذا مسجد ليس فيه إلا الصلاة والدعاء فصلينا ودعونا وحضر وقت صلاة العصر فجاء بنا إلى زاوية من المسجد وأجلسنا هنا فقلت له لم أجلستنا هنا نحن نريد أن نصلي جماعة فقال يا سيدي أنتم تصلون معنا فقلنا ولم لا نصلي معكم ألسنا وأنتم مسلمين فقال تفضلوا فقمنا وصلينا العصر مع الإمام وبعد الفراغ تصافحنا، وشاهدنا اليهود في المبكى وهوبجانب حائط المسجد الغربي ما خارجه وجندي إنكليزي يمنع الناس من الدخول إلى محل المبكى فنظرنا المبكى من خارج واليهود مجتمعون فيه، وأجتمع المشايخ في مكان تحت المسجد بقرب المبكى وأقاموا حلقة ذكر وبالغوا في الضرب على الدفوف وعلو الأصوات ليشوشوا على من في المبكى.

وذهبنا إلى كنيسة القيامة فرأينا شيخاً مسلماً يلبس العمامة البيضاء جالساً على دكة الدهليز فسألنا عنه فقيل لنا حيث أن النصارى فرق عديدة فكل فرقة تطلب أن يكون القيم منها جعلت الحكومة قيماً مسلماً ثم صعدنا إلى الأعلى فوجدنا الزائرين منهم كهيئة الراكع مدة طويلة ومنهم على هيئات أخرى تعبداً لله تعالى، ثم نزلنا إلى الأسفل فرأينا المكان الذي يزعمون أنه دفن فيه عيسى(ع) وذهبنا إلى بلدة الخليل(ع)، ومشهده مبني بالصخور العظام العادية فابتدأ الخادم يتلوا علينا زيارة أول قبر فلما فرغ انشأنا زيارة، فلما جئنا إلى القبر الثاني قال يا سيدي زر أنت فأنا لا أقدر على مثل زيارتك ويظهر أن القبور هناك هي تحت الطابق الفوقاني من الأرض، وهناك بئر يسمونه بئر الأرواح لم نعرج عليه لظننا أنه من نوع المخرقة.

وفي سنة ١٣٤١ تشرفنا بالحج مرة ثانية في عهد الملك حسين بن علي بعد إنتهاء الحرب العامة الأولى من طريق مصر وكنا يومئذ في جبل عامل فدعانا جماعة من أهل دمشق للذهاب معهم إلى الحج

وتعهدوا لنا بالزاد والراحلة وعملنا في ذلك رحلة تذكر في الرحلات «انش» بعنوان الرحلة الحجازية الثانية.

سفرنا من جبل عامل إلى العراق فإيران

في سنة ١٣٥٢ عزمنا على السفر إلى العراق من جبل عامل لتجديد العهد لزيارة مشاهد الأئمة الأطهار عليهم السلام وزيارة مشهد الإمام الرضا (ع) في خراسان ولم نكن زرناه من قبل فخرجنا من جبل عامل في شهر شعبان المعظم من السنة المذكورة إلى دمشق وخرجنا منها أول يوم من شهر رمضان المبارك عند الضحى وفي مثل ذلك الوقت من اليوم الثاني وصلنا بغداد وصحبنا معنا مسودات أعيان الشيعة وهي ملء صندوق وكنا نقدر أن تكون أجزاؤه عشرة ثم ظننا أنها ستكون عشرين ثم اعتقدنا أنها ستبلغ الخمسين ثم ظهر لنا أنها ربما تبلغ مائة مجلد وقد طبعنا منها ٢٧ جزءاً لا يقل الواحد عن ٥٠٠ صفحة إذا ضم بعضها إلى بعض نسأله تعالى التوفيق لاكماله وطبعه. وكانت هذه الرحلة رحلة ميمونة مباركة استمرت نحوا من أحد عشر شهراً نصفها في العراق ونصفها في إيران وكنا لا نفتر فيها عن المطالعة والكتابة أينما حللنا، واستفدنا فيها فوائد جليلة وجدناها في المخطوطات النفيسة في المكتبات ولئن بخل عنا البعض بما لديه فقد جاد علينا الكثير ون (ومن بخل فإنما يبخل على نفسه) والله مغن عنه ووفقنا في هذا السفر لاقتناء نسخة من رياض العلماء بعضها بالاستنساخ وبعضها بالشراء[٤]. ولشراء واستنساخ كتب أخرى خطية نفيسة، وجرى لنا في العراق وإيران ما نشكر الله عليه.

بعض ما جرى لنا مع الفرنسيين

أصدر الفرنسيون قانون الطوائف بما لا يوافق مصلحة المسلمين ويخالف نص الشرع الإسلامي فعارض في ذلك جملة من علماء دمشق وبالغوا في المعارضة فأوقف القانون وأصدر الفرنسيون بلاغاً بأن وقفه يشمل السُنيين من المسلمين فقط. فقدمت بذلكُ احتجاجاً للمفوضية الفرنسية باللغتين العربية الفرنسية قام الفرنسيون له وقعدوا ونشرته الصحف[٥].

وعزم الفرنسيون على إحداث منصب (رئيس علماء) للشيعة[٦] في سورية ولبنان معاً وقرروا تعييني لهذا المنصب وأصدروا به مرسوماً إعتقاداً منهم بأنني أقبله بكل امتنان فالناس تتوسط للحصول عليه فكيف بمن يأتيه فقلت للرسول الذي جاء بالكتاب قل لصاحبه إن هذا الأمر لا أسير إليه بقدم ولا أخط فيه بقلم ولا أنطق فيه بفم وقلت للوفاد:

أيها السائل عنهم وعني ... لست من قيس ولا قيس مني

فعادوا أدراجهم، وبلغ ذلك الفرنسيين فأرسل لي من بيده شؤون الأوقاف والأمور الدينية منهم

سكرتيره يقنعني بالقبول ويرغبني بأنه سيكون لي أمر الأوقاف وغيرها فأبيت وجاءني إلى دمشق إثنان من زعماء الطائفة في لبنان يدعوانني إلى القبول ويقولان المسألة تحتاج إلى شيء من التضحية فقلت لهما لا يصعب على المرء أن يضحي بدمه في سبيل المصلحة العامة ولكنه لا يضحي بكرامته.

واختلفت شركة الجر والتنوير الأجنبية مع الأهالي في دمشق[٧] وكان عندي ليلة فريق من زعماء الكتلة الوطنية فقلت فما بالنا لا نقاطع هذه الشركة الأجنبية؟ لقد أماتت الدولة العثمانية عواطف الشهامة والشمم في كبرائنا فكان الوالي إذا جاء إلى هذه البلدة ومر بأحد الأكابر وسلم عليه يأتي إلى أصحابه فيقول لهم مفتخراً: الوالي اليوم «ضرب لي تمني» وأغنياؤنا وكبراؤنا اليوم دخلهم الشهري مئات الليرات الذهبية فإذا دفعوا منها في الشهر عشر ليرات سورية لا يرونها شيئاً فيدخلون الدار ليلاً ويجلسون على الأسرة والأرائك ويفتلون زر الكهرباء فتضيء الدار كأنهم في النهار ويرون ذلك هو اللذة والسعادة ولا يبالون بتحكم شركة الكهرباء الأجنبية بهم ذلك لأنها قد ماتت منهم عاطفة الشمم والأباء ولو كان فيهم شمم وإباء لأثروا «النواصة» على ضياء الكهرباء ولم يرضوا بأن تتحكم بهم هذه الشركة الأجنبية بل يجب أن نسير من هذا الأمر إلى ثورة على الفرنسيين، فقال لي بعض الجالسين لو ألقيت هذا الكلام في مجتمع من الناس قلت أنا ما تعودت أن ألقي كلاماً في المجتمعات ولكن أنتم بلغوه عني. وفي اليوم الثاني قاطع الناس الشركة مقاطعة تامة وأحرقوا بعض عرباتها ولم يعد يركب فيها أحد. ثم تحول الأمر إلى قيام عام على الإنتداب الفرنسى[٨].

مع الحكومة السورية

أصدرت الحكومة السورية في عهد الإستقلال قراراً في الانتخابات النيابية بأن للمسلمين السنّيين كذا من المقاعد في المجلس النيابي ولسائر الطوائف كذا وللأقليات كذا وبموجب ذلك دخلت الشيعة في الأقليات فقدّمت للحكومة كتاباً بأن الشيعة تعتبر المسلمين طائفة واحدة ولا تريد الافتراق عن إخوانها السنّيين فكان لذلك الوقع الحسن عند الوطنيين وقررت الحكومة بأن المسلمين طائفة واحدة لا فرق بين سنّيهم وشيعيهم وإن هذه المقاعد المعينة للمسلين في جميع أنحاء الدولة السورية هي للسنيين وللشيعيين على السواء.

وفي إحدى السنين أمرت الحكومة السورية بتغيير اسم محلة الخراب التي نقطنها وتسميتها محلة الأمين إكراماً لنا فشكرناها على ذلك[٩].

صلاة الإستسقاء

مما اتفق لنا من العناية الربانية والألطاف الإلهية أنه بعد نزوحي من دمشق وعودي إلى الوطن في جبل عامل قحط الناس وانقطع المطر، فدعونا الناس إلى موافاتنا إلى سهل الخان قرب تبنين، وصمنا الأربعاء والخميس والجمعة وخرجنا يوم الجمعة من شقراء إلى السهل حافين مشمرين ثيابنا بالخضوع والإستكانة وذكره تعالى فوجدنا الناس مجتمعة هناك من القرى المجاورة فأخذنا في الدعاء والتضرع، ولما زالت الشمس صلينا الجمعة والظهر احتياطاً ثم العصر ثم صلاة الإستسقاء وخطبنا وأمرنا الناس بالتوبة ودعونا وتضرعنا ومعنا المشائخ والأطفال، وبقينا مشتغلين بالدعاء والتضرع والبكاء إلى آخر النهار طلباً لاستجابة الدعاء في آخر ساعة من يوم الجمعة ثم أفطرنا وصلينا العشاءين، وكان ذلك اليوم صاحياً ليس في السماء شيء من الغيم وقد أذانا الحر في النهار، فما عدنا إلا وقد انتشر الغمام في السماء ومطر الناس تلك الليلة مطراً أحيا الزرع والضرع، وبعده بأعوام انقطع المطر وقحط الناس أيضاً فاستسقينا في ذلك المكان وفعلنا كفعلنا أولاً فسقي الناس ومطروا مطراً كافياً والحمد لله[10].

مشايخنا في التدريس

أما في جبل عامل(١)ـ السيد محمد حسين ابن عمنا السيد عبد الله قرأت عليه شيئاً من شرح القطر في النحو وشيئاً من شرح السعد على متن عزي في التصريف وهو أول مشايخي (٢)ـ السيد جواد مرتضى قرأنا عليه في قرية عيثا شرح قطر الندى وشرح الفية ابن مالك لابن الناظم وشيئاً من المغني ومرت ترجمته في بابها (٣)ـ السيد نجيب الدين فضل الله العاملي العيناثي قرأنا عليه في بنتجبيل المطول وحاشية ملا عبد الله وشرح الشمسية كلاهما في المنطق والمعالم إلى الإستصحاب.

أما في النجف فهم (٤)ـ السيد علي ابن عمنا السيد محمود قرأت عليه شرح اللمعة (٥)ـ السيد أحمد الكربلائي ومرت ترجمته (٦)ـ الشيخ محمد باقر النجمابادي قرأت عليهما في القوانين وشرح اللمعة والرسائل (٧)ـ الشيخ ملا فتح الله الأصفهاني المعروف بالشيخ شريعة قرأت عليه أكثر الرسائل هذا في السطوح (٨)ـ الشيخ ملا كاظم الخراساني صاحب الكفاية في الأصول وحاشية الرسائل وشرح التبصرة مختصر طريقة التدريس ومربي العلماء قرأت عليه دورة الأصول خارجاً (٩)ـ الشيخ أقا رضا الهمذاني صاحب مصباح الفقيه وحاشية الرسائل وغيرهما قرأت عليه في الفقه خارجاً في كتابه مصباح الفقيه إلى الزكاة ومرت ترجمته (١٠)ـ الشيخ محمد طه نجف قرأت عليه في الفقه خارجاً.

بعض تلاميذنا

(١)- السيد حسن ابن عمنا السيد محمود (٢)- السيد مهدي ابن السيد حسن آل إبراهيم الحسيني العاملي (٣)- الشيخ منير عسيران (٤)- السيد أمين ابن السيد علي أحمد الحسيني العاملي (٥)- الشيخ علي ابن الشيخ محمد عروة العاملي الحداثي (٦)- الشيخ عبد اللطيف شبلي ناصر العاملي الحداثي (٧)- الأستاذ أديب التقي الدمشقي (٨)- الشيخ مصطفى خليل الصوري توفي في ريعان شبابه (٩)- الشيخ خليل الصوري (١٠)- الشيخ علي الصوري (١١)- الشيخ حسين سمرو الحمصي الغوري (١٢)- الشيخ علي شميع الحمصي الغوري (١٣)- الشيخ علي الجمال الدمشقي وغيرهم.

مؤلفاته

له مؤلفات كثيرة وبعضها قد طبع مرتين أو مراراً وبعضها قد ترجم إلى غير العربية وطبع وأكثرها يزيد عن ٥٠٠ صفحة إلى ٨٠٠ صفحة وحسبك أن يكون أعيان الشيعة يبلغ مائة مجلد كبار تقريباً ولو قسم ما كتبناه تسويداً وتبييضاً ونسخاً وغيرها على عمرنا لما نقص كل يوم عن كراس مع عدم المساعد والمعين غير الله تعالى.

ولم نزل وقد بلغنا السادسة والثمانية من سني عمرنا[1] ودق العظم وخارت القوى وتوالت الهموم والأمراض مواظبين على التأليف والتصنيف ليلاً ونهاراً وعشية وإبكاراً سفراً وحضراً وقد قيل أن المجلسي لو قسمت مؤلفاته على عمره لكان نصيب كل يوم كراس وعد ذلك مبالغة مع أنه كان له من المساعدين والثروة ما ليس لنا منه شيء وعند إرادة تصحيح ما يطبع لا نجد غالباً من يقابله معنا فنتولى ذلك وحدنا فنحتاج إلى مدة طويلة لكننا ألفنا العزلة والتباعد عن الناس مهما أمكن مع اشتغالنا بالمرافعات وفصل النزاعات وتدبير أمر المعاش وغيرها وهذه أسماء مؤلفاتنا:

(أعيان الشيعة) وهو أهمها نجز منه عشرات المجلدات وطبعت وستبلغ مجلداته مائة مجلد أو تزيد وجلها يبلغ خمسمائة صفحة أو قريباً منها.. أو تزيد إلى ثمانمائة صفحة. ونحن جادون في إكمالها تأليفاً وطبعاً مستمدين منه المعونة على بذلك. وقد أصبح جل مواده جاهزاً إلى حرف الياء لكن أكثرها يحتاج إلى بذل جهود عظيمة لإخراجه كاملاً. وفقنا الله لذلك قبل مفاجأة الأجل إنه سميع مجيب.

(نقض الوشيعة) وهو في الرد على كتاب الوشيعة لموسى جار الله «مطبوع».

التاريخ

تاريخ جبل عامل، لواعج الأشجان «مطبوع» أصدق الأخبار قصة الأخذ بالثأر «مطبوع».

الحديث

البحر الزخار في شرح أحاديث الأئمة الأطهار. خرج منه ثلاثة مجلدات وفق الله لإكماله.

المنطق

شرح ايساغوجي.

أصول الدين

إرشاد الجهال يتضمن أصول الدين بطريق الإستدلال بوجه سهل قريب الفهم، الدر الثمين الأول مطبوع عدة مرات، التقليد آفة العقول.

أصول الفقه

حذف الفضول عن علم الأصول، حواشي المعالم كتبها أيام قراءته لها، حاشية القوانين، الدر المنظم في مسألة تقليد الأعلم.

الفقه

أساس الشريعة خرج منه مجلد واحد، أرجوزة في النكاح، تحفة الأحباب في آداب الطعام والشراب «مطبوع» التنزيه لأعمال الشبيه «مطبوع» جوابات المسائل الدمشقية جوابات المسائل الصافيتية، جوابات المسائل العراقية جناح الناهض إلى تعلم الفرائض، أرجوزة أولها:

الحمد لله القديم الوارث   المنشىء الخلق المميت الباعث

«مطبوعة» كشف الغامض في أحكام الفرائض في مجلدين كبيرين.

سفينة الخائض في بحر الفرائض مختصر منه بذكر الفروع مجردة عن الدليل، حواشي العروة الوثقى لعمل المقلدين، الروض الأريض في أحكام تصرفات المريض «مطبوع» الدروس الدينية تسعة أجزاء «مطبوع»، شرح التبصرة «مطبوع» درر العقود في حكم زوجة الغائب والمفقود، دروس الحيض والإستحاضة والنفاس «مطبوع»، الدر الثمين في أهم ما يجب معرفته على المسلمين في الطهارة والصلاة والزكاة والخمس والصوم وأحكام الأموات لعمل المقلدين «مطبوع مراراً»، الدرة البهية في تطبيق الموازين الشرعية على العرفية «مطبوع» كاشفة القناع في أحكام الرضاع منظومة «مطبوع».

النحو

صفوة الصفو في علم النحو، الأجرومية الجديدة «مطبوعة مراراً».

الصـرف

المنيف في علم التصريف «مطبوع مرتين»، أرجوزة في الصرف يقول في أولها:

وبعده فالصرف في الكلام	كالنحو مثل الملح في الطعام
تراهما للعلم أماً وأبا	فيا له من ولد قد نجبا
الصرف علم بأصول قد علم	بها سوى الإعراب أحوال الكلم
وما لحرف أو لشبه حرف	عندهم من علقة بالصرف

البيان

حاشية المطول كتبها أيام اشتغاله به، أرجوزة في علاقات المجاز وشرحها.

الرد والنقود

الرد الأول على صاحب المنار يأتي بعنوان الشيعة والمنار.

الرد الثاني على صاحب المنار مطبوع في مجلة العرفان

الرد الثالث على صاحب المنار يأتي بعنوان الحصون المنيعة.

الرد الرابع على مجلة المنار جواباً على رده على كشف الإرتياب يأتي بعنوان دعاة التفريق وإثارة الفتن والفساد بين المسلمين من هو موقد نارها. وهو رد مطول كثير الفوائد مطبوع في العرفان.

الرد على ما كتب في جريدة التقدم الحلبية من مراسلها في بغداد ونقلته جريدة المقتبس الدمشقية والأحوال البيروتية والهدى الأميركية وغيرها بشأن كربلا والعجم والشيعيين مطبوع في مجلة العرفان بعنوان هل كربلا مدينة الأموات.

الرد على ما جاء في مجلة الشرطة الدمشقية في شأن المتعة نشر في العرفان.

الرد على ما جاء في جريدة الإتحاد العثماني لأحد علماء حلب من تسمية يوم عاشوراء عيداً.

الرد على مجلة الحقائق الدمشقية لردها على الحصون المنيعة.

الرد على ما جاء في مجلة المقتبس بعنوان الدستور ومعاوية من تفسير بعضهم بيت شوقي:

أودى معاوية به وبعثته قبل النشور

ففسره أن معاوية هلك بسبب الدستور والحال أن مراده أن الدستور أهلكه معاوية.

الرد على جولة في ربوع الشرق لمحمد ثابت المصري مطبوع في ج ١ ق ٢ من الأعيان.

الرد على جاهل دمشقي في تفسيره الكر مطبوع في العرفان بعنوان فضائح الجهل.

الرد على من زعم أن بعض نهج البلاغة منحول مطبوع في العرفان ورد آخر مطول مطبوع في ج ٣ من الأعيان.

رفع الإشتباه عن أسئلة موسى جار الله.

الرد على الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي في مقاله المنشور في العرفان ج ٣ م ١٠ ونشر الرد في العرفان أيضاً.

الرد على ما جاء في العرفان في شأن الحصون المنيعة وتفسير بيت الحبوبي.

الرد على المحاضرة التي ألقاها الأستاذ محمد كرد علي في المجمع العلمي بدمشق نشر في العرفان.

الرد على الأستاذ محمد كرد علي فيما كتبه في مجلة المجمع العلمي عن كتاب عصر المأمون نشر أكثره في العرفان ج ١٠ م ١٥.

الرد على جميل الزهاوي في استهزائه بالشرع الشريف نشر بعضه في جريدة أبابيل.

الرد على مروان بن أبي حفصة في تفضيله العباسيين على العلويين في قصيدة أولها:

سلام على جمل وهيهات من جمل ويا حبذا جمل وإن صرمت حبلي

بقصيدة مثلها وزناً وقافية مطبوعة في القسم الثاني من الرحيق المختوم.

الرد على الوهابية بقصيدة تبلغ ٤٠٦ بيتاً تأتي باسم العقود الدرية مطبوعة.

الرد على الأخرس البغدادي في أبيات له بأبيات على وزنها وقافيتها.

الرد على الحكيم بن العباس الكلبي في بيتين له بقصيدة على وزنها وقافيتها مطبوعة في القسم الأول من الرحيق.

الرحلات

الرحلة الحمصية منظومة مطبوعة ضمن الرحيق المختوم.

الرحلة العراقية منظومة مطبوعة ضمن الرحيق المختوم.

الرحلة الحجازية الأولى مطبوعة ضمن الجزء الثاني من معادن الجواهر.

الرحلة الحجازية الثانية مطبوعة ضمن الثاني منه.

الرحلة العراقية الإيرانية[١٢].

مؤلفات شتى

كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب مطبوع، أبو تمام الطائي مطبوع، أبو فراس

الحمداني مطبوع، أبونواس مطبوع، حق اليقين في التأليف بين المسلمين رسالة مطبوعة، حاشية الغرر والدرر، حاشية مفتاح الفلاح، حاشية الصحيفة الثانية السجادية مطبوعة، معادن الجواهر ثلاثة أجزاء مطبوع، مفتاح الجنات ثلاثة أجزاء مطبوع، العلويات العشرون مطبوع، عجائب أحكام أمير المؤمنين في المفاخرة بين الراحة والتعب، الأمالي، الصحيفة الخامسة السجادية مطبوعة، القول السديد في الإجتهاد والتقليد، حواشي أمالي المرتضى، الحصون المنيعة في رد ما أورده صاحب المنار في حق الشيعة مطبوع، الشيعة والمنار مطبوع، أقناع اللائم على إقامة المآتم مطبوع، الدرر المنتقاة لأجل المحفوظات ستة أجزاء مطبوع، دعبل الخزاعي مطبوع، الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد مطبوع، شرح غريب الصحيفة الثانية السجادية، فوائد في مسائل متفرقة، المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية خمسة أجزاء مطبوع: ملحق الدر النضيد مطبوع، العقود الدرية قصيدة ٤٠٠ بيت مطبوعة مع كشف الإرتياب، مناسك الحج مطبوع، المسائل الدمشقية في الفروع الفقهية، المولد النبوي الشريف مطبوع.

المفاخرات

المفاخرة بين الغني والفقر، المفاخرة بين السيف والقلم، المفاخرة بين العلم والمال، المفاخرة بين الراحة والتعب مرت باسم أعجب العجب.

القصص

ثلاث روايات تمثيلية مثلها طلاب المدرسة العلوية على مسرح المدرسة.

من شعره

أبعد الله أناساً ... قولهم كذب ومين
ألصقوا بالدين مما ... قد أتوه كل شين
أظهروا للدين حباً ... وهو حب الدرهمين
قط ما سالت عليه ... منهم دمعة عين
قد أعادوا عصر عمرو ... يوم نصب الحكمين
ولكن سب علي المر ... تضى في الخافقين

أسـد الله ببـدر وبأحـد وحـنـين
بعـلي لبـنـيـه شبـه في الحـالـتـين
ولـعـثـمان قـمـيص لم يزل في الـزمـنـين
أنـا لا أطـلب فيـهـم أثـراً من بعـد عين
كل عصـر في الـورى فيـه يزيـد والحـسـين [١٣].

الحركة الإصلاحية الكبرى

«أشـار رحمـه الله خلال سرده لتـاريخ حياته إلى منعه ما كان يجري يوم عاشوراء من البدع وإلى تأليفه رسالة في هذا الموضوع أثارت ثائرة الخرافيين والمتاجرين بالدين، ولقد كان لهذه الرسالة دوي بعيد واعتـبرت بحق ثورة إصـلاحيـة كبرى تقرن بأعظم حركات الإصلاح العالمية، وإننا لنأخذ ـ للتاريخ ـ بعض ما جاء في تلك الرسـالـة التي سماهـا «التنـزيـه» ثم ننشـر بعـدهـا كلمـة عن صدى تلك الدعوة الإصلاحية العاصفة وما كان لها من تجاوب واستنفار في العالم الإسلامي».

قال رحمه الله في مفتتح الرسالة:

إن الله سبحـانـه وتعـالى أوجب إنكـار المنكـر بقدر الإمكان بالقلب أو اليد أو اللسان ومن أعظم المنكرات اتخاذ البدعة سنة والسنة بدعة والدعاية إليها وترويجها.

ثم يشير بعد ذلك إلى ما ينكره من الأمور التي دخلت في مجالس ذكرى الحسين فيقول:

(فمنها الكذب) بذكر الأمور المكذوبة المعلوم كذبها وعدم وجودها في خبر ولا نقلها في كتاب وهي تتلى على المنابر وفي المحافل بكرة وعشياً ولا من منكر ولا رادع وسنذكر طرفاً من ذلك في كلماتنا الآتية إن شاء الله، وهو من الكبائر بالإتفاق لا سيما إذا كان كذباً على الله أو رسوله أو أحد الأئمة عليهم السلام.

(ومنها إيذاء النفس وإدخال الضرر عليها) بضرب الرؤوس وجرحها بالمدى والسيوف حتى يسيل دمها وبضرب الظهور بسلاسل الحديد وغير ذلك. وتحريم ذلك ثابت بالعقل والنقل وما هو معلوم من سهولة الشريعة وسماحتها الذي تمدح به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: «جئتكم بالشريعة السهلة السمحاء» ومن رفع الحرج والمشقة في الدين بقوله تعالى: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾.

(ومنها الصياح والزعيق بالأصوات المنكرة القبيحة).

(ومنهـا كل ما يوجب الهتـك والشنعـة) مما لا يدخـل تحت الحصـر ويختلف الحال فيه بالنسبة إلى الأقطار والأصقاع إلى غير ذلك.

فإدخال هذه الأشياء في إقامة شعائر الحزن على الحسين (ع) من المنكرات التي تغضب الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتغضب الحسين (ع) فإنما قتل في إحياء دين جده(صلى الله عليه واله وسلم) ورفع المنكرات فكيف يرضى بفعلها لا سيما إذا فعلت بعنوان إنها طاعة وعبادة.

وقد رأينا في هذه الأيام أوراقاً مطبوعة ذكر فيها صاحبها أنه يرد على ناشئة عصرية من صفتها كذا وكذا فطائفة منها ازدلفت إلى مشاهدهم المقدسة ببقيع الغرقد فهدمتها وطائفة منهم قد تألبت لإبطال إقامة العزاء للنبي وآله وعترته أيام وفياتهم المعلومة لا سيما يوم عاشوراء.

وحسن فيها ما يفعله بعض الناس أيام عاشوراء من لبس الأكفان وكشف الرؤوس وجرحها بالمدى والسيوف حتى تسيل منها الدماء وتلطخ بها تلك الأكفان ودق الطبول وضرب الصنوج والنفخ في البوقات (الدمام) وغير ذلك والسير في الأزقة والأسواق والشوارع بتلك الحالة.

وعرض بنا بسوء القول لنهينا عن قراءة الأحاديث المكذوبة وعن هذا الفعل الشائن للمذهب وأهله والمنفر عنه والملحق به العار عند الأغيار والذي يفتح باب القدح فيه وفي أهله ونسبتهم إلى الجهل والجنون وسخافة العقول والبعد عن محاسن الشرع الإسلامي واستحلال ما حكم الشرع والعقل بتحريمه من إيذاء النفس وإدخال الضرر عليها حتى أدى الحال إلى أن صارت صورهم الفوتوغرافية تعرض في المسارح وعلى صفحات الجرائد.

وقد قال لنا أئمتنا عليهم السلام «كونوا زيناً لنا ولاتكونوا شيناً علينا» وأمرونا بأن نفعل ما يقال لأجله «رحم الله جعفر بن محمد ما أحسن ما أدب به أصحابه». ولم ينقل عنهم أنهم رخصوا أحداً من شيعتهم في ذلك ولا أمروهم به ولا فعل شيء من ذلك في عصرهم لا سراً ولا جهراً حتى في أيام ارتفاع الخوف والتقية كأوائل دولة بني العباس وعصر المأمون وغير ذلك.

وقد كتب على ظهرها أنها للمصلح الكبير أفهذا هو الإصلاح الذي يوصف صاحبه بالمصلح الكبير بالحث على أمر لو فرض محالا أنه ليس محرماً فهو يلصق العار بالمذهب وأهله وينفر الناس منه ويفتح باب القدح فيه أليس من الورع في الدين والإحتياط فيه التحاشي عنه أما يقتضي الإصلاح لو كان القصد الإصلاح تركه والتجافي عنه صيانة للمذهب وأهله من إلصاق العيب بهم والتنفير عنهم فلو فرض إباحته فهو ليس من واجبات الدين التي يضر تركها.

وقد أفاض صاحبها في ذكر خرافات العرب قبل الإسلام مما لا مساس له بالموضوع وفي أمور أخرى كثيرة من هذا القبيل بعبارات مطولة ولسنا بصدد استقصاء جميع ما فيها مما يوجب الإنتقاد لأن ذلك يطول به الكلام ولا يتعلق لنا به غرض بل نقتصر على شق الرؤوس واستعمال الطبول والزمور ونحوها ونذكر نموذجاً من كلامه في غيرها مما وقع نظرنا عليه اتفاقاً ليكون مثلاً لغيره.

كقوله «ومن فواجع الدهور وفظائع الأمور وقاصمات الظهور وموغرات الصدور ما نقلته بعض جرائد بيروت في هذا العام عمن نحترم أشخاصهم من المعاصرين الوطنيين[١٤] من تحبيذ ترك المواكب الحسينية والإجتماعات العزائية بصورها المجسمة في النبطية وغيرها فما أدري أصدق الناقل أم كذب فإن كان صادقاً فالمصيبة على الدين جسيمة عظيمة لا ينوء بها ولا ينهض بعبئها عاتق المدينين (إلى آخر ما هنالك).

ونقول: هذا التهويل وتكثير الأسجاع لا يفيد شيئاً ولو أضيف إليه أضعافه من قاطعات النحور ومجففات البحور ومفطرات الصخور ومبعثرات القبور ومهدمات القصور ومسقطات الطيور. بل إن من فجائع الدهور وفظائع الأمور وقاصمات الظهور وموغرات الصدور اتخاذ الطبول والزمور وشق الرؤوس على الوجه المشهور وإبراز شيعة أهل البيت وأتباعهم بمظهر الوحشية والسخرية أمام الجمهور مما لا يرضى به عاقل غيور وعد ذلك عبادة ونسبته إلى أهل البيت الطهور. والمواكب الحسينية والإجتماعات العزائية لا تستحسن ولا تحل إلا بتنزيهها عما حرمه الله تعالى وعمن يشين ويعيب وينسب فاعله إلى الجهل والهمجية وقد بينا أن الطبل والزمر وإيذاء النفس والبروز بالهيئة المستبشعة مما حرمه الله ولم يرضه لأوليائه سواء وقع في النبطية أو القرشية أو مكة المكرمة.

وجاء فيها «قالوا إنا نجد قراء التعزية كثيراً ما يسردون على مسامع الجالسين أحاديثاً (كذا) مكذوبة وأجاب بما لفظه: وكثير من أساطين العلماء يعملون بضعاف الأخبار من السنن ومن المعلوم أن روايات التعزية من سنخ الرخص لا العزائم والله يحب أن يأخذ برخصه كما يحب أن يأخذ بعزائمه».

وإنا نسأله ما ربط عمل العلماء بالخبر الضعيف في السنن بأخبار التعزية التي هي أمور تاريخية لا أحكام شرعية وما ربط الخبر الضعيف بالمقام والقائل الموهوم إنما قال إنهم يوردون أحاديث مكذوبة ولم يقل ضعيفة الإسناد وما معنى أن روايات التعزية من سنخ الرخص لا العزائم فالرخصة خاصة بالمباح والمستحب والمكروه والعزيمة بالحرام والواجب فما معنى أن روايات التعزية من الرخص فهل تلك الروايات نفسها مباحة أو مكروهة أو مستحبة فإن كان المراد نفس الرواية فلا تتصف بشيء من ذلك وإن كان المراد نقلها فأي معنى لقول نقلها رخصة لا عزيمة مع أنها إن كانت كذباً كان نقلها محرماً وإن كان المراد مضمونها فهو قصة تاريخية لا تتصف برخصة ولا عزيمة ولو فرض أن مضمونها حكم شرعي فلا بد أن يكون أحد الأحكام الخمسة التكليفية فكيف جعل رخصة فقط (وقوله) إن الله يحب أن يؤخذ برخصه الخ لا ربط له بالمقام إذ معناه إن الله يحب أن يخفف على عبده بترك المستحب مثلاً كما يحب أن يلتزم بفعل الواجب وترك المحرم فما ربط ذلك بإيراد الرواية المكذوبة في التعزية.

وجاء فيها «قالوا وجلهم أي قراء التعزية يتلو الحديث ملحونا (وأجاب) بما ملخصه على طوله أن المستمعين أمم عديدة ألسنتها شتى منهم عربي وفارسي وتركي وهندي و. و. الخ. ومنهم عوام فينقل

لهم معنى الأحاديث بألفاظهم العامية (إلى أن قال) وأي حاجة ماسة للعربية الفصحى في قراءة التعزية على أمـة أميـة كمعـدان العـراق وقروية الشام وسكان بادية نجد والحجاز واليمن المصطلحين فيما بينهم على وضع ألفاظ معلومة».

وأنت ترى أن الجواب غير منطبق على هذا المقال الموهوم فالقائل يقول الأحسن رفع اللحن من قراءة التعـزيـة وهـو يقـول في جوابـه أن المستمعين منهم عربي وفارسي وتركي وهندي فما ربط الفارسي والتركي والهندي والجاوي بالمقام فلم يقل القائل أن لا ينبغي قراءة التعزية بالتركية للأتراك وبالفارسية للفرس وبالهندية للهنود بل يقول ينبغي لقراء التعزية بالعربية للعرب عدم اللحن ولم يقل أن لا ينبغي أن يقرأ الحديث بالمعنى حتى يجيبه بأن منهم عواماً فينقل لهم الحديث بألفاظهم العامية على أن ذلك أمر غير واقـع فليس في قراءة التعـزيـة من يقرأ بالألفاظ العامية بل كلهم يقرأون الفصحى ولكن مع اللحن من البعض والقائل لم يأب عن قراءة التعزية بالألفاظ العامية كالنعي المتعارف بل يقول إذا قرىء الشعر لا يحسن أن يكون ملحوناً وإذا نقل حديث أو خطبة ينبغي أن لا يكون فيه لحن.

والقـائـل يقـول لا ينبغي اللحن في قراءة التعـزيـة وهـو يقـول في جوابـه لا يلزم قراءتهـا بالعربية الفصحى ولو فرضنا أنه أراد من العربية الفصحى عدم اللحن فيقال له إذاً أي حاجة إلى ترك اللحن في جميـع الكـلام ولمـاذا وضـع النحو وكتب العربية وهل قراءة الفاعل مخفوضاً والمفعول مرفوعاً تزيد في فهم المعاني لمعدان العراق وقروية الشام وسكان بادية نجد واليمن والنازلين بأرياف مصر والحالين في نواحي حضرموت والمتبوئين صحراء إفريقية وبلاد المغرب وما الذي يدعوه إلى كل هذه المدافعة عن اللحن في قراءة التعزية وما القارىء إلا خطيب. وما الذي يدعوه إلى كل هذه المدافعة عن اللحن في القراءة أهو حب الإصـلاح أم أمـر آخـر وهـل إذا تلونـا الحديث والشعر بدون لحن فاستجلبنا به قلب ذي المعرفة ولم ننفره بسماع الغلط وصنا الحديث عن اللحن والغلط وعن الخطأ في فهم المعنى بسبب اللحن ولم نجعل تفاوتاً على غير ذي المعرفة الذي لا يضره رفع الفاعل ولا يزيد في فهمه خفضه يكون عملنا هذا مضراً وعكسه نافعاً والمستمعون كما يوجد فيهم المعدان يوجد فيهم أهل العلم والمعرفة.

قال: «وممن طعن على القراء للتعزية بعض المعاصرين زعم أن الكثيرين منهم بين مخلق (كذا)[١٠] للأخبار وبين ماسخ لها وعنده هذا الطعن عليه ـ انتهى».

ومـراده كاتب هذه السطـور الـذي ذكـر في مقدمة المجالس السنية ما لفظه: هذا ولكن كثيراً من الـذاكـرين لمصـابهم (ع) قد اختلقـوا أحاديث في المصائب وغيرها لم يذكرها مؤرخ ولا مؤلف ومسخوا بعض الأحاديث الصحيحة وزادوا ونقصوا فيها لما يرونه من تأثيرها في نفوس المستمعين الجاهلين بصحة الأخبار وسقمها إلى آخر ما ذكرناه. والمجالس السنية إنما ألفناها لتهذيب قراءة التعزية وإصلاحها من العيـوب الشـائنـة والمحرمات الموبقة من الكذب وغيره وانتقاء الأحاديث الصحيحة الجامعة لكل فائدة

يقول هذا الرجل إننا نزعم أن الكثير منهم بين مختلق للأخبار ثم يشتمنا بهذا القول وما ندري ما الذي يزعمه هو أيزعم أنهم كلهم ليسوا كذلك كيف وغالبهم عوام يخلطون الحابل بالنابل ولا ننكر أن فيهم الفضلاء الكاملين الذين يفتخر بأمثالهم ولكن الكثير منهم ليسوا كذلك كما هو مشاهد بالعيان ويجهل أو يتجاهل قراءتهم حديث أين ضلت راحلتك يا حسان الذي اختلقه بعض الناس على سطح مسجد الكوفة كما هو مشهور عند فضلاء النجف وغيرهم. أم حديث خرجت أتفقد هذه التلاع مخافة أن تكون مظنا لهجوم الخيل على مخيمنا يوم يحملون وتحملون وإلا فليدلنا في أي كتاب هذا الحديث وأي رواية جاءت به ضعيفة أو صحيحة. أم حديث أن البرد لا يزلزل الجبل الأصم ولفحة الهجير لا تجفف البحر الخضم أم حديث قول شمر للحسين (عليه السلام) (بعدك حياً يا ابن الخارجي) أم حديث أي جرح تشده لك زينب. أم حديث مخاطبة زينب للعباس حين عرض شمر عليه وعلى إخوته الأمان. أم حديث مجيء زين العابدين لدفن أبيه مع بني أسد. أم حديث درة الصدف التي حاربت مع الحسين

فقام هذا الرجل يرمينا بأن هذا الطعن علينا بأننا نختلق الأحاديث ونمسخها وجاء بعبارته هذه التي جمجم فيها وبترها وأبت نفسه إلا أن يذكرها والله تعالى يعلم وعباده يعلمون وهو نفسه يعلم أننا لسنا كذلك وإننا نسعى جهدنا ونصـــرف نفيس أوقاتنا وعزيز أموالنا في تأليف الكتب وطبعها ونشرها لا نستجدي أحداً ولا نطلب معونة مخلوق قصد التهذيب الأحاديث التي تقرأ في إقامة العزاء من كل كذب وعيب وشين ليكون الذاكرون من الخطباء الذين تستجلب قراءتهم الأنظار وتستهوي إليها الأفئدة والأسماع وتستميل الطباع وليكون أثرها في النفوس بقدر ميلها إليها ولتكون مفخراً للشيعة لا عاراً عليهم ولتكون قراءتهم عبادة خالصة من شوب الكذب الموجب لانقلابها معصية فإن إقامة شعائر الحزن بذكر صفات الحسين (عليه السلام) ومناقبه ومآثره ووصف شجاعته وإبائه للضيم وفظاعة ما جرى عليه وذكر المواعظ والخطب والآداب ومستحسن أخبار السلف وغير ذلك والتخلص إلى فاجعة كربلا على النهج المألوف مع تهذيبها عن المنافيات والمنكرات من أنفع المدارس وأقوى أسباب التبشير بالدين الإسلامي وطريقة أهل البيت عليهم السلام وجلب القلوب إلى حبهم والسير على طريقتهم والإتصاف بتكريم صفاتهم كما أن إقامتها على غير هذه الطريقة من أقوى أسباب التنفير عن دين الإسلام وطريقة أهل البيت عليهم السلام يعرف ذلك كل منصف ونحن نذكر لك واقعة واحدة تكون نموذجاً لما نقوله وهي أنه اتفق وجودنا في مدينة بعلبك في وفاة بعض أجلاء السادة من آل مرتضى فقرأ رجل من القراء الذين عودناهم على عدم اللحن في القراءة خطبة من النهج في صفة الأموات وكان بعض عرفاء المسيحيين حاضراً فقال لجلسائه إنني لم أعجب من بلاغة هذا الكلام الذي هو غاية في البلاغة ولا من جري القارىء في قراءته كالسيل ولا من مضامين هذا الكلام الفائقة وإن كان ذلك كله موضع العجب وإنما عجبت من عدم لحن هذا القارىء فيما قرأه على طوله.

(عليه السلام) أم حديث مجيء الطيور التي تمرغت بدم الحسين (عليه السلام) إلى المدينة ومعرفة فاطمة الصغرى بقتل أبيها من تلك الطيور: أم غير هذه الأحاديث الكثيرة التي تقرأ على المنابر وهي من الكذب الصراح والتي يطول الكلام بالإشارة إليها في هذه العجالة. أم يزعم أن قراءة الأحاديث المختلقة خير من قراءة الأحاديث الصحيحة المروية قصداً للإصلاح.

وحاصل مقصود هذا المصلح الكبير أن لا ينبه أحد من قراءة التعزية على ترك قراءة الأحاديث المكذوبة وعلى ترك اللحن ولا على قراءة بعض ما ينفر السامعين بل يريد أن تبقى الأحاديث ممزوجاً صحيحها بسقيمها وغثها بسمينها وصدقها بكذبها وخطأها بصوابها وقشرها بلبابها ولحنها باعرابها فحبذا هذا الإصلاح. وما ندري ما الذي يسوءه من حمل القراء على قراءة الأحاديث الصحيحة وما الذي يعجبه من قراءة الأحاديث المكذوبة والملونة وليس هو بقارىء تعزية ولا إقامة القراء محامياً ووكيلاً عنهم.

ومما قاله في تحسين لبس الأكفان وكشف الرؤوس وشقها بالمدى والسيوف يوم عاشوراء: «ما الذي نقموه على هذه الفئة وسفهوا لأجله أحلامها وأخرجوها به عن دائرة الإنسانية ألبسها لبس الموتى فهذا عمل غير معيب عقلاً وهو مشروع ديناً في إحرام الحج ومندوب في كل آن للآخرة وتأهباً للموت وكفى واعظاً من الغرور بالدنيا محذراً ومنذراً كشفها عن رؤوسها وهذا أيضاً مستحسن طباً مشروع بالإحرام ديناً أم شقها أرؤسها بآلة جارحة وهذا أيضاً مسنون شرعاً إذ هو ضرب من الحجامة تلحقها الأحكام الخمسة التكليفية مباحة بالأصل والراجح منها مستحب والمرجوح مكروه والمضر محرم والحافظ للصحة واجب فقد تمس الحاجة إلى عملية جراحية تفضي إلى بتر عضو أو أعضاء رئيسية حفظاً لبقية البدن وسداً لرمق الحياة الدنيوية والحياة الدنيا بأسرها وشيكة الزوال والإضمحلال أتباح هذه الجراحة الخطرة لفائدة ما دنيوية ولا تباح جراحة ما في إهاب الرأس لأعظمها فائدة وأجلها فائدة وأجلها سعادة أخروية وحياة أبدية وفوز بمرافقة الأبرار في جنة الخلد ـ انتهى».

قوله الحجامة مباحة بالأصل بل هي محرمة بالأصل لأنها ضرر وإيذاء للنفس ولا تحل إلا مع الضرورة لدفع مرض أو ألم أعظم منها وإلا لكانت كفعل حجام ساباط الذي ضرب به المثل فقيل: أفرغ من حجام ساباط.

وكان إذا لم يجد من يحجمه حجم زوجته وأولاده (قوله) والمرجوح مستحب فيه أنه يشمل الواجب والمستحب (قوله) والحافظ للصحة واجب فيه إنه لا يجب دائماً فمع الخوف على النفس يجب وبدونه يستحب. وحيث جعل شق الرؤوس نوعاً من الحجامة فهو أما واجب وذلك حينما يخشى الضارب على نفسه الهلاك لو لم يضرب نفسه بأن يخبره الطبيب الحاذق أن في رأسه مرضاً مهلكاً لا يشفيه إلا جرح رأسه وشقه أو مستحب بأن يكون الضارب محموماً حمى شديدة ويخبره الطبيب الحاذق أن دواءه في شق رأسه وإخراج الدم منه ويشترط في هذين عدم التعرض للشمس وشدة الحركة الذي قد يوجب شدة

مرضه أو هلاكه وإما محرم وذلك حيث يكون إيذاء صرفاً وضرراً بحتاً. وحيث أن الذين يضربون رؤوسهم ليس في رؤوسهم داء ولا في أبدانهم حمى فانحصر فعلهم في الحرام وإذا كان محرماً لم يكن مقرباً إلى الله ولا موجباً لثوابه بل موجباً لعقابه ومغضباً لله ولرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وللحسين (عليه السلام) الذي قتل لإحياء شرع جده (صلى الله عليه وآله وسلم) (قوله) قد تمس الحاجة إلى عملية جراحية الخ فيه أن العملية الجراحية المفضية إلى بتر العضو أو الأعضاء تباح بل تجب لأنها مقدمة لحفظ النفس الواجب وتباح لأجل الضرورة فإن الضرورات تبيح المحظورات فيقدم الأهم وهو حفظ النفس على المهم وهو عدم الإيذاء والإضرار ويرتكب أخف الضررين ولكن الحرام لا يباح لإدراك المستحب فالإستحباب لا يعارض الحرمة ولا يطاع الله من حيث يعصى ولا يتقبل الله إلا من المتقين. ومن ذلك تعلم أن قوله أتباح هذه الجراحة الخطرة لفائدة ما دنيوية ولا تباح جراحة ما في إهاب الرأس لأعظمها فائدة وأجلها سعادة أخروية كلام شعري فإن الفائدة الأخروية وهي الثواب لا تترتب على فعل المحرم فلا يكون في هذا الفعل إلا الضرر الدنيوي والأخروي.

وما أشبه هذا الكلام الشعري بما يحكى أن رجلاً صوفياً سرق تفاحة وتصدق بها فسأله الإمام الصادق (عليه السلام) عن سبب فعله ذلك فقال إنه لما سرقها كتبت عليه سيئة فلما تصدق بها كتب له عشر حسنات لأن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها فإذا أسقطنا سيئة من عشر حسنات بقي تسع حسنات فقال له الصادق (عليه السلام) إن هذا جهل أو ما سمعت قوله تعالى إنما يتقبل الله من المتقين إنك لما سرقت التفاحة كتبت عليك سيئة فلما تصدقت بها كتبت عليك سيئة أخرى لأنك تصدقت بغير مالك أو ما هذا معناه.

ثم قال: « لا يقال إن السعادة والفوز غدا لا يترتبان على عمل ضرري غير مجعول في دين الله لأنا نقول أولا الغير مشروع (كذا) في الإسلام من الأمور الضررية هو ما خرج عن وسع المكلف ونطاق طاقته لقبح التكليف حينئذ بغير مقدور أما ما كان مقدوراً فلم يقم برهان عقلي ولا نقلي على منع جعله وكونه شاقاً ومؤذياً لا ينهض دليلاً على عدم جعله إذ التكاليف كلها مشتقة من الكلفة وهي المشقة وبعضها أشد من بعض وأفضلها أحمزها وعلى قدر نشاط المرء يكون تكليفه وبزنة رياضة المرء نفسه وقوة صبره وعظمة معرفته يكلف بالأشق فالأشق زيادة للأجر وعلوا للرتبة ومزيداً للكرامة ومن ها هنا كانت تكاليف الأنبياء أشق من غيرها ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل وفي الخبر أن عظيم البلاء يكافؤه عظيم الجزاء وفي آخر أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل من المؤمنين وعباد الله الصالحين وهكذا إلى الطبقة السفلى وهي طبقة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فهم أخف تكليفاً من سائر الطبقات ـ انتهى».

قوله لا يترتبان على عمل ضروري غير مجعول في دين الله (فيه) أن الجعل للأحكام لا للأعمال

فيقال هذا الحكم مجعول في دين الله أو غير مجعول ولا معنى لقولنا هذا العمل مجعول في دين الله أو غير مجعول بل يقال جائز أو غير جائز أو نحو ذلك (قوله) لأنا نقول أولا الغير مشروع (كذا) في الإسلام الخ فيـه (اولاً) أن قولـه الغـير مشـروع لحن غير مسمـوع تكرر وقوعه منه كما نبهنا عليه إذ لا يجوز دخول ال على المضاف إلا إذا دخلت على المضاف إليه كالجعد الشعر (ثانياً) إنه ذكر أولا ولم يذكر ثانياً (قوله) ؟ما ما كان مقـدوراً فلم يقم برهـان عقـلي ولا نقلي على منع جعله فيه (أولاً) إن الكلام في العمل الذي فيه ضرر كما صرح به في قوله لا يترتبان على عمل ضروري والجعل للحكم لا للعمل كما مر فكأنه اشتبه عليه ما سمعه من أن الله لم يجعل حكماً ضررياً بمقتضى قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ضرر ولا ضرار ومـا يريـد أن يثبتـه من أن الله يجوز أن يكلف بما فيـه ضرر كشق الـرؤوس فخلط أحـدهما بالآخر (ثانياً) قوله لم يقم برهان عقلي ولا نقلي على منع جعله إن أراد به أنه لم يقم برهان على جواز أن يكلف الله بما فيـه ضرر فأين قول الفقهـاء دفـع الضـرر المظنـون واجب وأن اكتفاؤهم باحتمال الضرر الموجب لصدق خوف الضرر في إسقاط التكليف وأين قولهم بوجوب الإفطار لخائف الضرر من الصوم وببطلان غسل من يخاف الضرر لحرمة الغسل واقتضاء النهي الفساد في العبادة ووجوب التيمم حينئذ وأين قولهم بوجـوب الصيـام وإتمـام الصـلاة على المسافر الذي يخاف الضرر على نفسه بالسفر لكون سفره معصية وقولهم بسقوط الحج عمن يكون عليه عسر وحرج في الركوب والسفر أو يخاف الضرر بسفره إلى غير ذلك من الأحكام المنتشرة في أبواب الفقه (قوله) وكونه شاقاً ومؤذياً لا ينهض دليلاً على عدم جعله ـ فيه أنه أعـاد لفـظ الجعـل وقـد عرفت أنه ليس له هنا محل وجمع بين الشاق والمؤذي وهما غيران حكماً وموضوعاً فالمؤذي وهو الضار يحرم فعله ولم يكلف الله به والشاق الذي فيه عسر وحرج لم يكلف الله به لقوله تعالى ما جعل عليكم في الدين من حرج إلا في موارد مخصوصة لكن ربما فعله إذا لم يكن مضراً.

ومن الطـريف قولـه التكـاليف كلهـا مشتقـة من الكلفة فإن الكلفة إذا بلغت حد العسر والحرج وأسقطت التكليف كما عرفت وإذا بلغت إلى حد الضرر أوجبت حرمة الفعل. وأفضل الأعمال احمزها إذا لم تصل إلى حد الضرر وإلا حرمت فضلاً عن أن تكون أفضل أو غير أفضل (قوله) على قدر نشاط المرء يكون تكليفه الخ فيه أن تكاليف الله لعباده واحدة لا تتفاوت بالنشاط والكسل وقوة الصبر وعظمة المعرفة فالواجبات يكلف بها الجميع لا يسقط واجب عن أحد بكسله وضعف صبره وحقارة معرفته ولا يباح محرم لأحد بشيء من ذلك ولا يجب مباح ولا يحرم على أحد بقوة صبره ونشاطه وعظمة معرفته وكذا المستحبـات والمكـروهـات نعم الكسـلان كثـيراً ما يترك المستحب وقليـل الصبر كثيراً ما يفعل المكروه والتكليف في الكـل واحـد وليس في الشـريعـة تكليف لشخص بغـير الشـاق ولآخـر بالشاق ولشخص بالشاق الآخر بالأشق بحسب تفاوت درجاتهم ومراتبهم في النشاط والرياضة والصبر والمعرفة (ومن هنا) تعلم فسـاد قولـه: ومن ها هنـا كانت تكـاليف الأنبياء أشق من غيرها ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل.

نعم كلف نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) دون غيره بأشياء خاصة مثل صلاة الليل فكانت واجبة عليه كما أبيح له أشياء خاصة دون غيره مثل الزيادة على أربع أزواج وباقي التكاليف يتساوى فيها مع غيره وأين هذا مما نحن فيه.

قوله وفي الخبر أن عظيم البلاء يكافؤه عظيم الجزاء. هذا أجنبي عن المقام إذ المراد بالبلاء هو المصائب الدنيوية من موت الأولاد وذهاب الأموال والقتل وتسلط الظالم وأمثال ذلك وأي ربط لهذا بما نحن فيه من التكليف بالشاق أو ما فيه ضرر. وهكذا خبر أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل:

ليس معناه أشد الناس تكليفاً بل المراد بذلك المصائب والبلايا الدنيوية التي تصدر عليهم كما صدر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته عليهم السلام وأوليائهم. وفي أي لغة يصح تفسير البلاء بالتكليف. وهل الذين يشقون رؤوسهم من أمثل الطبقات حتى كلفوا بذلك والعلماء وخيار المؤمنين ليسوا كذلك فلم يكلفوا به ولم يفعلوه.

(وأما المستضعفون) فهم القاصرون في الإدراك الذين رفع الله عنهم بعض التكاليف التي لا يمكنهم معرفتها لقصور إدراكهم كما رفع التكاليف عن المجانين لحكم العقل بقبح تكليف الجميع فأين هذا مما نحن فيه.

قال: «ولو كان الشاق وإن دخل تحت القدرة والطوق غير مشروع ما فعلته الأنبياء والأوصياء ألم يقم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للصلاة حتى تورمت قدماه ألم يضع حجر المجاعة على بطنه مع اقتداره على الشبع ألم تحج الأئمة مشاة حتى تورمت أقدامهم مع تمكنهم من الركوب ألم يتخذ علي بن الحسين البكاء على أبيه دأباً والإمتناع من تناول الطعام والشراب حتى يمزجها بدموع عينيه ويغمى عليه في كل يوم مرة أو مرتين أيجوز للنبي وآله (صلى الله عليه وآله وسلم) إدخال المشقة على أنفسهم طمعاً بمزيد الثواب ولا يجوز لغيرهم إيباح لزين العابدين أن ينزل بنفسه ما ينزله من الآلام تأثراً وانفعالاً من مصيبة أبيه ولا يباح لوليه أن يؤلم نفسه لمصيبة أمامه أينفض العباس الماء من يده وهو على ما هو عليه من شدة الظمأ تأسياً بعطش أخيه ولا نقتص أثره أيقرح الرضا جفون عينيه من البكاء والعين أعظم جارحة نفيسة ولا نتأسى به فنقرح على الأقل صدورنا ونجرح بعض رؤوسنا أتبكي السماء والأرض تلك بالحمرة وتي بالدم العبيط ولا يبكي الشيعي بالدم المهراق من جميع أعضائه وجوارحه ولعل الأذن من الله لسمائه وأرضه أن ينزف (كذا) على الحسين ما تشعر بترخيص الإنسان الشاعر لتلك المصيبة الراتبة أن ينزف من دمع ما استطاع نزفه إجلالاً وإعظاماً وهب إنه لا دليل على الندب فلا دليل على الحرمة مع أن الشيعي الجارح نفسه لا يعتقد بذلك الضرر ومن كان بهذه المثابة لا يلزم بالمنع من الجرح وإن حصل له منه الضرر اتفاقاً ـ انتهى».

وقد عرفت أن المشقة إذا وصلت لحد العسر والحرج أوجبت رفع التكليف بالإجماع لقوله تعالى ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ ولم توجب تحريم الفعل وإذا وصلت إلى حد الضرر أوجبت رفع التكليف وحرمة الفعل (أما) استشهاده بقيام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للصلاة حتى تورمت قدماه فإن صح فلا بد أن يكون من باب الإتفاق أي ترتب الورم على القيام اتفاقاً ولم يكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلم بترتبه وإلا لم يجز القيام المعلوم أو المظنون أنه يؤدي إلى ذلك لأنه ضرر يدفع التكليف ويوجب حرمة الفعل المؤدي إليه وإلا فأين ما اتفق عليه الفقهاء من أنه إذا خاف المكلف حصول الخشونة في الجلد وتشققه من استعمال الماء في الوضوء انتقل فرضه إلى التيمم ولم يجز له الوضوء مع أنه أقل ضرراً وإيذاء من شق الرؤوس بالمدى والسيوف إلى غير ذلك، وأما وضعه حجر المجاعة على بطنه مع اقتداره على الشبع فلو صح لحمل على صورة عدم خوف الضرر الموجب لحرمة ذلك، لكن من أين ثبت أنه كان يتحمل الجوع المفرط الموجب لخوف الضرر اختياراً مع القدرة على الشبع وكذا استشهاده بحج الأئمة مشاة هو من هذا القبيل. أما بكاء علي بن الحسين (عليه السلام) على أبيه المؤدي إلى الإغماء وامتناعه عن الطعام والشراب فإن صح فهو أجنبي عن المقام فإن هذه أمور قهرية لا يتعلق بها تكليف وما كان منها اختيارياً فحاله حال ما مر، وأما نفض العباس الماء من يده تأسياً بعطش أخيه فلو صح لم يكن حجة لعدم العصمة، وأما استشهاده بتقريح الرضا (عليه السلام) جفون عينيه من البكاء فإن صح فلا بد أن يكون حصل ذلك قهراً واضطراراً لا قصداً واختياراً وإلا لحرم ومن يعلم أو يظن أن البكاء يقرح عينيه فلا يجوز له البكاء إن قدر على تركه لوجوب دفع الضرر بالإجماع وحكم العقل، أما قوله: «أتبكي السماء الخ . . .» فكلام شعري صرف لا يكون دليلاً ولا مؤيداً لحكم شرعي وأما قوله:

وهب أنه لا دليل على الندب فلا دليل على الحرمة فطريف لأن الأصل في المؤذي والمضر الحرمة ودفع الضرر واجب عقلاً ونقلاً، ومثله قوله مع أن الشيعي الجارح لا يعتقد بذلك الضرر، فإن الجرح نفسه ضرر أولاً وذلك لا يتفاوت فيه الشيعي وغيره فالكل ذو لحم ودم لا دخل فيه للمذهب.

ثم نقول عطفاً على قوله «أيقرح الرضا جفون عينيه ولا نتأسى به فنقرح على الأقل صدورنا ونجرح بعض رؤوسنا: إننا لم نركم جرحتم مرة بعض رؤوسكم ولا كلها ولا قرحتم صدوركم من اللطم ولا فعل ذلك أحد من العلماء وإنما يفعله العوام والجهلة. أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم. يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.

ونقول عطفاً على قوله: «أتبكي السماء والأرض بالحمرة ولا يبكي الشيعي بالدم المهراق من جميع أعضائه»: إننا ما رأيناكم أهرقتم دماً طول عمركم للحزن من بعض أعضائكم ولا من جميعها فلماذا تركتم هذا المستحب المؤكد تركاً أبدياً وهجرتموه هجراً سرمدياً ولم يفعله أحد من العلماء في عمره ولو

بجرح صغير كبضعة الحجام ولماذا لم يلبسوا الأكفان ويحملوا الطبول والأبواق وتركوا هذه المستحبات تفوز بها العوام والجهلة دونهم[١٦].

الحواشي

(١) يقصد كتاب «أعيان الشيعة» إذ أراد أن يجعل هذه الترجمة جزءاً منه «ح».

(٢) كتب الأستاذ محمد علي مروة في الجزء السابع م٤٢ من مجلة العرفان الغراء كلمة في هذا الموضوع نقتطف منها ما يلي:

ولعل من المفيد أن نذكر أن أول من انتبه إلى الأمر «أي أمر المنابر الحسينية» وفكر فيه كان الفقيد العظيم المرحوم السيد محسن الأمين فقد اختط للإصلاح خطة عملية صحيحة ففرض على الخطباء رقابة عسيرة تولاها بنفسه منعتهم من أن يسترسلوا في التهويش والتهويل، وكان إذا سمع من أحدهم وهو على المنبر كلمة لم ترضه لا يتوانى عن أن ينبهه في الحال وأن يقطع عليه خطابه ليصححها في أذهان الجمهور المستمع ثم يأمر الخطيب بمعاودة الكلام ولم يكن يستطيع مع الجيل القديم أكثر من هذا لذلك عمد إلى اختيار جيل جديد من الخطباء رباه بيديه وخرجه بنفسه فكان أفراده من أحسن الناس ثقافة وتعمقاً في البحث، وحسبك أنه اختار فيهم من يحسن لغة أجنبية ليكون أكثر وعياً وأبعد إدراكاً، ولما تكامل هذا الجيل حرم على الجيل الماضي أن يصعد واحد منه منبراً، ثم تخطفهم الموت واحداً بعد واحد فخلا الميدان للخطباء المجددين. وإذا قدر لك أن تحضر واحداً من هذه المجالس عرفت كيف يكون الإصلاح الصحيح والتوجيه الحق، وعلى منهج هذه المدرسة سار من جددوا بعد ذلك من الخطباء في بيروت وجبل عامل وغيرهما. ولم يكتف رحمه الله بهذا القدر بل ثار ثورته الكبرى على ما يرافق هذه الذكريات من بدع وضلالات وأعمال شاذة، وألف رسالته الشهيرة (التنزيه) داعياً إلى تنزيه الدين من الأباطيل، وتنزيه المحافل من الأضاليل، وجابه العامة بما لا يتفق مع عقائدها وتقاليدها المفسدة ولم يبال غضبها وصخبها، وعندما حذره بعض صحابته من خطر ثورة العامة ابتسم وظل مندفعاً فأثار الرجعيون العامة على هذا التفكير الجديد ثورة عارمة وتعرضه رحمه الله لأعنف الحملات وأشدها بذاءة، ولكنه صمد لها لقوة شخصيته حتى فازت دعوته وعلم الناس أنها دعوة الحق.

(٣) راجع مقال الأستاذ جعفر الخليلي الآتي في هذا الكتاب «ح»

(٤) حفظت مع غيرها من كتبه في مكتبته الخاصة التي نقلت بعد وفاته إلى المدرسة المحسنية.

(٥) وهذا نصه:

إلى فخامة المفوض السامي في بيروت.

بواسطة المندوب العام في الجمهورية السورية.

لقد سمعتم الاحتجاجات الصاخبة التي قام بها المسلمون عموماً في مشارق الأرض ومغاربها على القرار ذي الرقم ٦٠ المسمى بقانون الطوائف وعلى تعديله ذي الرقم ١٦٤ الصادرين عن المفوضية العليا لأنهما مناقضان صريحة لتعاليم دينهم وأحكام شريعتهم التي نص على احترامها حتى صك الانتداب والذي سبب هذه الثورة الفكرية في البلاد.

ولم نكن نحن المسلمين الشيعيين بأقل استنكاراً لهذا القرار الذي يسيء إلى حرمة الأديان السماوية كافة لأننا من أشد أبناء الشريعة المحمدية تمسكاً بتقاليدها وحرصاً على تعاليمها ولذلك استغربنا أشد الاستغراب ما جاء في خطاب فخامتكم في الراديو من تفريقكم بين طوائف المسلمين هذا التفريق الذي ينكره المسلمون أجمع ونستغرب قصركم توقيف مفعول القرار على الطائفة السنية وحدها واستثناؤكم بقية المسلمين من ذلك.

فأنا بصفتي الرئيس الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في سورية ولبنان أرجو فخامتكم أن تحيطوا علماً باستنكار المسلمين الشيعيين عامة لهذا القرار ولهذه التفرقة المصطنعة بين المسلمين.

وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي

محسن الأمين الحسيني

(٦) راجع ما كتبه في هذا الموضوع الأستاذ لطفي الحفار والأستاذ وجيه بيضون في هذا الكتاب.

(٧) راجع مقال الأستاذ أديب الصفدي في هذا الكتاب.

(٨) أنتجت هذه المقاطعة الاضراب الخمسيني المشهور في سورية الذي اضطر معه الكونت دي مارتيل المفوض السامي الفرنسي إلى النزول على رأي الوطنيين مما هو معروف في تاريخ سورية ولبنان (راجع ما كتبه الأستاذ منح الصلح في هذا الكتاب).

(٩) علقت الصحف العربية على هذا النبأ تعليقات كريمة نأخذ منها ما كتبته جريدة القبس كمثال لما كتب في هذا الموضوع.

قالت القبس:

ليس يجهل أحد ما لسماحة المجتهد الأكبر السيد محسن الأمين، من أياد مشكورة مبرورة في حقل الإصلاح الديني والثقافة الإسلامية، وليست تجهل دمشق نفسها التي اتخذها سماحته مقره الدائم ما له من فضل على الروح الوطنية التي دفعت الشيعة الدمشقيين إلى المشاركة في الجهاد الوطني السوري في مختلف مراحله وإلى التضحية في هذا المضمار، وقد عرفت الحكومة السورية الوطنية لسماحته هذه المكانة العالية بصفته زعيم الشيعة الأكبر في هذه الديار، فأوعزت إلى بلدية العاصمة أن تقدر بتخليد ذكره وإطلاق اسمه الكريم على المحلة التي يقطنها الشيعة في دمشق بدلاً من اسم (الخراب) الذي كانت تعرف به، وأصبحت هذه المحلة تعرف منذ الآن (بمحلة الأمين) وكان من قبل قد أطلق على شارع (الخراب) اسمه الكريم هذا أيضاً، وإنه ليسرنا أن يعرف قدر الرجال العاملين أمثال سماحة السيد الأمين فيخلد ذكرهم وينالون جزاء إخلاصهم، ويكونون قدوة حسنة في الأمة.

(١٠) قال الشاعر المجيد الأستاذ إبراهيم بري يرثيه مشيراً إلى هذه الواقعة ومصوراً لها أصدق تصوير لأنه كان من شهودها:

مولاي يا خلف الرسول وسدنة البيت الأمين ... وقلوبهم حرى يسيل بها الأنين على الأنين
عفواً إذا أنا جئت أهذي بالهواجس من ظنوني ... فوقفت فيهم للصلاة بنطقك العذب المبين
أين انتهيت وأين سرت وكيف غبت عن العيون ... وبسطت كفك بالرجاء وفاض صدرك بالشجون
أطويت أمواج الأثير وجزت أكوان السكون ... ووصلت مهجتك الحنون بمهجة الله المعين
وصعدت نحو الله محمولاً على هام السنين ... ودعوت يا كبد السما حني على العبد الرهين
ولقيت ربك وارتميت بحضنه الغض الحنون ... وتدفقي يا حاملات المزن بالماء المعين
إني أحن إليك والأرواح تهدأ بالحنين ... وعلى اختلاجات الدعاء هوى الغمام على الحزون
وأراك في نجواي عبر الغيب في عين اليقين ... وإذا الحقول الظامئات تغص بالمطر الهتون
ملكاً على إيوانك المحفوف في حور وعين ... وتتم معجزة السماء بفضل «محسنها الأمين»
والعمة الخضراء تاج الطهر من فوق الجبين ... أنت الذي جمع القلوب على الهداية واليقين
وعصاك يا للصولجان تشع بالدر الثمين ... وأضاء مصباح الخلاص على الطريق المستبين
وأرى الملائك يجلسون عن الشمال عن اليمين ... وأثارها حرباً تمزق شمل إبليس اللعين
فتود نفسي الانعتاق إليك من هذي السجون ... الناس كلهم بشرعك أخوة بدم ودين
وأهيب يا موت اقترب مني ويا ريح احمليني ... وهم البنون لربهم وعليه تربية البنين

الله ربـي لا أهـاب المـوت والإسـلام ديـني ... جاؤوا ضيـوفاً للوجـود ويـرحلون على سفـين

وذكـرت عامـاً فيـه ضج النـاس للماء الحـرون ... فعـلام تقـذفهم يد التفـريق في غاب الجنـون

وتساقطت صرعى دواب الحرث بالوهج السخين ... وإذا تطهـرت النفـوس من النفاق، من المجون

واستقبـل الفـلاح موت الـزرع بالطرف الحزين ... فالخـلق كلهـم بظـل الله في حصـن حصـين

وتدفق القوم الظماء يفتشون عن العيون

(١١) كان هذا عند كتابة هذه الكلمة ثم ناهز رحمه الله التسعين وظل كما كان.

(١٢) جمعت رحلاته كلها بعد وفاته في كتاب واحد صدر باسم (رحلات السيد محسن الأمين)

(١٣) راجع بحث (الحركة الإصلاحية) الآتي.

(١٤) المقصود بهذا القول مؤلف التنزيه إذ كانت صحف بيروت قد نشرت له حديثاً يحرم فيه ما يجري من البدع يوم عاشوراء كما كان قد أعلن ذلك في مقدمة أحد كتبه.

(١٥) الصواب مختلق.

(١٦) اقتصرنا من رسالة «التنزيه» على هذا المقدار، تاركين لمن يريد التوسع أن يطالع الرسالة نفسها.





برنامج اليوم الأول لمؤتمر دراسة أفكار
العلامة السيد محسن الأمين العاملي

* ـ القرآن الكريم.
* ـ كلمة ترحيبية لمكتبة الأسد.
* ـ كلمة وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية

الدكتور محمد خاتمي

ألقاها بالنيابة سماحة الشيخ محمد شريعتي المستشار الثقافي

* ـ **«السيد محسن الأمين العبقرية الفذة»**

نائب رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق.

الدكتور شاكر الفحام

* ـ **«الجانب الفقهي من شخصية العلامة الأمين العلمية»**

نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان.

سماحة العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين

* ـ «ماذا بعد الأمين»

المستشار الاجتماعي لرئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية ورئيس تحرير صحيفة (جمهوری إسلامي) في طهران.

حجة الإسلام والمسلمين الشيخ مهاجري

* ـ «الجانب الاجتماعي والاصلاحي من حياة العلامة السيد الأمين»

سماحة العلامة المجاهد محمد حسين فضل الله

* ـ استراحة وصلاة

* ـ «بعض ذكرياتي مع والدي»

الأستاذ السيد حسن الأمين نجل المصلح الإسلامي الكبير

كلمة الافتتاح

****

حجة الإسلام الدكتور السيد محمد خاتمي

وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ تكريم عظماء أمةٍ يعني تكريماً لتلك الأمّة. وتلعب القيم دوراً أساسياً في هذا التكريم، وينظر إليها كأهمّ عامل في مسألة إحياء ذكرى الشخصيات التي لمعت عبر التاريخ.. فهذه الأمّة التي عبّر عنها القرآن الكريم بـ ﴿أمة وسطاً﴾ وإنّها الأمّة الشهيدة والشاهدة قد أقامت أركانها على القيم، وإنّ التبلور الحقيقي للقيم يتجسد بشكل تام في العظماء من بني البشر.

عندما نكرّم اليوم هذا العالم الكبير والمصلح الجليل العلاّمة السيد محسن الأمين العاملي ونُحيي ذكراه، فإنّنا في الحقيقة نُجدّد العهد مرة أخرى مع القيم الإسلامية التي آمن بها وسار بنهجها، ومع الأمّة التي أنجبت مثل هؤلاء العظماء.

إنّ مدرسة التشيّع التي كانت ولا تزال مهداً لتربية الشخصيات الإسلامية والإنسانية العظيمة، قدّمت للأمّة شخصية لامعة مثل السيد محسن الأمين العاملي الذي كان يشعر بمسؤوليته الكبرى وواجباته المتعددة الجوانب.. لذلك ولكي يُعَرِّفَ العالم الإسلامي والإنسانية جمعاء بالتشيّع، بادر إلى إغناء التراث الإسلامي بمؤلّفه الموسوم «أعيان الشيعة» في ذات الوقت الذي كان يخوض فيه صراعاً مريراً ضد البدع والخرافات، ويقف بالمرصاد للاستعمار والاستكبار العالمي بكافة أشكاله وأساليبه ويواجه مخططاتهم جنباً إلى جنب جماهير شعبه وقواه الوطنية.

وبالرغم من مهامه المتعدّدة ومقامه العلمي الشامخ إلاّ أنّه كان مهتماً بتربية أبناء جيله والتخطيط لإعداد كوادر تُكَمّل المسيرة، وقام بتأليف الكتب الدراسية في شتى مجالاتها..

وهنا لا بدّ لنا أن نؤكد على هذه النقطة وهي: إنّ أساليب الجهاد ضد المستكبرين قد تختلف مع اختلاف الظروف والعصور، إلاّ أنّ الأمر الهام هنا يكمن في عدم التهرُّب من هذه المسؤولية الكبرى، وكما يؤكد الإمام علي عليه السلام على هذه الحقيقة بقوله: «وما أخذ الله على العلماء على أن لا يُقارّوا على كِظةِ ظالمٍ ولا سغبِ مظلوم».

إنّ القيام بهذه المسؤولية قد يكون حيناً عن طريق تنفيذ أساليب إصلاحية والاهتمام بالشؤون التربوية والتعليمية في المجتمع مع عدم تجاهل المُسبّب الرئيسي لكل مصائب المسلمين المتمثل بالاستعمار والاستكبار والقوى الحاكمة المستبدة.

أو أن تتطلب المسؤولية ـ حيناً آخر ـ أن يتم التركيز على جذور القضية والعمل على إيجاد ثورة حقيقية؟ تغيير اجتماعي جذري، مع توفر الظروف المساعدة واستعداد الناس للتضحية والبذل، وكما عبرّ الإمام علي عليه السلام عن ذلك بقوله: «ولولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر..».

إنّ الأساليب الإصلاحية والسُبل الثورية تتميز بأنّها متلازمة ومكمّلة بعضها

الآخـر . . ومبـدئيـاً فإنّ أكثر ثوّار العالم ثورية عبر التاريخ كالإمام الحسين عليه السلام لم يكن نداؤه وهدفه الذي أعلنه سوى الإصلاح في أمّة جده . . كما أنّ مصلحي العالم لم يحملوا هدفاً آخر غير مكافحة الجهل والخرافات والظلم والجور.

لذلك، ورغم الاختلاف في الأسلوب الذي اتبعه كلٌّ من الأئمة الأطهار عليهم السلام إلاّ أنّ التعبير الذي قيل بحقّهم هو: «كلهم نور واحد» . . إنّ الأمر المؤكد هنا هو أنّ كلا الأسلوبين ينبعان من مصدر واحد يتمثل بأنّ الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام هم أئمتنا السياسيون وفي ذات الوقت هم أئمتنا الدينيون، حيث «إنّهم ساسة العباد»، وهذا يشكل جوهر أهداف الأنبياء والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم .

بهذه النظرة، وطبقاً للهدف الكامن وراء بعثة الأنبياء المتمثل بتحقيق العدالة كما جاء في الآية المباركة: «ولقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقـوم النـاس بالقسـط»، فإنّ هدف العلماء الذين هم ورثة الأنبياء هو تحقيق العدالة بكافة أشكالها.

وقـد تحقق الـوعـد الإلهي، وتحققت آمـال الأنبيـاء والأئمـة على يد سليلهم ووارثهم بالحق سماحة الإمـام الخميني (رضـوان الله عليـه)، وتأسست الجمهـوريـة الإسـلاميـة في إيـران، وتمكّن بثورته الإصلاحية أن يجتث جذور الفساد من المجتمع ويقيم هذه الشجـرة الإلهيـة الطيبـة المتمثلة بالجمهـورية الإسلامية . . وبذلك تمكّن سماحته أن يعرض هذا النموذج الأصيل أمام أنظار الجميع ليكمل الحجة الإلهية على كل من يتذرع بالحجج الواهية ليتهرب من المسؤولية السياسية التي تقع على كاهله في هذه الدنيا.

إنّنا عندما نُحيي ذكرى هذه الشخصيات الملتزمة ونُكرّم المصلحين المجاهدين من أمثال العلاّمة السيد محسن الأمين العاملي، ومن قبل ذلك إحيائنا لذكرى العلاّمة الشهيـد مرتضى المطهـري عن طريق إقـامـة مثـل هذه المؤتمرات التي تتعهـد بها المستشـاريـة الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق، فإنّنا نتعامل مع مثل

هذه المناسبات كأفضل فرصة لتجديد العهد مع جميع علماء الإسلام العاملين وكافّة المجاهدين والمصلحين عبر التاريخ . . وندعو الله جلّ وعلا أن يوفقنا في هذا الطريق المبارك .

كما أغتنم بدوري هذه الفرصة لأوجّه شكري الجزيل لكافة السادة العلماء وأصحاب الفضيلة الذين شاركوا في المؤتمر بأبحاثهم أو حضورهم ، كما أشكر جميع القائمين على عقده . . كذلك أشكر حكومة الجمهورية العربية السورية الشقيقة وشعبها الكريم على دعمهم وتعاونهم لإقامة هذه المؤتمرات .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



السيد محسن الأمين العبقرية الفذة

* الدكتور شاكر الفحام

بسم الله الرحمن الرحيم

أصحاب السماحة والفضيلة. أيها العلماء. أيها الحفل الكريم:

إن من يتتبع سيرة السيد محسن الأمين وأعماله الخيرة، ويتبين طريقته التي التزمها نهجاً في حياته، ويطالع مؤلفاته ومقالاته، وما أكثرها وما أنفعها، لا يملك إلا أن يكبر هذه العبقرية الفذة التي إجتمع لها العلم الواسع الغزير. والاستقامة في السلوك والعمل والانقطاع إلى الاصلاح والارشاد. ويتهدى إلى الأسباب التي رفعت السيد محسن الأمين. ليكون منارة هادية تتشوق إليه الأبصار.

لقد وقف نفسه طوال حياته يسدِّد ويقوِّم يعلِّم ويهدي ويدعو إلى وحدة القلوب وإجتماعها على المحبة والخير. لم تعقه العقبات. ولم تثنه الصعاب، بل زادته عزماً وتصميماً على السير قدماً حتى يبلغ هدفه المأمول إننا ونحن نقف اليوم على جوانب من سيرة هذا العالم الكبير والصالح المصلح لنزداد

معرفه به وتقديراً لجهوده، وإحاطه بالمهمة التي اضطلع بها، لا يفوتنا أن نرمي إلى غرض ثان هو تقريب هذه السيرة إلى الأجيال الجديدة لتجد فيه القدوة والأسوة وتنصرف إلى العلم. تبذل في سبيله كل جهد مستطاع. وتنهل من معينه ما يسعفها لترقى بالوطن درجات. وترفع من طاقاته وقدراته ثم تهيب بها هذه السيرة المباركة أن تتمسك بالقيم والمبادىء وتتعلق بالفضائل والمثل فترنوا بأبصارها إلى معالي الأمور وتتجنب سفسافها.

لقد كان رحمه الله منهوماً بالعلم مشغوفاً بالمطالعة. يصف أيام مقامه بالنجف فيقول كنت مكباً فيها على المراجعة والمطالعة والقراءة والتدريس والإفادة والتصنيف والتأليف ليلي ونهاري معرضاً عمّا سوى ذلك إلا بقدر الضرورة. موجهاً إلى تحصيل العلم همة أعلى من الضراح وعزمة أمضىٰ من البيض الصفاح. وظل ذلك دأبه وديدنه رحمه الله طوال حياته. وقد تحدث عن حبه للعلم وتبتله في محرابه. في غير موضع من كتبه. وقال في صفة الكتاب:

رضيت بالوحدة في منزل	ليس جليسي فيه غير الكتاب
أكرم به من صاحب صادق	يهدي إلى نهج الهدى والصواب
بصحبتي إياه في غربتي	وموطني قد لذ عيشي وطاب

وكان رحمه الله يواصل الكتابة والتأليف فغزر إنتاجه وكثرت كتبه ومصنفاته، يقول عن نفسه: (له مؤلفات كثيرة بعضها قد طبع مرتين أو مراراً، وبعضها قد ترجم إلى غير العربية وطبع. وأكثرها تزيد على ٥٠٠ صفحة إلى ٨٠٠ صفحة. وحسبك أن يكون أعيان الشيعة قد بلغ ١٠٠ مجلد. ولو قسِّم ما كتبناه تسويداً أو تبيضاً ونسخاً وغيرها على عمرنا، لما نقص كل يوم عن كراس مع عدم المساعد والمعين غير الله تعالى).

وكان يتحمل الشدائد والمشاق ليبلغ مشتهاه في التحقيق والتدقيق ويكفي أن نشير إلى رحلاته، ولا سيما رحلته العراقية الإيرانية لنتبين مدىٰ ما قدم وبذل ليصل إلى طلبته، وتتجلىٰ في مؤلفاته روح النصفة والنزاهة وحب الحقيقة، وكان حريصاً على توثيق بحوثه وفكر مصادره ليكون القارىء على بينة مما بين يديه، وقد بلغ عدد المصادر التي رجع إليها في تأليف كتابه أعيان الشيعة ٣٩٣ مصدراً.

وتقديراً لمكانته العلمية السامية وما قام به من جليل الأعمال والمآثر. فقد اختاره إخوانه أعضاء المجمع العلمي بدمشق زميلاً لهم وانضم إلى مجمع الخالدين. سنة ١٣٦١هـ وشارك زملاءه في أعمال المجمع وآزرهم في مهمتهم، وكان نعم العون والعضد حتى اختاره الله إلى جواره سنة ١٣٧١هـ، لقد كان رحمه الله من أولئك العلماء الأعلام الذين لم يقصروا جهودهم على علم واحد بل يمدون من آفاق معرفتهم لتشمل أنواعاً شتىٰ من العلوم. فبرع رحمه الله في العلوم الدينية واتسع علمه في التاريخ وعلم

الـرجـال والأدب وعني باللغـة وأتقن علوم العـربية ورزق حافظة قوية أسعفته في حفظه من مختار الشعر وبليغ النثر. وألّف وأكثر ونوع. ويكفي أن نشير إلى كتاب أعيان الشيعة ليدرك القارىء دائرة المعارف الواسعة التي كان رحمه الله يجول في رحابها ويجني من ثمارها.

ليس من همي أن أتقصى نشاط السيد الأمين فذلك فوق الوسع والطاقة. وإنما أنا قاصر كلمتي على الجـانب الأدبي. كان طالب العلم كما قصَّ علينـا السيـد محسن الأمـين في سيرة حياته يبدأ بختم القـرآن الكـريم. وتعلّم الكتـابـة ثم يجود الخـط ويقرأ كتب النحو متدرجاً من الأجرومية إلى شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام إلى شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك إلى ما فوقها من كتب مثل شرح الـرضي على الطـافيـة والتصـريـح على التـوضيح للشيخ خالد. ثم يضم إلى ذلك دراسة علوم أخـرى مثـل قراءة المعـالم في أصـول الفقـه والمطـوّل بالبـلاغة وما يختاره المدرس من كتب الفقه والمنطق والأدب وسواها.

وعماد الدراسة في ذلك الحفظ غيباً في المتون خاصة. ويحدثنا السيد الأمين أن أول ديوان شعر قرأه كان ديوان أبي فراس الحمداني وأنه حفظ كثيراً منه. وتدلنا آثار السيد الأمين على تمكنه من ناحية اللغة ومقـدرتـه المبكرة في فهم أساليب العربية. لقد أوتي الحافظة القوية. والموهبة المسعفة وذكاءاً لماحاً وظهر تفوقه على أقرانه وأنداده. وكان يتفطن إلى ما لا يتفطن له سواه.

مرّ ببيروت سنـة ١٩٠٨م في طريقـه إلى النجف الأشرف وكان في الرابعة والعشرين من عمره. فاطلع في مكتبـة الشيـخ أحمـد عبـاس على تراثه من ديوان الشريف الرضي الذي كان يطبع آنذاك فنبه على الخطأ الذي وقع في تفسير بيت الشريف:

[ومـوقـف صافـحت أيـدي الـرجـال به طلا الـرجـال على الخـرصـان من كَثَب]

ودل على الصواب وطالما فعل ذلك في حياته.

ومكنـه تفـوقـه من التأليف المبكـر وقول الشعر وكتب حاشية على المطول، وحاشية على المعالم، وكتاباً في النحو في مرحلة حياته الأولى. وقد ضمَّ ديوان الرحيق المختوم بجزئيه جل شعر السيد الأمين. وكثير منـه مما نظمـه في أيام الشباب وفيها قصائد قالها سنتي ٣٠٣ ـ ٣٠٤ للهجرة يرثي بها أقرباء وعلماء فجـع بهم. وهـو يمضي في شعـره على سنن السـابقـين من الشعـراء يجاريهم في أغـراضهم ومعـانيهم وصـورهم وأسـاليبهم فقـد نهج نهجهم فيـما سلكـوه من التشطـير والتخميس والتـوشيـح والتلثيم وقول القصـائـد المحبـوكات والمعميات والألغاز. وتعددت الأغراض التي طرقها وقد نسّقها في الجزء الأول من ديـوانـه الـرحيق المختـوم في ١٨ بابـاً منهـا المـديح والغزل والرثاء والحماسة والصفات والحنين إلى الأهل والأوطان وجل مدائح السيد الأمين قالها في مدح النبي(ص) والإمام علي رضوان الله عليه والعترة الطاهرين.

وإذا كان السيد محسن الأمين قد أفرد قصائد للغزل والنسيب فإنه أفتتح جملة من قصائد أخرى ولا سيما المديح بالغزل على غرار الشعراء السابقين ويطالعكم في غزله أحياناً شيء من نفحات حجازيات الشريف الرضي يقول:

ياسائرين تيمموا نجداً	تغدوا المطي بظعنهم وفدا
حطوا الرحال على مرابعها	واستنشقوا من تربها الندا
يا ساكني نجد سألتكم	بالعهد أن ترعوا لنا العهدا
سقياً لأيام مضينا بها	قد كان عيشي ناعماً رغداً
وبأيمن العلمين ريم فلا	قدواصل الإجراء والصدا

وزاره الشيب مبكراً وظهر في مفرقه ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره فهاجوه للقول فقال:

دها مفرقي بالشيب صرف زمان	وما تم لي عشر مضت وثمان
وأسرع فيّ الشيب قبل أوانه	ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

وحافظة السيد الأمين القوية كانت ترفده وتمده دائماً. وقد ألف أن يضمّن شعره ونثره كثيراً من أشعار السابقين ونثرهم ومأثور الحكم والأمثال. بل آيات الذكر الحكيم وأقوال الرسول الكريم ومما قاله في الحنين إلى دمشق:

خان الزمان وقدماً كان خوانا	فشط منزل من نهوى ويهوانا
أحبابنا بدمشق لا أغبكم	فيض السحائب هطالاً وهتانا
إن ينأ ربعكم عن ربعنا فلكم	في القلب ربع غدوتم فيه سكانا
ذكراكم في مجال القلب خالدة	فهل نسيتم لبعد العهد ذكرانا

وكان السيد الأمين يباهي بأشعاره ويفاخر فعل الشعراء المتقدمين فيقول:

إليك من غرر الأقوال قافية — كالتبر منسبكاً والدر منتظماً

لقد كانت صور السيد الأمين وأخيلته ومعانيه تجول في رياض الشعر الموروث. أما أسلوبه فقد كان أقرب إلى الجزالة في أغراض الفخر والحماسة والمديح ويرق في غرض النسيب وقد طاوعته العبارة وأسلست له قيادها، وتشهد الألفاظ بسعة محفوظه واقتداره، تنسال عليه الكلمات يختار منها ما يروقه، وقد رضي عن مذهبه بالشعر كأنما يردد لنفسه:

أتيت بمنطق العرب الأصيل   وكان لقدر ما عاينت قبلي

أما نثره فكان السهل القريب المتناول تقرأه في سيرته التي حبرها فتحس أنه قريب منك يقص عليك بأسلوب سلس لا تعمق فيه ولا تكلف، قد كانت غايته الأولىٰ في كتبه ورسائله التعليم والإسهام فاختار العبارة الواضحة والسهلة، وقد هيّأ له هذا الأسلوب انتشار كتبه وتداولها ما بين فئات مختلفة، كل فئة منها تجد طلبتها ومرادها ويضطرنا ضيق المقام إلى إيجاز القول في منظوم السيد الأمين ومنثوره ومجال القول ذو سعة.

لننتقل إلى الحديث عن مؤلفاته الأدبية. لقد بدأ السيد الأمين الكتابة في الأدب وعلومه في مطلع شبابه وكان حريصاً على اقتناص الفوائد يختارها ويجمعها، وقد أشار إلى ذلك في مطلع شبابه وكان حريصاً على اقتناص الفوائد يختارها ويجمعها، وقد أشار إلى ذلك في مطلع كتابه [معادن الجواهر ونزهة الخواطر] الذي حشاه فوائد مصطفاة ولآلىء نفيسة تدل على الميدان الرحب من الثقافات المنوعة التي طوّف السيد في جنباتها، يجتبي ويجني الثمار منها..

وقد قصر الجزء الثالث من كتابه على الشعر والأدب فدل ما اختاره في هذا الجزء على مايتمتع به من مقدرة فائقة في تذوق الكلام ونقده ومن اطلاع واسع ومعرفة عميقة في تراثنا الأدبي، وتبدّت طاقات السيد الأمين الأدبية، وذوقه الناقد وحسه المرهف في كتابه (أعيان الشيعة) حين تصدىٰ لترجمة كبار الأدباء من الشعراء والكتاب. كان يرى فرضاً واجباً أن يحيط بأخبار الشاعر أو الكاتب إحاطة بالغة فيبحث وينقب بالكتب المطبوعة والمخطوطة ليعود بزاد وفير ثم يعرض ما جمع على محل النقد فيوازن بين الأخبار ليدل على المتناقض منها وينفي المتهافت الضعيف ويعود إلى ديوان الشاعر وآثار الكاتب يستعين بها بالتحقق من صحة الأخبار وينتقي بعد ذلك مختارات من رائع شعره. أو بليغ قوله ويذكر ما أخذه النقاد عليه ملتزماً النصفة والنزاهة وهو في كل ذلك لا يتوقف عن تصحيح المحرّف وتقويم المصحّف من النصوص التي نسخها النقاد.

كان رحمه الله يطيل في تراجم الأدباء والشعراء منساقاً بفطرته الأدبية وذوقه الناقد وإنك لتستطيع أن تجتزء كل ترجمة من تلك التراجم بمفردها في كتاب مستقل كترجمة المتنبي وأبي فراس الحمداني وأبي تمام وأبي نواس ودعبل بن علي الخزاعي والصاحب بن عباد وأمثالهم، كانت تلك طريقته في عمله يقول في مقدمة ترجمة أبي فراس:

«وبعد فإني ذاكر في هذه الأغراض ترجمة أحوال الأمير أبي فراس الحمداني مما استفدته من أقوال المؤرخين وما استنبطته من مجرى الحوادث وقرائن الأحوال ومن التأمل وإعمال الفكر في أشعاره وما يستفاد من جملة منها من صفاته ومختلف حالاته حسب ما أدى إليه بحثي وتنقيبي ووصل إليه فهمي ومعرفتي مما أرجو أن أكون أصبت فى شاكلة الصواب مع إبراز نبذ صالحة من شعره المستحسن. ولا سيما

على ما عثرت عليه زيادة على ما في ديوانه المطبوع وهو شيء كثير».

وكان يدرك أنه بذلك قد قدم ما لم يقدم سواه وأنه تفرد بها لم يشر له فيه غيره يقول في مقدمة ترجمة أبي نواس:

«وبعد فهذه سيرة الشاعر الشهير أبي نواس الحسن بن هانىء الحكمي تامة مستوفاة مستقصاة من جميع نواحيها بها لم يسبق إليه».

وبعد فلقد كنت وأنا أقرأ سيرة السيد محسن الأمين تطالعني صورته المحببة بعلمه الغزير وسعة أفقه وتسامحه ومناقبه وتواضعه الجم، يستقبل قاصديه لا فرق بين كبير وصغير ويزوِّدهم بنصحه وإرشاده. قد نذر نفسه في خدمة مجتمعه وهدايته ورفع منارة العلم يهدر بها ظلمات الجهل وغشاوة التخلف. ودعا إلى الوحدة ونبذ الخلاف لم يبخل بتضحية وعزف عن المغريات ولن تغره مظاهر الدنيا البراقة فكان المؤمن المتمسك بالمبدأ والقيّم والمثل وكان القدوة الحسنة الطيبة في خلقه ومسلكه وعلمه ونزاهته لقد كنت وأنا أقرأ أردد بنفسي قول رسول الله(ص): [ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً المؤطؤن أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون] رحمه الله الرحمة الواسعة وأسكنه فسيح جناته فلقد كان حسن الأخلاق الموطىء الأكناف يألف ويؤلف فعل المؤمنين الأبرار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الجانب الفقهي
من شخصية العلامة الأمين العلمية

************** العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه الذين اتبعوه بإحسان وعلى من نهج منهجهم واتبع سيرتهم. والسلام عليكم أيها الأخوة والأخوات جميعاً ورحمة الله وبركاته.

.. بعد اقتراح تقدمت به المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بالمشاركة في هذا المؤتمر الجليل عن المرحوم المقدس السيد الأمين. أقترح عليّ أن يكون موضوع حديثي عنه. الجانب الفقهي من عمله العلمي، وقد قبلت هذا الإقتراح اعتقاداً مني أن التراث الفقهي والأصولي للسيد الأمين (رضوان الله عليه) ميسور في المتناول كما هو شأن مجالات تراثه الأخرى، في السيرة والأدب والتاريخ والتراجم، وثقةً مني بأن مادة بحثي سهلة المنال تراخيت في إعداد الخطوط العامة للموضوع إلى الأسبوعين الأخيرين وحينما بدأت أبحث عن مادة بحثي فوجئت وصدمت في أن هذه المادة في معظمها وفي أهمها غير متوفرة على الاطلاق. وقد تقصيت ذلك عند أسرته الكريمة وخاصةً عند علامتنا الجليل السيد حسن الأمين وإخواننا العلماء وعند كثير من أهل الفضل والعلم فما وقعت من ذلك على شيء يذكر، أعرف أن السيد الأمين (رضوان الله عليه) كان مرجعاً مقلداً وله رسالة عملية في فروع الأحكام

متداولة بين الناس، وينبغي أن تكون شائعة لديهم ولكنني لقيت عسراً كبيراً في أن أحصل حتى على نسخة من هذه الرسالة.

وأخيراً في الأيام الأخيرة وفقني الله لأن أحصل على نسخة من رسالته العملية وهي فتاوى مجردة عن الدليل. وعلى نسخة من رسالة له في حكم منجزات المريض وإقراره. وعلى نتفٍ مما ورد في الجزء الأول من كتابه معادن الجواهر أما سائر كتاباته الأصولية والفقهية ومنها ما أشار إليه الآن الأستاذ الدكتور الفحام من حاشية على معالم الأصول فهو أمر لم نطلع عليه ولا أعرف أين انتهى الأمر بهذا التراث الفقهي والأصولي. وهذه مهمة ملقاة على عاتق القيمين على تراثه ويشرفني أن أكون عوناً في أي جهدٍ يبذل لتقصي مفردات هذا التراث الفقهي الأصولي للسيد الأمين لأنه قيمة في ذاته.

من هذا الواقع انطلقت بقدر ما أسعفتني المادة المتاحة إلى إكتشاف بعض جوانب وإضاءة بعض الجوانب من فكر ومنهج وإنجاز السيد الأمين الفقهي وهو أمرٌ أعترف بشحته وقلته ولكنه قد يكون مفيداً في أنه ينصب في بعض المعالم في هذا البحث الفقهي. من هنا فإن هذه الكلمة التي ألقيها في خدمة هذا المؤتمر الجليل وبين يدي هذا الإجتماع المبجل لا تحمل تقييماً كاملاً ولا يجوز أن تعتبر كذلك لفقاهة وفقه السيد(رضوان الله عليه) منهجاً وعملاً - بل إنها تطرح بعض الأسئلة وتشير إلى بعض المعالم في منهجه وعمله الإستنباطي لما ذكرت من عدم توفر الأساس المادي للبحث سوى ما أشرت إليه من رسالته العملية ومن رسالته في منجزات وإقرار المريض، عادة في أبحاث كهذه كالبحث الذي كُلفت به مصب البحث يكون بين الفقهاء على ما أصطلح عليه بالمسائل المعيارية في الفقه الإسلامي توجد جملة من المسائل الكبرى نعتبرها مسائل معيارية لخصوصيتها وعمقها وتعقيد الأدلة فيها، بحث الفقيه يكشف عن مدى سعة وعمق فقاهته ويكشف عن ذوقه وسليقته الفقهية في ما يمكن من المقارنة بينه وبين غيره من الفقهاء، هذه المسائل المعيارية ليس لدينا منها من تراث السيد الأمين (رضوان الله عليه) سوى مسألة منجزات المريض وهي إحدى المسائل المعيارية في البحث الفقهي.

ومن هنا فمن الصعب تقييم رؤيته الفقهية ومنهجه الفقهي استناداً إلى المسائل المعيارية التي تميز وتظهر مدى عمق الرؤية الفقهية وشموليتها عند الفقيه وتظهر أمراً آخر شديد الأهمية جداً وهي مدى علاقة الفقيه بمتغيرات عصره وتحولات زمانه ومشاكل مجتمعه. ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نقيِّم أعماله الفقهية بصورة دقيقة ولكننا نستطيع إلى حدٍ ما وقد تكون هذه الدعوى كبيرة أيضاً وليس بصورة كاملة أن نقيِّم ذوقه الفقهي وسليقته الفقهية من بعض الإشارات استناداً إلى بعض الإشارات التي استطعنا في هذا الوقت القصير الذي أشرت إليه أن نكون فكرة عنه، أقدم أربع ملاحظات عامة.

١ - يبدو لي أنه (رضوان الله عليه) كان يولي عناية فائقة للدقة في النقل وتحقيق صحة نسبة الأقوال إلى أصحابها - وكذلك يظهر أو يبدو منه هذا المنهج في نصوص السنة وهذا الأمر الذي يبدو بديهياً وضرورياً

لدى كل باحث لا يلتزمه كثير من الباحثين كما وقعنا على ذلك في أبحاثنا بالنسبة إلى نسبة قوله أو نسبة رأيه أو دعوى شبهة أو دعوى إجماع على رأي فقهي من الآراء أو على تفصيل من تفصيلات مسألة من المسائل.

٢ ـ يظهر منه أنه يذهب في الخبر الواحد إلى انجبار الخبر الضعيف من حيث السند بعمل مشهور فهذه مسألة هي مورد للخلاف بين الأصوليين عند الأصوليين وعند الفقهاء وهو أمر جرى عليه كثير من فقهاء الشيعة الإمامية إلى عصرنا الحاضر هو(رضوان الله عليه) وهذه مفارقة ينبغي أن يبحث عنها مع كونه رجالياً ومع كونه يولي عناية فائقة لعلم الرجال وعلم مصطلح الحديث أو علم الحديث علم الدراية يظهر منه أنه يرى هذا الواقع. يرى انجبار ضعف خبر الواحد بعمل مشهور.

٣ ـ يتمتع باستقلالية في فهم النصوص والإستنباط منها لا تتأثر بفهم غيره وكل باحث في الفقه وغيره وخاصة في الفقه كما رأينا في جميع المذاهب تكون آراء الأئمة أئمة الفقه ونصوصهم مقدسةً أو شبه مقدسة عند أتباعهم أو عند جمهورهم ومن يتلوهم في الزمان بحيث أن هناك تقليداً في العمل الإستنباطي يبذل فيه الفقيه جهداً فائقاً ليجعل رأيه ملائماً لآراء الآخرين وإذا كان خلافه معهم واضحاً فإنه يبذل جهداً ليؤول كلامهم بما لا يتناقض ولا يتنافى مع ما انتهى إليه قداسة النص لا أعني النص الكتاب العزيز أو نص السنة المطهرة حتى النص الفقهي للفقيه الكبير أي فقيه كبير كان يتمتع بحرمة واحترام كبيرين ربما يؤثران على طريقة الفهم وأسلوبه عند الفقيه المستنبط. بالنسبة إلى السيد(رضوان الله عليه) يظهر منه بوضوح أنه يتمتع بحصانة إلى حدٍ ما قد تكون كبيرةً ضد هذا المناخ وضد هذه السليقة في فهم النصوص والإستنباط منها لا تتأثر بفهم غيره. وقد صرح بذلك في رسالته في موضعه من رسالته عن منجزات المريض بقوله ـ اللازم اتباع مدلول الدليل بحسب ما يفهمه الفقيه لا تقليد غيره في الفهم، نعم فهم الغير يكون مؤيداً إن وافق فاتجاهه الفكري ليس أن يوافق الآخرين إنما أن ينشأ رأيه الخاص وإذا اكتشف أن الآخرين توصلوا إلى نفس الرأي يكونون هم الذين وافقوه. وليس هو الذي وافقهم وهذه نقطة تكشف عن تفصيل في الإعتداد النفسي والعلمي عند السيد(رضوان الله عليه) وهذا الأمر أقول أن هذا الأمر مطلوب من كل فقيه فالفقيه أمين على الشريعة وأمين على فهمها ونقلها وحكايتها وتغييرها ولكن التصريح بهذا الأمر أن يكتبه في معرض النقض والإبرام في مسألة خلافية شديدة الخلاف، التصريح بهذا الأمر يكشف عنده(رضوان الله عليه) عن عمق الإحساس باستقلال النظر الذي ربما لا يتأثر إطلاقاً بفهم الآخرين.

٤ ـ الملاحظة الرابعة: يظهر منه في غير موضع ما نسميه الرؤية المرنة أو الرؤية المتحركة للنص نعني بذلك عدم الجمود على النص وهذا مثال وقعت عليه في رسالته عن منجزات المريض في القراءة السريعة لها فمن ذلك مخالفته للمشهور حيث ذهب في مسألة منجزات المريض إلى إلحاق غير المرض

من أسباب الخطر على الحياة بالمرض مع أن المشهور حتى الآن غالباً أقول المشهور وليس الإتفاق على الإقتصار على خصوص المرض ومن ذلك قوله في معادن الجواهر في موضع منه من الجزء الأول ولا ينافي هذا نص كلامه: «ولا ينافي ما قدمناه» وهو في ما قدمه يتحدث عن ضرورة علم الأدب أو فن الأدب وعن ضرورة مزاولة الشعر قراءةً وحفظاً وفهماً وممارسة لمن آتاه الله موهبة الشعر، يقول:

ولا ينافي ما قدمناه من أن فن الشعر يعين على فهم الكتاب والسنة وهذا حديث آخر متداول ومشهور. ينسب إلى رسول الله. أو روي عنه أنه قال أو كما قال ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه. يعلق السيد (رضوان الله عليه) فإن ذلك إن قول رسول الله حيث كان الجميع من أهل اللسان ولا تفيدهم معرفة الشعر وممارسته زيادة في فهم الكتاب والسنة. . يتحدث عن السطر الأول وعصر إزدهار الإسلام وإزدهار العربية بين المسلمين. أما في هذه الأزمنة يتحدث عن زمانه وما قاربه أما في هذه الأزمنة فلا كما لا يخفى انتهى عصر السيد(رضوان الله عليه) هنا عادةً الذي يأخذ النصوص بصورة مطلقة ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه في جميع الأزمان والأوقات ولكنه يرى إلى هذا النص على أنه ذو دلالة نسبية وأنه مرتبط بمناخ ثقافي معين ومناخ لغوي معين وحينئذٍ ينبغي أن يُفهم في مناخه الثقافي وفي مناخه اللغوي وأما إذا تغير المناخ اللغوي والثقافي فيجب أن يُفهم فهماً آخر هذا في ما نعنيه أنه(رضوان الله عليه) من هاتين الملاحظتين لم يكن من أهل الجمود على النص كان ملتفتاً إلى ضرورة فهم النصوص فهماً متحركاً فهماً يربط بين مضمون النص وبين الواقع الحي . . .

طبعاً لا نزال نتحدث عن التجريد عن النظر في هذه الملاحظات سنستخدمها في فترة تالية من هذا الحفل، الآن ندخل في جانب ما لبلورة الرؤية الفقهية والسليقة الفقهية للسيد(رضوان الله عليه) وهي ما يتعلق بالمنهج وهذه المسألة عظيمة الأهمية في كل عصر وزمان مشكلة المنهج هي إحدى المشكلات الكبرى في كل بحث علمي وبمقدار ما يكون المنهج دقيقاً وواقعياً ومنضبطاً يكون الإنتاج كذلك. وبمقدار ما يكون ثمة خلل في المنهج تكون النتائج في غالب الأحيان غير دقيقة.

لعل السيد(رضوان الله عليه) في عصره وفي جيله أول من تنبه إلى العيوب التي كان يعاني منها ولعله لا يزال يعاني التي كان يعاني منها منهج الدراسات الإسلامية في النجف الأشرف وقد سجل مقته لهذا المنهج في كتابه معادن الجواهر وقد انتقد هذا المنهج من حيث المضمون ومن حيث الشكل ومن حيث الجانب التنظيمي للدراسة من حيث المضمون انتقد الإفراط والتفريط في تناول العلوم المساعدة لبلوغ درجة الإجتهاد.

وأبرز ما سجله في هذا الجانب نقده للنهج المتبع في الدراسات الأصولية أصول الفقه حيث قال ومما يجب التنبيه عليه ما يقع في هذا العصر عصره هو بل هو مستمر من أعصار عديدة من أخذ طلاب العلوم الدينية بجانبي الإفراط والتفريط كلٍ بجانب فبعضهم يفرطون في البحث عن علم أصول الفقه

حتى أنهم يصرفون فيه أعمارهم فيعوقهم ذلك عن البحث في مسائل الفقه وعلم الدراية والرجال والتفسير وقراءة كتب الأحاديث والبحث عن الأحاديث وتفسيرها وغير ذلك مما لابد للفقيه منه ويصرفون كثيراً من الزمان في البحث عما تقل فائدته أو لا فائدة فيه من التعاريف وتحرير محل النزاع التي يصرفون فيها الشهور والأعوام ونضرب أمثلةً لذلك نعرض عنها ومنها ثناؤه من هذا المنطلق على المحقق الخراساني(رضوان الله عليه) صاحب الكفاية الذي قال عنه أنه وفّر على الطالبين أوقاتاً كثيرة بتحريه جانب الإقتصار على ما يلزم وما ينفع للبحث الفقهي وتجنب الزوائد التي لا لزوم لها علماً أنه في موضع آخر أيضاً ينتقد المحقق الخراساني وهو على صواب (رضوان الله عليه) في نقطة في أنه مع إصلاحه للمنهج الأصولي الخراساني وقع أيضاً في بعض الخلل المنهجي ثم قال السيد الأمين هذا جانب الإفراط عن جانب التفريط قال:

وبعضهم يفرطون في البحث عن أصول الفقه فلا يتقنونه مع أنه العمدة في استنباط الفروع وبعض العاجزين من الناس تسول لهم نفوسهم أنهم مصيبون في ذلك وأن الكتاب والسنة بما أنهما عربيان لا يعسر عليهم معرفتهما لأنهم من أهل اللسان ولا يحتاجون إلى علم الأصول يقول(رضوان الله عليه) وما منشأ ذلك إلا العجز والعاجز عن فضيلة حيث لا يرضى لنفسه بنسبة النقص إليها قد يحمله ذلك على إمكان أنها فضيلة، من هذا المنطلق هو ينتقد المنهج ينتقد أسلوب الدراسة الأصولية في منهج الدراسات الإسلامية في النجف الأشرف وغير النجف، وفي الحقيقة أن هذا النقد أصبح ضرورياً لأن منهج الدراسات الأصولية وفقاً لإستجابة لذوق خاص أو لفهم خاص دخل في مثابت ومناهج بحيث أصبح أو كاد منقطع الصلة في الفكر الفقهي وبالعمود الفقهي أصبح تجريداً كلامياً أو تجريداً فلسفياً أو تجريداً في كثير من الحالات لا هو من الكلام ولا هو من الفلسفة بشيء ويسمى أصولاً وهذه النقطة نحن ننبه عليها دائماً المدرسة الأصولية الحديثة كما نشاهد ما آل إليه أمرها الآن وعلى أيدي كبار نجلهم ونحترمهم ونحترم علمهم ولكننا نرى أن المنهج الذي يتبعونه يحتاج إلى نظرة نقدية لأن علم الأصول وظيفته الأساسية هو أن يخدم علم الفقه.

وعلم الفقه هو علم الشريعة التي أنزلها الله لصياغة حياة البشر. البشر الذين يكابدون مصاعب الحياة مع الطبيعة وفي مجتمعهم. والأمة الإسلامية التي تكابد مصاعب الحياة مع الطبيعة وفي العالم.

علم الأصول يجب أن يكون من سنخ علم الفقه أما تجريد علم الأصول إلى درجة هذه النظرة وهذا حال الواقع الذي آل إليه علم الأصول والآن تهدد صحة النقد الذي وجهه السيد(رضوان الله عليه) إلى هذا المنهج بعصره وهذا كلام لعله كتب قبل ثمانية عقود أو سبعة عقود أو تسعة عقود من السنين لا أعرف تاريخ تدوين هذا النص في معادن الجواهر كما انتقد في المنهج من حيث المضمون.

انتقد التقصير في اتقان العلوم العربية، من المفارقات التي ينبغي التنبيه إليها وهذه ملاحظة الآن

خطرت لي أن هذه الدقة التي تخرج عن رؤية الواقع في علم الأصول يرافقها تسامح كبير واستسهال كبير في علوم العربية التي هي الآن ضرورية لمعرفة النص التشريعي في الكتاب والسنة كما انتقد التقصير في اتقان العلوم العربية مع أنها لها المدخلية التامة هويقول ما هذا نصه، مع أن لها المدخلية التامة في استنباط الأحكام من الكتاب والسنة العربيين يقول وليس العرب وهذه نقطة جداً جديرة بالإلتفات وليس العرب يعني من طلاب العلوم الدينية في ذلك أقل تقصيراً من العجم إلا ما ندر.

كما انتقد من حيث المضمون أيضاً خلو المنهج من بعض العلوم التي هي ضرورية وهويعتبرها ضرورية كعلم الأخلاق وآداب التعلم والتعليم من حيث الشكل انتقد تخلف كتب التدريس. كتب النحو والصرف والبلاغة وعلم الأصول من حيث اللغة والصياغة ومن حيث التبويب ومن حيث حشرها بالمطالب غير اللازمة ومن حيث صعوبة العبارة ثم يقول: وهذه الملاحظة تكشف عن رؤية تنظيمية في فكر السيد(رضوان الله عليه) وهي رؤية نتوق إليها واللازم فيما أرى ويراه كل عارف منصف استبدال هذه الكتب بما هو أنفع منها للتدريس فتؤلف لجنة من أفاضل العلماء فتضع في كل علم ثلاثة كتب. مختصر ومتوسط وموسع ويكون عليها مدار التدريس بعد أن تعرض هذه الكتب على كبار العلماء ويرضوا بها ويقرروا تدريسها. الرؤية التنظيمية هي في فكرة تكوين لجنة وهذا أمر لم يكن مألوفاً في أوساط مدرسة النجف الأشرف من حيث التنظيم انتقد الفوضى الدراسية وقال الفوضى الضاربة أطنابها في مدرسة النجف الأشرف فالطالب فيها يقرأ أنى شاء وفي أي كتاب شاء وعند من شاء لا يجبر على شيء والطلاب كلهم ليس لتدريسهم ميزان ولا نظام يمشون عليه إلا ما أورثته العادة القديمة التي لا مجبر عليها وليسوا كلهم أنبياء مرسلين كأهل العقول والمعرفة بما يضرهم وينفعهم وإلا لما احتاجوا إلى طلب العلم ولذلك قلّت الفائدة لكثير منهم ومن استفاد لا يستفيد إلا بعد عناء شديد وزمان طويل إلى أن قال:

فيجب والحال هذه على من بيدهم أزمة الأمور من العلماء وضع دستور للتدريس ليس للطالب أن يتعداه وإلا طرد من التدريس وإجراء الإمتحان للطلاب في ابتداء تدريسهم وكنا نتندر نحن في أيام الطلب أقول تعليقاً على هذا هذا ليس عيب النجف. هذا عيب الأزهر وعيب جامع الزيتونة وعيب جامعة القرويين وأسأل الله أن يخلصنا من العيوب. الجامعات التي لا يرسب فيها أحد هذه ملاحظة كنا نتندر منها كل من يدخل هويخرج عالماً على كل أمور العرب والمشركين على تخلف وإجراء الإمتحان للطلاب في ابتداء التدريس وامتحان على رأس كل ثلاثة أشهر وامتحان في نهاية السنة يكون بموجبه نقلهم من كتاب إلى كتاب ومن علم إلى علم أوإبقاؤ هم ثم يشير إلى أمر لعله يحمي به المقدس الشيخ عبد الكريم الحائري فيقول على نحوما يجريه الإمام المصلح في مدرسة قم ولعله يشير إلى منهج كان الشيخ الحائري(رضوان الله عليه) عند تأسيسه لجامعة قم بحوزة قم قد اتبعه هذا أمر أنا لا أتذكر يعني لست مطلعاً عليه. على نحوما يجريه الإمام المصلح في مدرسة قم وإلا فما دام هذا الوجد لم تبق عبرة تستنزل

كل الدموع وأشرقت العلوم الدينية على الإضمحلال لا سيما في هذه الإعصار المعلوم حالها عند كل أحد. هذه الملاحظة التي تتصل في الجانب التنظيمي تتصل برؤ يته الإجتماعية والتنظيمية في المجتمع ولكننا ذكرناها لما لها من صلة في تكوينه الفقهي تكوينه باعتباره طالب علم وعالماً وفقيهاً.

النقطة التي هي الأخيرة عندي ما لمحته من رؤ يته لعلاقة الفقيه بالمجتمع نسميه الرؤ ية الإجتماعية وعلاقة المعرفة الفقهية بها وهذه نقطة هامة جداً في عمل الفقيه، الفقيه بحسب ظروفه الإجتماعية بحسب نشأته الدراسية لدوره تارة يقوم بعمله الفقهي من منظور علاقة الفقه بتكوين وحياة ومشاكل المجتمع وليس من منظور ابتلاء الفرد الفلاني بالمسألة الفلانية النظرة الفردية والنظرة الشمولية. أو من منظور هذا حكم الله وعلى الناس أن يتبعوه بصورة إطلاقية وتارةً تكون له نظرة تتصل بالتفاعل والتكامل بين العمل الفقهي وبين واقع المجتمع يبدو أن السيد أقول يبدو وكل ما يبدو مني أنه تشخيص لمعلم من المعالم مضطر لأن أقول يبدو لأن المادة التي اعتمدت عليها كما ذكرت هي مادة محدودة يبدو أن السيد (رضوان الله عليه) كان يلاحظ قصور المسلمين في امتلاك أسباب القوة المعاصرة ويلاحظ حالة الضعف فيهم فعبر عن رؤ ية لوجوب تعلم علوم الصناعات قال ولا سيما في هذا الزمان الذي ارتقت فيه الصناعات ارتقاء باهراً، فعلى المسلمين أن يجاروا باقي الأمم في تعلم الصناعات التي تتوقف عليها حياتهم مع باقي الأمة حياة عز وغنى لا حياة ذل وفقر ولا يكونوا عالة على سواهم فدينهم الحنيف وكتابهم المبين يأمرهم بذلك كما أن تعلم اللغات وسائر العلوم العصرية راجح في نفسي بل واجب على المسلمين كفاية وإنما يحرم بما يعرض له من عوارض خارجية كتعلمه في المدارس التي أنشأت للتبشير لغير دين الإسلام أو التي تجر إلى الإلحاد.

إن هذه الرؤ ية لمتغيرات العصر وما تشكله من خطر على المسلمين إن لم يستجيبوا لها تبدو معْلماً بارزاً في الفكر الفقهي للسيد حيث أنه كما يكشف النص الذي نقلناه ينظر إلى هذه الحاجة نظرة الفقيه من منطلق الفقه وليس مجرد نظرة السياسي أو المصلح الإجتماعي هنا نقطة أود الإشارة إليها مثلاً: جيل السيد(رضوان الله عليه) ومن قبل جيله مثل السيد جمال الدين الملقب بالأفغاني سيد جمال الدين استر أبادي أو الشيخ محمد عبده أو الشيخ رشيد رضا وغيرهم عالجوا هذه الأمور ولكن كلهم حتى الشيخ ابن باديس في الشمال الأفريقي كلهم عالجوا هذه الأمور من منطلق كونهم منغمسين في العمل السياسي رؤ يتهم إلى هذه الضرورات نبعت في تماسهم اليومي والدائم والحار مع المشكلة السياسية للمجتمع، السيد الأمين لم يباشر العمل السياسي اليومي أو العامي بالطريقة التي باشرها أمثاله وجيله رؤ يته قيمة الرؤ ية ربما هذا الكلام نجد مثالاً له عند السيد الأفغاني عند الشيخ محمد عبده عند الشيخ رشيد رضا عند ابن باديس عند الإبراهيمي في الجزائر وأخذت قيمة هذا النص من السيد الأمين أنه يتكلم فيه كفقيه وليس كمصلح اجتماعي وليس كعامل سياسي هذا يكشف عن عمق آخر وهو أن النظرة التي حملت أولئك أو

بعضهم على تقـريـر مثـل هذه الأمـور كانت تنطلق من استجابة لضرورة العصر هكذا يقال على تعبير شاءت ضرورة العصر نحن مضطرون ونأخذ لأجل بيان شرعية الإستجابة إلى هذه الضرورة مبررات من الفقه من الكتاب والسنة.

السيد (رضوان الله عليه) شخّص هذا الموضوع أولاً ليس باعتباره سياسياً وإنما باعتباره فقيهاً ثانياً أنه

السيد (رضوان الله عليه) شخّص هذا الموضوع أولاً ليس باعتباره سياسياً وإنما باعتباره فقيهاً ثانياً أنه لن يجعله استجابة لضرورة وإنما تعبيراً عن اختيار ليس لأننا مضطرون أن نتعلم وإنما لأنه بطبيعة الحال وطبيعـة كوننـا مسلمـين هو أن نتعلم ويـوجـد فرق كبير جداً بين الزاويتين مع التقدير الكبير والإجلال الكبير للزاوية الأخرى زاوية رؤية السياسي والمصلح ولكن قيمة هذه النظرة هي من زاوية رؤية الفقيه الـذي لا ينطلق من ضرورة وإنـما ينطلق من اختيـار من الـداخل لا يوجد شيء من الخارج فرض علينا ونحن نستجيب له وإنما يوجد شيء ينبع من داخلنا وهذه نقطة مهمة جداً حيث أن هذا الرؤية تكشف عن إدراك لكـون الحضـارة يجب أن تنمـو من داخل المجتمع ومن داخل الإنسان ووفقاً لقيمه وثقافته ولا تستـورد من خارج المجتمـع حيث أن المجتمـع الحي هو الـذي ينتـج حضارته ولا يستورد نتائج حضارة الآخـرين في المعـادلـة الأولى معـادلة إنتاج الحضارة يترسخ مبدأ الأصالة مبدأ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وفي المعادلة الثانية استيراد منتجات الحضارة يترسخ مبدأ التبعية من دون أن يُعبر السيد(رضوان الله عليه) عن هذا المبدأ الذي عبر عنه بالتعبير الذي نقلنا نصه.

ولا ريب في أن الفقـه هو الـوسيلة التي يتكيف المجتمـع على هديهـا في المهمـة وهـذه هي المهمة الكبرى للفقيه التي يتعامل مع عمله الفقهي باعتباره تعبيراً عن حاجة المجتمع في تحولاته وصيرورته وما يواجهه من تحديات في هذه الإعصار لعل أكبر ممثل أو بالتأكيد في التجربة في الإنجاز أكبر ممثل شهدته الأمة الإسلامية هو الإمام الخميني في هذه الرؤية الذي يحول الرؤية الفقهية إلى اختيار وليس ضرورات الـزمـان إلى استجـابـة يعني الأمـة تكـون فاعلة ولا تكون مستجيبة منفعلة وإنما تكون فاعلة ولعل هذه الرؤية من السيد(رضوان الله عليه) تتناسب مع ما بدا لنا مما عبرنا عنه بالرؤية المرنة أو الرؤية المتحركة للنص التي أشـرنـا إليهـا في ملاحظـة سابقـة كما أن منهـا موقفـه ورأيـه الفقهي في بعض مظاهر إحياء الذكرى الحسينيـة التي عبر عنهـا في رسـالـة التنـزيه. ومن ذلك فتواه بعدم وجوب تقليد الأعلم وهذا أمر فاجأني وسـرني أيضـاً أنـه في المتأخـرين ممن أفتوا بين الشيعة بعدم وجوب تقليد الأعلم، التي لم نطلع على نهج استـدالـه فيهـا كما قلت هي فتـوى مجردة موجودة في رسالته العملية وكنت أظن أني غريب في هذا الرأي حتى رأيت أنه (رضوان الله عليه) قد ذهب إليه لم نطلع على نهج استدلاله فيها ولكنها فتوى على أي تقدير تكشف عن عدم ارتهانه لسطوة الرأي المشهور بل والمدعى عليه الإجماع بين فقهاء الإمامية الذي يهون الأمـر يقـول مشهـور الفقهـاء على وجـوب تقليـد الأعلم وعد إجزاء تقليد غيره وبعضهم أو كثير منهم

يدعي الإجماع من مظاهر عدم ارتهان السيد(رضوان الله عليه) لسطوة الرأي المشهور وهو ما أشرنا إليه في عبارته التي نقلناها على الفقيه أن يعتمد على فهمه الخاص لدلالة الدليل ولا يقلد منهم غيره من مظاهر ذلك هذا الرأي، وهذا الرأي رأي كبير رأي مهم جداً في الدراسات الفقهية ولكنها على أي تقدير تكشف عن عدم ارتهانه لسطوة الرأي المشهور بل والمدعى عليه الإجماع وتكشف عن نظرته المتحررة والمتحركة لأدلة مشروعية التقليد وحجية الفتوى وهذا ما يتناسب مع عبارته التي نقلناها عن رسالته في منجزات المريض اللازم اتباع مدلول الدليل بحسب ما يفهمه الفقيه لا تقليد غيره في الفهم نعم فهم الغير يكون مؤيداً إن وافق.

نأتي أخيراً إلى عمله الفقهي في مسألة منجزات المريض وهي كما أشرت إلى ذلك من المسائل المعيارية التي نسميها مسائل معيارية في هذه الرسالة جرى على النهج العام المألوف في تحرير المسائل وطريقة الإستدلال ويمكن أن يُعتبر تطبيقاً أن يعتبر عمله الفقهي في هذه المسألة تطبيقاً لرؤيته المنهجية المعتدلة في دور علم الأصول في عملية الإستنباط الذي أشرنا إليه في مقدمة الحديث حيث أنه فيما أتذكر لم يستخدم الأصول العملية في هذه الرسالة إلا مرة أو مرتين وبصورة جانبية أيضاً ومسألة منجزات المريض وإن كانت غنية بالنصوص من السنة إلا أننا تعودنا من الفقهاء الذين يولون المنهج الأصولي عناية فائقة أنهم قلما يتركون فرصة سانحة لإستعمال براعتهم الحصولية دون اكتمال عملهم الفقهي في رسالته العملية الدر الثمين يكشف عن جريه على النهج العام في تناول الأدلة والإستدلال والإستنباط.

طبعاً الرسالة العملية قلت لمقاكم أنها عبارة عن فتاوى مجردة وليس فيها استدلال ولكن الإنسان الممارس في الفقه من طريقة صياغة الفتوى من الرأي الفقهي من الأشكال في مكان الإحتياط في مكان يمكن أن يستنتج السياق العام ولكنه استنتاج محفوف بالمخاطر بطبيعة الحال إلا أنه يمكن أن يستنتج السياق العام في الفكر الفقهي لصاحب الفتاوى، ومن هنا لهذا السبب لا تظهر رؤيته المتحركة للنصوص في هذه الرسالة. إلا أنه وهذه ملاحظة آمل أن تؤخذ بالإعتبار والعناية لا يمكن اعتبار رسالته العملية في حدود النص الذي اطلعت عليه ولعله هو النص المتداول لا يمكن اعتبار الرسالة العملية المتداولة شاهداً كافياً على سليقته الفقهية من هذه الزاوية من ناحية ما أشرنا إليه من رؤيته المتحركة المرنة والنسبية للنص الفقهي لماذا لا يمكن أن تكون الرسالة التي رأيتها هي خاصة بأحكام العبادات فقط وليس فيها من المعاملات بأقسامها أي شيء تبدأ بالعقائد وهذا تقليد اتبع فيه كبار الفقهاء القدماء الذين كانوا يقدمون لرسائلهم العملية رسائل الفتوى المجردة بما يسمونه التكليف العقلي وهو العقائد في أصول الدين ثم يتبعونه بما نصطلح عليه التكليف السمعي وهو الأحكام الشرعية في الفروع وبعد ذلك يدخل في أحكام الطهارة والمياه ويختم بأحكام الجنائز لأنها خاصة بأحكام العبادات المحضة التي يغلب على الفقيه فيها على كل فقيه وهذا القاعدة عامة ينبغي المحافظة عليها في باب العبادات خاصة التي

يغلب على الفقيه فيها شدة الحذر والتحفظ مما يجعل الفتاوى مطابقة للإحتياط غالباً والتي هي تعبدية يعني العبادات نصوصها تعبدية محضة حيث يحرص الفقيه فيها على المراعاة الدقيقة والحذرة للنصوص ويميل فيها في مجال أعمال الأصول العملية إلى جانب أعمال الإحتياط غالباً فهي تعبر عن ذروة حذر الفقيه.

نقول لماذا نتوسع أو نتسامح في تفصيل أحكام الطهارة أو الصلاة أو الصيام أو غير ذلك من العبادات . . . هذه لا تعتبر مقياس لعله في فقه المعاملات الذي هو المجال الأرحب لظهور النظرة الفقهية المتحركة لعله طبق منهجه فيه كما استفدنا ولكننا لم نتطلع على فقهه في هذا المجال سوى ما ذكرته من مسألة منجزات المريض وإذا كان لكل قاعدة من شذوذ وما من عام إلا وقد خص فإن مظهر ذلك في تراث السيد(رضوان الله عليه) بالنسبة على عدم الجمود على النص ما ذكره في شأن تسمية الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن المنتظر سلام الله عليه فهو أمر استغربته كثيراً ذكره في قسم العقائد من الدر الثمين حيث قال في تعداد الأئمة(عليهم السلام) الأئمة المعصومين قال:

الثاني عشر المهدي صاحب الزمان ابن الحسن العسكري واسمه كاسم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وعلق على ذلك بقول إننا لن نصرح باسمه لما ورد في أخبار كثيرة من المنع من تسميته وبعضهم حمل ذلك على التحريم وإن كان التحريم معلوماً هذه نظرة شديدة الجمود على النص ومن هم أقدم منه ولعلهم أضيق منه من الفقهاء تجاوزوها للفهم الواضح بأن النصوص المشرعة لعدم تسمية الإمام الثاني عشر كانت إجراء أمنياً كما نصطلح الآن إجراء أمنياً في العصر العباسي ، لأن الإمام الثاني عشر كان مطارداً وفُتشت البيوت من زمان الحسن العسكري والده سلام الله عليهما ورد توجيه أمني يرتبط بفترة زمنية محددة أنه لا تسمونه عن التسمية وأما بعد ذلك فهذا أمر شائع أن يسمى باسمه(عليه السلام)

ومن ذلك أيضاً من جملة الأمور التي تُعتبر تخصيصاً للعام واستثناء من القاعدة أنه في فتاواه استشكل في مشروعية البقاء على تقليد الميت وهذه لا تتناسب مع الرؤية المتحركة للنص في رأينا الفقهي . فتواه في ولاية المجتهد سهم الإمام (عليه السلام) من الخمس هي لا تتناسب مع ما تقضي به الأدلة حسب الرؤية المتحركة للنص وبعض الفتاوى الأخرى ولعل ذلك من جهة صلة هذه الموضوعات بالعبادات المحضة كما ذكرت على أي حال ومهما كانت الإستنادات في حدود النزر القليل الذي اطلعت عليه يظهر أن السيد الأمين فقيه عظيم يتناسب مع شموخه ومع عظمته في حقول المعرفة الأخرى وأكرّر إذا كان من نتائج هذا المؤتمر أن تتكون هيئة تعنى بجمع التراث الفقهي والأصولي فقط للسيد الأمين وخاصة ما هو مخطوط منه ولعل هناك الكثير منه أو ما هو متفرق منه في ثنايا كتبه وقد رأيت له مسائل في معادن الجواهر من باب الإستفتاءات لأجل أن يضم إلى سائر تراثه وتتوسع مدرسته في هذا الجانب من الجوانب المهمة ، أشكر الله سبحانه وأشكركم جميعاً وحفظكم الله والسلام عليكم .

ماذا بعد الأمين؟

* *

حجة الإسلام الشيخ مهاجري

مستشار رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية للشؤون الإجتماعية رئيس تحرير صحيفة «جمهوري إسلامي».

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ دراسة الحياة العلمية والاجتماعية للمصلح الكبير المرحوم العلاّمة السيد «محسن الأمين العاملي» الذي عاش خلال الفترة (١٢٨٤ ـ ١٣٧١ هجري قمري)، تؤكد هذه الحقيقة، وهي أنّ هذا الإنسان كان من أبرز العلماء الدينيين في عصره حيث حقّق لمجتمعه مآثر كبيرة على الصعيدين العلمي والإصلاحي.. كما أنّ مثل هذه الدراسة تثير في الأذهان تساؤلات مهمة وعديدة تستحق التأمّل حيث إنّ إعطاء أجوبة مناسبة لهذه الأسئلة يبدو أكثر تحقيقاً لهدف إقامة هذا المؤتمر التكريمي لهذا العالم المجاهد والمخلص.

فالعلّامة السيد محسن الأمين كان بحق مشعلاً ساطعاً لو عُرِفَ وعُرِّفَ للآخرين بشكل صحيح، ولـو أنّ الأضـواء سلطت كامـلاً على جوانب حيـاتـه المختلفـة لا سيـما الاجتـماعيـة والسياسية مع أخذ الظـروف الـزمنيـة الخـاصـة التي عاش فيهـا بنظر الاعتبار لتمكنّا أن نستزيد أكثر منها لإنارة طريقنا نحو المستقبـل. . وهـذه الخصـوصيـة بالذات هي من خصائص العلماء الربّانيين الذين يستمر تأثيرهم على قلوب النـاس حتى بعـد فقـدانهم بل يخلدون كعنصر مؤثر على إرشاد المجتمع فكرياً كما عبّر عن ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

حياته العلمية والاجتماعية:

إنّ اختيار القلم كأداة لتوعية المجتمع الإسلامي وتحقيق الإصلاحات الاجتماعية كان أفضل خيار ممكن بالنسبة لعالم كالعلّامة السيد محسن الأمين، لو أخذنا بعين الاعتبار الظروف الزمنية التي عاش في ظلهـا. لذا فإنّ تدوين وتسجيـل تفـاصيـل حيـاة علماء الشيعـة وصلحـائها في موسوعته الخالدة (أعيان الشيعة) يعتبر إجراء كان الهدف منه هو ملء فراغ كبير في الثقافة الشيعية المدونة. وبالرغم من أن مثل هذا العمل كان قد نُفِّذ بشكل متفرق في السابق، إلاّ أن الخصوصية العامة والشاملة لـ (أعيان الشيعة) أدّت إلى أن يأخذ هذا الكتاب موقعاً مرموقاً في الموسوعة الإسلامية الكبرى.

إنّ هذه الجملة التي ذكـرهـا العـلّامـة الكبـير الحـاج الشيـخ (آقا بزرك الطهراني) في كتابه القيِّم (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) وهو يُقيِّم كتاب (أعيان الشيعة) حيث قال:

(هـو الكتـاب الجليـل الـذي يعتـبر من حسنات العصر الحاضر) تثبت قيمة الخدمة الكبيرة التي أسداها العلّامة السيد محسن الأمين للعلم والمعرفة بفضل مؤلّفه الموسوم (أعيان الشيعة).

إنّ إبـداع القلم في أكثـر من مجال واحـد يعتبر من أندر الخصائص التي يتميّز بها عدد ضئيل جداً من العلماء في كل عصـر وزمـان، وكـان العلّامة السيد محسن الأمين من هؤلاء القلّة المباركة. حيث أنّه وبفضل ما تميّز به من الشمولية العلمية والفكرية والاستزادة العلمية القصوى من دروس العلماء الكبار من أمثال المرحوم (آخوند خراساني) صاحب (كفاية الأصول) والمرحوم آية الله الحاج رضا الهمداني وآية الله محمـد طه نجف وبـاقي علماء النجف الأشـرف الكبار فضلاً عن مطالعاته الواسعة في شتّى العلوم، فقـد استطـاع بفضـل كل ذلـك أن يترك بعـده آثـاراً مدونـة وقيّمـة في مجالات علمية عديدة كالتراجم والتاريخ والحديث والمنطق والكلام والفقه والأصول والأدب.

وإلى جانب هذه الجهـود الكبـيرة التي بذلهـا العـلّامـة الأمـين والإنجـازات العلمية التي حقّقها بقلمه، فإنّه عُرف ـ رحمة الله عليه ـ بجهده وسعيه الحثيث للتواجد الفعّال والواعي في ساحات المجتمع

من أجـل الإجـابـة على الشُّبهـات التي كانت تشاع في عصره بهدف التشويش على الأذهــان وجعلها تسيء الظن بالإسـلام عمـومـاً وبـالتشيع بشكل خاص. حيث إنّ القرن الرابع عشر الهجري القمري والعشـرين الميـلادي عُرف بظهـور أفكار مستوردة ومستندة إلى المادية الغربية وانتشارها على صفحات الصحف والمجلاّت والثقافة المدوّنة عموماً في العالم الإسلامي وبالأخص في العالم العربي.

وبالرغم من أنّ التبلور الرئيسي لهذه الأفكار قد ظهر في مصر، إلاّ أنّ سورية ولبنان اللّتين كانتا تخضعان للسيطرة الفرنسية، شكّلتا ساحة واسعة لانتشار هذه الأفكار وتفاعلها مع غيرها وتأثيرها عليها كما أنّ الحـالـة الاجتـماعية التي كانت سائدة في هذه البلدان والبنية العلمية لها لم تكن ـ للأسف راسخة بشكـل مطلوب تجعلهـا ترفض الأفكـار الغربية الباطلة وتقاوم الشُّبهات اللاإسلامية. . . وفي مثل هذه الظـروف برز المرحـوم العلاّمة السيد محسن الأمين متسلّحاً بخزين علمي ومعنوي كبير كان قد تزوّد به من الحـوزات العلميـة الشيعيـة ووقف صامداً صلباً بوجه الهجوم الثقافي الكاسح في ذلك العصر وقاومه **بكل قـوة واقتـدار عن** طريق تحرير المقالات المتعددة المزيلة للشبهات التي كثرت في عصره، وبلا شك فإنّ هذا الجهد الثقافي الذي بذله سماحته لعب دوراً كبيراً في يقظة شعوب المنطقة وثورتها من أجل الاستقلال.

إنّ ظهور العلاّمة السيد محسن الأمين كمصلح اجتماعي كبير يبدأ من هذه النقطة بالذات، فهو في ذات الـوقت الـذي كان ينـاضـل فيه بشكل جاد ضد بعض المظاهر الخرافية والتحرّكات المتطرفة التي كانت تظهـر من قبـل بعض الفئـات الشيعيـة في مراسم العـزاء وغيرها، فقد كان يخاطب بقلمه أولئك الـذين كانـوا يسعون من أجل إثارة علامات الاستفهام حول بعض العقائد الناصعة والواضحة وأسس التشيّع الدقيقة ويرد عليهم.

الأمر المهم جداً في هذا المجال هو التزام العلاّمة السيد محسن الأمين بالحدود والضوابط الإسلامية وهو يجيب على الشُّبهات المُثارة أو أي نوع آخر من صور النضال الإصلاحي الذي كان يخوضه. وبهذا السلوك الحسن استطاع العلاّمة الأمين أن ينفذ إلى قلوب الأخوة من أهل السنّة ويتخذ له موقعاً خاصا في تلك القلوب. . وانطلاقاً من هذه القاعدة الاجتماعية القائمة على الصدق والحقيقة قاد السيد الأمين أبنـاء سوريـة في مواجهتهم للأساليب المجحفة للشركات الفرنسية. . وكذلك انطلاقاً من هذه القاعدة نبّـه الحكـومـة السورية في عهد الاستقلال لأنّها صرّحت في أحد بنود قوانينها بمصطلح (الطائفة السنّية) أثنـاء توزيعهـا لمقـاعـد مجلس النـوّاب جنبـاً إلى جنب أقليـات باقي الأديـان وقال لها بالحرف الواحد: «الشيعة ينظرون دوماً إلى المسلمين كطائفة واحدة، وكان الحق أن تتم الاستفادة من كلمة (المسلمين) بدل (الطائفة السنّية) حتى لا يؤثر ذلك سلباً على الأخوّة القائمة بين الشيعة والسنّة».

إنّ النجـاح الـذي كان يحققـه المرحـوم العـلاّمـة السيـد محسن الأمـين في مثـل هذه الحـركات

الإصلاحية كان يبرزه كزعيم ديني وكمصلح اجتماعي كبير في منطقة سوريا ولبنان، وكان أيضاً يمهّد الطريق له ليقوم بمهامه الأصلية والرئيسية كزعيم ديني، والمتمثلة بمواجهة الاستعمار. . وفي ظلّ مثل هذه الظروف كان للعلّامة السيد محسن الأمين وقفة جادة ضد الفرنسيين في قضية قانون الطوائف مما دفع الفرنسيين من أجل المساس بنفوذه المعنوي بين الناس إلى أن يقترحوا عليه منصب (رئاسة علماء الشيعة)(٤) ولكنه رفض هذا المنصب.

إنّ تكرر محاولات الفرنسيين من أجل كسب العلّامة السيد محسن الأمين إلى صفوفهم عن طريق عروض بتقديم البيت والسيارة والراتب المغري أو المنصب الرسمي الرفيع له تدل على مدى شعور المستعمرين بالخطر الذي كانوا يواجهونه من قبل سماحته(٥)، كما أنّ امتناعه عن قبول أي من تلك الاقتراحات في وقت كان يعاني فيه الضيق والعوز المالي الكبير(٦)، يدل على مدى إيمان سماحته بالرسالة التي نذر نفسه من أجلها باعتباره عالم دين وقائد في المجتمع.

إنّ مثل هذا السلوك يتطابق بدقة مع السلوك الذي عرف به علماء الدين المجاهدون عبر التاريخ وبالأخصّ في القرن المعاصر وهم يواجهون الاستكبار والاستعمار، وأكبر مثال **على ذلك هو الجهاد** المعادي للاستعمار الذي قاده علماء النجف الأشرف ووقوفهم في وجه الاستعمار البريطاني في العراق عام ١٩٢٠ ميلادي، بالإضافة إلى الفتوى التاريخية التي أصدرها الميرزا الشيرازي ضد البريطانيين في قضية التنباك المعروفة، وأكثر من كل ذلك انتصار الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩م.

إنّ وقوف العلّامة السيد محسن الأمين بوجه المستعمرين الفرنسيين وجهوده التي بذلها لتشجيع الناس على مواجهة مؤامرات المستعمرين التي كانت تهدف إلى احتلال فلسطين ترك أثراً عميقاً على رجال السياسة في ذلك العصر، ومهّد الطريق أمام التحرّكات الاستقلالية التي ظهرت فيما بعد في سوريا ولبنان.

إنّ العبارة التي عُرفت عن السيد لطفي الحفّار رئيس الوزراء السوري الأسبق أنّه كان قد قالها في فضل هذا المصلح الكبير يمكنها أن توضح أكثر هذه الحقيقة التي أشرنا إليها آنفاً ففي إشارة له إلى حالات المدّ والجزر التي تميّزت بها الحركة النضالية للشعب السوري ضد الفرنسيين الذين كانوا يستعمرون سورية آنذاك قال السيد الحفّار «كنّا نستمد قوة روحية ورعاية واسعة ودعوة صالحة من الإمام المجتهد السيد محسن الأمين»(٧).

إثارة عدة تساؤلات

مع أن المرحوم العلامة السيد محسن الأمين كان يعتبر مصلحاً كبيراً وقاعدة صلبة وقوية بالنسبة

للمنـاضلين ضد الإستعـمار الفـرنسي ، إلا أننـا لا نملك تفـاصيـل أكثـر حول جهـاد سماحتـه ضد الإستعمار. . . ولكن البيان الذي صدر عنه آنذاك محذراً من مؤامرات المستعمرين الأوربيين الهادفة إلى احتـلال فلسطـين تدل على اهتـمامـه العميق بالخطـر الإسـرائيـلي وقلقـه الشـديـد بشأن مستقبـل فلسطين[٨]. . . والسؤال الذي أردنا إثارته بهذا الشأن هو:

مع أخـذ المكـانـة الإجتـماعية والمعنوية لهذا العالم الكبير في المنطقة بنظر الإعتبار، ماهي العوامل التي حالت دون اشتعال نيران غضب الجماهير آنذاك ضد عملية احتلال فلسطين ، فلو أن ذلك كان قد تحقق لأحرق لهيبها جذور مؤامرة زرع هذه الغدة السرطانية (إسرائيل) في قلب العالم الإسلامي؟ . . .
والسؤال الآخر هو: مع اطّلاع المرحوم العلامة السيد محسن الأمين العاملي على الأسس الفقهية لبعض علماء عصره ومنهم المرحوم الميرزا محمد حسين النائيني بشأن الحكومة الإسلامية فهل سماحته كان يعرض مثل هذا التفكر في حركاته الإجتماعية والسياسية؟ .

والسؤال الثـالـث هو: ماهي الإجـراءات التي اتُّخـذت من قبـل العلماء المجـاهـدين والمنـاضلين المسلمين الذين جاؤا بعد العلامة الأمين ، بهدف إكمال الجهود الإصلاحية التي بدأها سماحته؟ .
رغم أن الإجابة على هذه الأسئلة أمر ممكن وواضح نوعاً ما ، بالنسبة للّذين لهم معرفة بالحياة الإجتماعيه والسيـاسيـة للعـلامـة السيد محسن الأمين ، إلا أن توضيح ذلك أمام الرأي العام يمكنه أن يكون مؤثراً كبيراً ومثمراً في مسيرة التكامل الفكري للجهاد الإسلامي .

لا شك أن الظروف السائدة الآن في المنطقة والعالم تختلف كثيراً عمّا كانت عليه في زمن العلامة السيـد محسن الأمـين ، وبـالأخص بعـد تصـاعـد الوعي السياسي للشعوب المسلمة بعد انتصار الثورة الإسـلاميـة وانتشـار الأفكـار الثـوريـة لسـماحـة الإمـام الخميني (رضوان الله تعالى عليه) بين صفوف المسلمـين . . . فلربـما يبـدو أن طرح مسألـة ولايـة الفقيه في تلك الظروف لم يكن يلقى إقبالاً كبيراً أو لم يكن يتميـز بجـاذبيـة معينة أو لم يكن ذلك ممكناً بشكل مبدئي ، إلا أن طرح هذه القضية الآن ، بعد أن أمست من المباحث الهامة جداً والأساسية في الفقه السياسي الإسلامي ، يمكنه أن يكون مساعداً على إكمال الطريق الذي بدأه العلاّمة السيد محسن الأمين وسار فيه في هذه المنطقة .

ما وصلنا من معلومات حول الجهود التي بذلها العلاّمة السيد الأمين في هذا السبيل تثبت بشكل واضـح أن سماحتـه كان مخالفـاً للنظـريـة الإستعمارية القائلة بـ (فصل الدين عن السياسة) وهذا يمثل أسمى الأسس الفكرية لمدرسة التشيع والتي تعود أصولها إلى سيرة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الأطهار (عليهم السلام) .

وفي الطرف المقابل ، فإن الطواغيت سعوا خلال قرون عديدة من أجل فصل الدين عن السياسة في الفكر والعمل والتأكيد على هذا المخطط حتى يتمكنوا من تحقيق أهدافهم وآمالهم دون أن يواجهوا

أي عائق في هذا الطريق.

لقد نفذت هذه المؤامرة خلال القرنين الأخيرين بدقة متناهية من قبل المستعمرين في البلدان الإسلامية، وقد سعى هؤلاء كثيراً من أجل إبعاد علماء الدين عن الساحة السياسية، ونجحوا في ذلك للأسف. إن الأمر المهم الذي ينبغي أن يهتم به علماء الإسلام وبالأخص في سورية ولبنان، باعتبارهما شكّلا الوسط الذي انتشرت فيه الآثار الفكرية للمصلح الكبير العلامة محسن الأمين، هو أن بإمكانهم اليوم أن يكملوا الحركة الإصلاحية التي بدأها السيد الأمين وبالأخص بعد أن انتشرت الأفكار الثورية الإسلامية التقدمية في شتى أرجاء العالم الإسلامي.

إن دراسة السيرة الواضحة والمتميزة للعلامة السيد محسن الأمين خلال سنوات عمره الشريف تشير إلى أن هذا الإنسان الكبير لو قدِّر له أن يكون حياً اليوم لكان في طليعة المنادين إلى إقامة الحكومة الإسلامية بزعامة الفقيه العادل في المجتمع الإسلامي..

حيث أن الظروف الزمانية التي كانت سائدة في منطقته قبل نصف قرن والتسلط الإستعماري الكامل على مقدرات المسلمين كانت تحول دون عرض مثل هذه الأفكار الثورية أمام الرأي العام إلا أن الظروف قد تغيرت اليوم، حيث أن يقظة الشعوب المسلمة قد مهّدت للإفصاح عن مثل هذه الأفكار بل إنها ساعدت على اتخاذ خطوات مناسبة لتطبيق هذه الأفكار.

إن المشكلة الكبرى التي تواجه الأمة الإسلامية في عصرنا الراهن تكمن في سيطرة عناصر غير صالحة على مقدّرات أغلب البلدان الإسلامية... وبما أننا لا زلنا نشهد استمرار بقاء فلسطين والقدس العزيزة تحت نير الصهاينة إلى يومنا هذا، والإندفاع العام لمهادنة مغتصبي فلسطين فإن علينا أن نبحث عن جذور وأسباب هذا الذل في عدم تسلّم الصالحين من أبناء هذه الأمة لمقاليد الأمور في هذه البلدان..

إن إقامة مثل هذا المؤتمر الكبير في الذكرى الأربعين لرحيل المصلح الكبير المرحوم العلاّمة السيد محسن الأمين العاملي لو قدِّر له أن يكون نقطة انعطاف للتعرف على جوانب مضيئة أكثر من حياة هذا العالم الكبير، وأدّى أيضاً إلى خلق دوافع أعمق لدى العلماء والمفكرين والسياسيين للإهتمام الأكبر بالأسس الثورية للفقه الإسلامي ومنها المبدآن التقدميان الأصيلان وهما (استحالة الفصل بين الدين والسياسة) و(لزوم تدخل الفقهاء بالأمور المتعلقة بإدارة المجتمع) وشرح هذه الأسس علمياً فضلاً عن بذل الجهود العلمية الهادفة إلى تطبيق هذه المبادىء في المجتمعات الإسلامية... أجل لو حقق المؤتمر كل ذلك فآنذاك يمكننا أن نعتبر مثل هذه الخطوة انجازاً يستحق الإهتمام.

ولو التزم علماؤنا في شتى أنحاء العالم الإسلامي بمسؤوليتهم أمام الناس وعملوا بها بشكل صحيح، لأصبح أمل إقامة (حكومة الصالحين) في ظروفنا التي تتميز بانهيار القوى المستندة إلى الأفكار

الإلحادية والمادية وانضمام الشعوب المسلمة واحداً تلو الآخر إلى صفوف الأمة الإسلامية العظيمة، ليس بعيداً عن التحقيق ولأمسى ذلك الأمل قريب المنال. . . . إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحواشي

(١) - الذريعة إلى تصانيف الشيعة / ج ٢ ص ٢٤٨.

(٢) - أعيان الشيعة / ج ١٠ ص ٣٧٠.

(٣) - نفس المصدر

(٤) - نفس المصدر.

(٥) - نفس المصدر / ج ١٠ ص ٣٧٣.

(٦) - في الصفحة ٣٧١ من المجلد العاشر لكتاب أعيان الشيعة يشير المرحوم إلى الحالة المعيشيه والمادية الصعبة التي كان يعاني منها حتى في مجال تصحيح ومراجعة الكتب التي كانت قيد الطبع وكان آنذاك في الثامن والستين من عمره . .

(٧) - أعيان الشيعة / ج ١٠ ص ٣٨٣، السيد لطفي الحفار يشير في هذا المحال إلى التأثير المعنوي لجهاد العلامة السيد محسن الأمين ضد الإستعمار ويضيف بالقول:

وإني لأذكر أن الفرنسيين حاولوا كثيراً استمالته إليهم بشتى الوسائل المغرية وعرضوا عليه داراً فخمة يقيم بها وراتباً ضخماً يتقاضاه منهم فردّهم رداً عنيفاً وأعرض عنهم ولم يبالي بهم وبقوتهم وكان لهذا كله أعظم تأثير لدى الذين يتصلون به ويعرفون مناقبه وفضائله ويستمعون إلى أحاديثه النافعة ونصائحه الغالية

(٨) - أعيان الشيعة / ج ١٠ ص ٣٨٤



الجانب الإجتماعي والإصلاحي من حياة العلامة السيد الأمين

**************** العلامة السيد محمد حسين فضل الله

بسم الله الرحمن الرحيم

في دراستنا لشخصية السيد محسن الأمين نلاحظ أنها شخصية متعددة الأبعاد في حركة المعرفة، وفي حركة الواقع، مما جعله حاضراً في وجدان عصره وقريباً إلى وعي عصرنا الحاضر فلا نحس بالغربة عندما نتحدث عنه، أو نثير أفكاره في حديثنا الفكري الثقافي، فقد كان يحمل شخصية الفقيه الأصولي إلى جانب شخصية الشاعر الناقد، والكاتب الأديب والمؤرخ المنفتح على حركة التاريخ في وعي أحداثه وتقويم شخصياته وسعة آفاقه، ليلاحق الأحداث بتحليلاته التي تكتشف خلفياتها وترصد نتائجها وتحاكم نتائجها في سلبياتها وإيجابياتها، والكلام الموضوعي في حركة التنوع في العقيدة المذهبية الذي يدرس ألوان المذاهب الفكرية في الخط الإسلامي ليتحرك في خطوطها المتنوعة باحثاً وناقداً، على مستوى المنهج الموضوعي في أسلوب العرض وأمانة النقل، وهدوء العقل، وروحية الانفتاح، ونلتقي به في حركة المنهج التربوي ناقداً

للأساليب التربوية في تعليم الأطفال في دراسة الفقه وأصوله وعلوم العربية في الدراسات الحوزوية.

لقد عاش منذ البداية قلق المعرفة في كل آفاقها المنفتحة على محيطه ليتابع مواقعها، فيتنقل من أستاذ إلى أستاذ، ومن مدرسة إلى مدرسة، ومن بلد إلى آخر، لأنّه وجد هذا الأستاذ لا يحقق له طموحه في علمه أو في أسلوبه، ولأنّ هذه المدرسة لا تحتوي المناهج التي تلتقي بحاجاته ولأنّ هذا البلد لا يحمل له في تطلعاته المعرفية الفرص الواسعة للوصول إلى أهدافه.. وهكذا تجده ينقد هذه المدرسة وهذا الأستاذ، ويتوفر على الاستفادة من كل وقته وجهده حتى يبتعد ـ في بعض الحالات ـ عن المألوف في العلاقات الاجتماعية في أجواء المجتمع الدراسي، حفاظاً على وقته.

وهكذا كان يدرس ويبحث وينشد المعرفة الفكرية والروحية والتربوية من خلال أساتذته، لينفتح على روحية التقوى في حركية العلم، وعقلانية الشخصية في واقع الحركة، من موقع صناعة الشخصية الإسلامية المسؤولة في إغناء ذاتها بالعناصر التي تحقق لها الغنى الفكري والروحي والعقلي، فكان يتحدث عن شخصية المجتهد في شخصية العالم المسلم القيادي إلى جانب شخصية التقيّ العادل والحكيم الخبير لينقد في أسلوبه اللاذع في أحاديثه البعض من المشايخ الذين افتقدوا العالم الواسع في ثقافتهم والتقوى العميقة في روحيتهم، والعقل الناضج في تفكيرهم ورؤيتهم للأحداث.

وكان العالم المنفتح على قضايا عصره، وعلى تطلعاته وأوضاعه وحاجاته، كما كان القريب إلى حركة الثقافة الحديثة في واقع المثقفين الذين قد يختلف منهجهم الثقافي عن منهجه، وانتماءاتهم الفكرية عن انتمائه ممن قد يجد بعض الفقهاء الآخرين فيهم البعد عن الخط، والانحراف عن الدين، بالمستوى الذين ينفرون منه من اللقاء بهم والحوار معهم والانفتاح عليهم، انطلاقاً من الذهنية المنغلقة على الواقع الذي تختلف معه، أو الأشخاص الذين يختلفون معها، الأمر الذي قد يؤدّي إلى صراع الأجيال في الفكر والمنهج والأسلوب، بالطريقة التي تبتعد فيها الساحات عن طبيعة التكامل، وينفصل فيها الناس عن بعضهم في قضايا الحوار، ويتحرك معها الواقع المتنوع، بعيداً عن قاعدة التوازن، لتكون النتائج، اتهاماً في مقابل اتهام، وسباباً في مواجهة سباب، وابتعاداً عن وضوح الرؤية للأفكار والحركات والأشخاص.

لقد كان السيد محسن الأمين عالماً يجد في جيل الشباب الساحة التي يتحرك فيها، والأفق الذي ينطلق فيه، ليجد فيهم حركة العصر، وروحية النمو، وحيوية التطور، فيلتقي بهم ليستمع إليهم في أفكارهم وقضاياهم وتطلعاتهم نحو أهداف المستقبل، ليتعرف إليهم في شخصياتهم الجديدة ليعمل على التجربة الحية الحكيمة التي يلتقي فيها القديم بالجديد، لتمتد الجسور التي تربط بين مرحلة

ومرحلة، وبين جيل وجيل، حتى تكون عملية التطور في حركة التاريخ حركة تكامل بين عناصر الزمن، في المعطيات الغنية التي يحمل فيها الماضي للحاضر حقائق الحياة في حقائق الفكر، وينطلق فيها الحاضر ليجدد بعض ما بلي من الماضي ويدفع بالحياة الفكرية والعملية إلى آفاق جديدة تماماً كما هي الشمس عندما تجدد الحياة في إشراقة النور المتجدد في كل صباح.

ويحدثنا بعض معاصريه عن بعض هذه اللقاءات فيقول:

«كان رجال الكتلة الوطنية في سوريا» قد اعتادوا بين الحين والحين أن يزوروا السيد محسن الأمين في منزله المتواضع البسيط جداً. وكانت زيارتهم هذه إمّا أن تكون فردية فيزوره كل واحد منهم منفرداً، أو زيارة جماعية تضم اثنين أو ثلاثة أو أكثر، وكثيراً ما كان يرافقهم في هذه الحالة بعض زعماء الأحياء وبعض الصحافيين.

وكان محور هذه الزيارات سواء كانت فردية أو جماعية يدور على بحوث فكرية أو وطنية أو ثقافية أو اجتماعية يغتنم فيها الحاضرون وجودهم في مجلس السيد محسن الأمين ليطرحوا تساؤلات أو يناقشوا موضوعات يرون في مشاركة السيد محسن فيها وإدلائه بآرائه في مشاكلها وتفاصيلها فائدة كبرى يجب اغتنامها.

وأذكر مرة أنّ لطفي الحفار أحد أركان الكتلة الوطنية ورئيس الوزراء بعد ذلك ناقش أمر توريث البنات جميع تركة الميت إذا لم يترك أولاداً ذكوراً فشرح له السيد محسن ذلك شرحاً مفصلاً، كان الحفار يتحدث عنه في كل مناسبة.

وكان الدكتور محسن البرازي يفضل دائماً أن يزور السيد محسن منفرداً لأنّه كان من بين السياسيين السوريين سياسياً عالماً كثير المطالعة، وكان يصر على أن يستقبله السيد محسن في «علّيته» المربعة الصغيرة التي تحتوي على مكتبته ويجلس فيها على الأرض ويكتب فيها كتبه، وكان البرازي يشرع في طرح أسئلته التي كانت تدور في معظمها على الشؤون الفقهية.

وعندما يكون نجيب الريس صاحب جريدة «القبس» بين الحاضرين فلا بد من مطارحات ومناقشات أدبية نقدية أو شعرية وهكذا تتنوع مواضيع الزيارات بتنوع الحاضرين.

وهكذا كان الكثيرون في لبنان يحدثونك عن انفتاحه على جيل الشباب ورفقه بهم وبأحاسيسهم ومشاعرهم وصبره على أخطائهم وخطاياهم لأنّه كان يعمل على أن يقرّبهم إليه لينفتحوا على علمه وهديه ليهتدوا به من موقع المحبة، لا من موقع الدرجة العالية التي توحي إليهم بالمسافة الشاسعة الفاصلة بينهم وبينه كما يفعله البعض من العلماء الفقهاء، ومن المثقفين الكبار.

كان الإنسان الواعي لمشاكل عصره، ولنقاط الضعف المتناثرة في مجتمعه وللانحرافات الكثيرة عن المنهج السليم، وللأوضاع الصعبة التي يعيشها الناس فكان يتحرك ـ في شجاعة شخصيته،

وصلابة إرادته، ليبادر إلى مواجهة ذلك كله بالموقف القوي، والنقد الجريء، والتجربة الواعية النادرة من خلال الأفق الواسع للرسالة الإسلامية في واقع الحياة، ومسؤولية العلماء الرساليين الذين أخذ الله عليهم أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ـ كما يقول الإمام علي عليه السلام ـ وهكذا كان يواجه الانحراف التربوي والاجتماعي والديني، بالإصلاح، كما يواجه الانحراف السياسي بروحية الثورة، انطلاقاً من حجم الظروف التي كان يتحرك في داخلها في الدوائر السياسية التي تحكم أوضاع عصره في تطلعاتها الفكرية والعملية في الميدان الاجتماعي والسياسي.

وفي ضوء دراستنا لنشاطه التربوي والاجتماعي والسياسي، فإنّنا نجد في شخصيته شخصية الثائر إلى جانب شخصية المصلح، حيث كان يدفع بالواقع السياسي في سوريا إلى الثورة من أجل التحرير، كما كان يدفع بالواقع الاجتماعي والتربوي والديني إلى التوازن والاستقامة في خط الصلاح والإصلاح.

وتلك هي مهمة العالم الديني المسلم في مسؤوليته أمام الله وأمام الناس فإنّها تتسع في المدى الذي يتسع له الإسلام في مواجهته لقضايا الإنسان والحياة لأنّ الثقافة الإسلامية التي يحملها العالم الفقيه، لا تتحدد في الجانب الثقافي من شخصيته، بل تمتد إلى الصفة القيادية التي تتمثل في المضمون الإسلامي الرسالي كرسالة حركية في الحياة، وهذا هو ما عبّرت عنه الأحاديث الكثيرة، مثل «العلماء ورثة الأنبياء» و«العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل، وما دخولهم في الدنيا قال: اتباع السلطان فإذا رأيتم العالم محباً لدنياه فاتهموه على دينكم» مما يجعل دوره دور الأنبياء في عمته وسعته وامتداده، الأمر الذي يتنافى مع العزلة والانكماش والبعد عن مشاكل الحياة للاحتفاظ بالجانب الروحي الشكلي في إيحاءات القداسة، وتقاليد الاحترام، ومظاهر الهيبة.

وقد تتنوع المواقع التي تدفع بالعالم الفقيه إلى الحركة الثائرة في مواجهة الواقع المنحرف الظالم، فربما يفرض الموقع عليه الانطلاق بالثورة في العناوين العامة التي تدخل في التخطيط لاسقاط المستعمر، في مسألة حرية الأمّة، أو لإسقاط الظالم في مسألة العدالة، وربما يفرض الموقع عليه القيام بحركة تغييرية تستهدف الوصول إلى إقامته حكم الله في الحياة على أنقاض الحكم الكافر المستكبر، تبعاً للظروف الموضوعية المحيطة بالواقع السياسي من حوله.

وقد كان السيد الأمين(قدس سره) العالم الذي واجه ظروف المرحلة الحرجة الصعبة التي عاش بها، بكل مسؤولية، فلم تكن حركته متواضعة ضعيفة خاضعة للتحديات التي تفرضها أوضاع التعقيدات السياسية والاجتماعية القاسية، بل كانت حركته في حجم تلك التحديات، وفي مستوى تلك الظروف، وفي الموقع الإسلامي المتحرك الذي تفرضه مسؤوليته في مواجهة الظلم والانحراف، ولذلك فإنّنا نجد في ملامح شخصيته، ملامح العالم المصلح، كما نجد فيها ملامح الفقيه الثائر وهذا هو ما نحاول الحديث

عنه في خلال استنطاق أحداث سيرته الحركية الثائرة.

ففي المسألة الإصلاحية يتحدث السيد الأمين عن بداية تجربته عند قدومه من النجف الأشرف إلى دمشق، من خلال المشاكل التي واجهته آنذاك فرأى أنّه مسؤول عن معالجتها بقوة.

قال: «وجدنا أمامنا أموراً هي علّة العلل، ولا بدّ في إصلاح المجتمع من النظر في إصلاحها:

١ ـ الأمّية والجهل المطبق فقد وجدنا معظم الأطفال يبقون أمّيين بدون تعليم وبعضهم يتعلمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم.

٢ ـ وجدنا إخواننا في دمشق متشاكسين منقسمين إلى حزبين بل إلى أحزاب وقد أخذت منهم هذه الحزبية مأخذها.

٣ ـ مجالس العزاء وما يتلى فيها من أحاديث غير صحيحة وما يصنع في المشهد المنسوب إلى زينب الصغرى المكناة بأم كلثوم في قرية راوية من ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات وبعض الأفعال المستنكرة، وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر استئصالها لا سيما أنّها ملبسة بلباس الدين فوجهنا اهتمامنا إلى إصلاح هذه الأمور الثلاثة، أمّا الأمر الأوّل وهو أمر التعليم فبذلنا غاية الإمكان في تعليم العربية لمن يمكن تعليمهم فصاروا بفضل ذلك أهلاً لأن يتكلموا في مجالس العلماء ويناظروا الفضلاء، وأخذنا درس فقهي في التبصرة كل ليلة بعد صلاة العشائين واتجهنا لإنشاء مدرسة لتعليم الناشئة، فأخذنا داراً عارية بدون أجرة ونقلنا إليها الكتاب الموجود في المحلة وجعلناها مدرسة باسم «المدرسة العلوية» وابتدأنا بإدخال العلوم الحديثة إليها بشكل ضعيف كما هو الشأن في ابتداء كل عمل، وكذلك استأجرنا داراً لتعليم البنات إلى جانب تعليم البنين».

ويتحدث الشيخ محمد رضا الشبيبي عن هذه التجربة الاصلاحية في مجال التعليم فيقول:

كان السيد محسن الأمين رحمه الله مجدداً في طريقته التعليمية، أنشأ مدارس عدة ناجحة للجنسين في دمشق، وقد تخرّج منها إلى الآن عدد غير قليل من رجال سوريا ولبنان وشبابه المثقف. ولاحظ ما يكابده شداة العلم من الغموض والتعقيد في كتب الدراسة القديمة المجرّدة في الفقه والأصول وفي غير ذلك من العلوم فتركها وشأنها، ووضع بنفسه وبمفرده كتب حديثة سهلة يعوّل عليها طلاب مدارس في دمشق وغيرها إلى اليوم.

ثار مرة أمامي على أحد الأساتذة الجامدين الذين يقدّسون طريقة القدامى ويحرصون على أن لا تمسّ وأن تبقى كتبهم على ما هي قائلاً: «لماذا نحذو حذو الأقدمين هم رجال ونحن رجال. وكان ذلك في سنة ١٩٢٠م في مجلسنا بدمشق الشام.

وقد عالج الحزبية الاجتماعية بالمساواة بين الناس وعدم التحيّز لفريق دون فريق، فوحّد أبناء الطائفة من خلال ذلك.

أمّا إصلاح إقامة العزاء لسيد الشهداء فقد عالجها بالحرب على الأحاديث المكذوبة من خلال نهي القرّاء على مثلها وتأليف الكتب الخالية منها، وقام بتأليف كتاب المجالس السنّية الذي يحتوي التجارب الرائدة في تهذيب المضمون الفكري للمنبر الحسيني.

ويحدثنا السيد الأمين عن الخلل الأخر في إقامة العزاء وهو جرح الرؤوس بالمدى والسيوف ولبس الأكفان وضرب الطبول والنفخ في البوقات وغير ذلك من الأعمال، وكان هذا محرماً بنص الشرع وحكم العقل فجرح الرؤوس إيذاء للنفس محرم عقلاً وشرعاً لا يترتب عليه فائدة دينية ولا دنيوية بل يترتب عليه ـ زيادة على أنّه إيذاء للنفس ـ الضرر الديني وهو إبراز شيعة أهل البيت بصورة الوحشية والسخرية وكل ذلك كلبس الأكفان وباقي الأعمال مزر بفاعله وبطائفته لا يرضاه الله ولا رسوله ولا أهل بيته فهو من عمل الشيطان وتسويل النفس الأمّارة بالسوء سواء سمّي بالمواكب الحسينية أم بإقامة الشعائر أم بأي اسم كان، فالأسماء لا تغيرّ حقائق الأشياء وعادات الطغام من العوام لا تكون دليلاً للأحكام. وكانت هذه الأعمال تعمل في المشهد المنسوب إلى السيدة زينب بقرب دمشق أحدثه بعض قناصل إيران ولم أحضره أبداً ونهيت عنه حتى بطل، وقد عملت في ذلك رسالة التنزيه، وقام لها بعض الناس وقعدوا وأبرقوا وأرعدوا وجاشوا وأزبدوا وهبّجوا طغام العوام والقشريين ممن ينسب إلى الدين فذهب ربدهم جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض.

وقد كان موقفه الإصلاحي في هذا الجانب في مواجهة هذا الخلل، دليلاً على شجاعته القيادية وصلابته في رأيه، وحكمته في التخطيط للإصلاح الديني في القضايا المتصلة بالمضمون الشرعي للمسألة في طبيعتها الفقهية الذاتية وبالصورة المشوّهة للواقع في إيحاءاتها السلبية وفي نتائجها السيئة.

وكانت المشكلة أنّ الكثيرين من العلماء الفقهاء كانوا ينظرون إلى القضية في جانبها الذاتي من خلال البحث الفقهي المجرّد في حرمة الضرر المطلق أو في اختصاص التحريم بالضرر البالغ الذي يؤدّي إلى التهلكة ولم ينظروا إليها من النتائج السلبية في تأثيرها على إشراقة الصورة للذكرى الحسينية، وفي دلالتها على عناصر التخلّف الفكري والعملي في وسائل التعبير عن الحزن لأنّنا نعلم أنّ لكل عصر وسائله التعبيرية في دلالاتها الإيحائية على المضمون الحقيقي للمأساة الحقيقية في التاريخ وفي الحاضر، فقد يصلح لعصر ما لا يصلح لعصر آخر باعتبار التنوع الذي تتطور فيه الأوضاع والوسائل في الوقت الذي نعرف فيه أنّ هذه الأمور لم تنطلق من توجيهات أئمة أهل البيت وعلمائهم، بل انطلقت من بعض المبادرات الشعبية في إيران التي التقت بالحالة العاطفية العامة، وتحوّلت إلى عادات متأصلة، وتقاليد ثابتة بحيث أصبحت من المقدسات الدينية التي قد يتهم معارضوها بالمروق عن الدين والبعد عن خط الولاء لأهل البيت.

ومن المؤسف أنّ هناك فريقاً من الناس لا يزال مصراً على هذه الوسائل والأساليب تحت عناوين

تعظيم الشعائر وتعميق الولاء، بالرغم من وضوح السلبيات الشرعية والاجتماعية التي تدخلها في دائرة المحرمات الأمر الذي قد يحتاج إلى صدمة جديدة تقضي على كل هذا الواقع.

وفي المسألة الثورية، نلاحظ موقفه المتمرد على الاستعمار الفرنسي في سوريا، ووقوفه أمام المخططات التي كان يحاول من خلالها تعميق الفرقة بين المسلمين، وتأكيد التمزق الطائفي في داخلهم من خلال التمييز بينهم في حركة الواقع السياسي ليعطي كل طائفة إسلامية موقعها ومجلسها الملي الذي يؤكد المصالح المذهبية الخاصة في مواجهة مصالح أهل المذهب الآخر، لتتعمق الفواصل، وتمتد الحساسيات الملتهبة التي تثير المشاكل وتدفع إلى الخلافات.

ويحدثنا السيد الأمين «رض» في مذكراته عن هذه المسألة فيقول:

أصدر الفرنسيون قانون الطوائف بما لا يوافق مصلحة المسلمين ويخالف نص الشرع الإسلامي فعارض في ذلك جملة من علماء دمشق وبالغوا في المعارضة فأوقف القانون وأصدر الفرنسيون بأنّ وقفه يشمل السنيين من المسلمين، فقدمت بذلك احتجاجاً للمفوضية الفرنسية باللغتين العربية والفرنسية قام الفرنسيون له وقعدوا ونشرته الصحف.

وهذا نصه:

إلى فخامة المفوض السامي في بيروت.

بواسطة المندوب العام في الجمهورية السورية

لقد سمعتم الاحتجاجات الصاخبة التي قام بها المسلمون عموماً في مشارق الأرض ومغاربها على القرار ذي الرقم ٦٠ المسمّى بقانون الطوائف وعلى تعديله ذي الرقم ١٦٤ الصادرين عن المفوضية العليا لأنّهما مناقضان مناقضة صريحة لتعاليم دينهم وأحكام شريعتهم التي نصّ على احترامها حتى صك الانتداب والذي سبب هذه الثورة الفكرية في البلاد.

ولم نكن نحن المسلمين الشيعيين بأقل استنكاراً لهذا القرار الذي يسيء إلى حرمة الأديان السماوية كافة لأنّنا من أشد أبناء الشريعة المحمدية تمسكاً بتقاليدها وحرصاً على تعاليمها ولذلك استغربنا أشد الاستغراب ما جاء في خطاب فخامتكم في الراديو من تفريقكم بين طوائف المسلمين، هذا التفريق الذي ينكره المسلمون أجمع ونستغرب قصركم توقيف مفعول القرار **على الطائفة السنية** وحدها واستثناؤكم بقية المسلمين من ذلك.

فأنا بصفتي الرئيس الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في سورية ولبنان أرجو فخامتكم أن تحيطوا علماً باستنكار المسلمين الشيعيين عامة لهذا القرار ولهذه التفرقة المصطنعة بين المسلمين.

وعزم الفرنسيون على إحداث منصب رئيس علماء للشيعة في سورية ولبنان معاً وقرروا تعييني لهذا المنصب وأصدروا به مرسوماً اعتقاداً منهم بأنّني أقبله بكل امتنان فالناس تتوسط للحصول عليه

فكيف بمن يأتيه، فقلت للرسول الذي جاء بالكتاب **قل لصاحبه**: إنّ هذا الأمر لا أسير إليه بقدم ولا أخط فيه بقلم ولا أنطق فيه بفم وقلت للوفاد:

أيها السائل عنهم وعنّي لست من قيس ولا قيس مني

فعادوا أدراجهم، وبلغ ذلك الفرنسيين فأرسل لي من بيده شؤون الأوقاف والأمور الدينية سكرتيره يقنعني بالقبول ويرغبني بأنّه سيكون لي أمر الأوقاف وغيرها فأبيت وجاءني إلى دمشق اثنان من زعماء الطائفة في لبنان يدعوانني إلى القبول ويقولان: المسألة تحتاج إلى شيء من التضحية فقلت لهما: لا يصعب على المرء أن يضحّي بدمه في سبيل المصلحة العامة ولكنه لا يضحي بكرامته.

وقد نقل عنه أنّه قال لمندوب الموظف السامي: إنّني موظف عند الله فلا يمكن أن أكون موظفاً لدى المندوب السامي.

وقد أكّد هذا الخط الوحدوي في الواقع السياسي الإسلامي عندما أصدرت الحكومة السورية في عهد الاستقلال قراراً في الانتخابات النيابية بأنّ للمسلمين السنيين كذا من المقاعد في المجالس النيابية ولسائر الطوائف كذا وللأقليات كذا، وبموجب ذلك دخلت الشيعة في الأقليات، فقدمت للحكومة كتاباً بأنّ الشيعة تعتبر المسلمين طائفة واحدة لا فرق بين سنيهم وشيعيهم، وأنّ هذه المقاعد المعينة للمسلمين في جميع أنحاء الدولة السورية هي للسنّيين والشيعيّين على السواء.

وهذا هو ما كان يشيره على مستوى التوجيه الديني العام في الواقع الشعبي، فقد نقل الدكتور مصطفى السباعي عنه أنّ شخصاً جاء إليه لينتقل من المذهب السنّي إلى المذهب الشيعي، فعرّفه بأنّه لا فرق بين السنّة والشيعة، في العنوان الإسلامي وعندما أصرّ هذا الرجل قال له السيد الأمين، قل: **أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً** رسول الله فقالها الرجل، فقال له لقد أصبحت شيعياً. لقد أدرك السيد **الأمين«رض» أن الوحدة** الإسلامية هي من الممنوعات الاستعمارية التي يحرص الاستكبار العالمي على الوقوف ضدها في الواقع الإسلامي للإبقاء على حالة التمزق المذهبي الذي ينفذ من خلال ثغراته الكثيرة للسيطرة على كل مواقع المسلمين الاجتماعية والثقافية والأمنية والسياسية والاقتصادية.

لذلك وقف أمام المشروع الطائفي الاستعماري بكل قوّة، وتابع الموقف الصلب حتى بعد الاستقلال على المستوى الرسمي والشعبي معاً.

وبذلك كان ثورة على الطائفية في الوقت الذي كان لا يمانع من بحث القضايا المذهبية بذهنية علمية موضوعية، وبروح إسلامية واعية، لأنّ هناك فرقاً بين الحوار العلمي، والاستغلال السياسي، أو التحرّك الغوغائي لأنّ الحوار يؤدّي إلى التفاهم وينتهي إلى الوحدة، بينما ينطلق الاستقلال والغوغائية إلى المزيد من البعد والاختلاف.

وينقل لنا **السيد الأمين«رض»** موقفه الثوري القوي من الاستعمار الفرنسي في مسألة الخلاف الذي

دار بين شركة الجر والتنوير الفرنسية وبين الأهالي في دمشق فدعا إلى مقاطعتها للتخلّص من احتكارها الظالم المتعسف، وقد أدّى ذلك إلى الإضراب الخمسيني المشهور في سورية الذي اضطر معه الكونت دي مارتيل المفوض السامي الفرنسي إلى النزول على رأي الوطنيين.

ويتحدث السيد (قدس سره) عن هذه القضية فيقول:

كان عندي ليلة فريق من الكتلة الوطنية فقلت: فما بالنا لا نقاطع هذه الشركة الأجنبية لقد أماتت الدولة العثمانية عواطف الشهامة والشمم في كبرائنا فكان الوالي إذا جاء إلى هذه البلدة ومرّ بأحد الأكابر وسلّم عليه يأتي إلى أصحابه فيقول لهم مفتخراً الوالي اليوم ضرب لي تمنّي، وأغنياؤ نا وكبراؤ نا اليوم دخلهم الشهري مئات الليرات الذهبية فإذا دفعوا منها في الشهر عشر ليرات سورية لا يرونها شيئاً فيدخلون الدار ليلاً ويجلسون على الأسرّة والأرائك ويفتلون زر الكهرباء فتضيء الدار كلّها كأنهم في النهار ويرون ذلك هو اللذة والسعادة ولا يبالون بتحكم شركة الكهرباء الأجنبية لهم في ذلك لأنها قد ماتت منهم عاطفة الشمم والإباء ولو كان فيهم شمم وإباء لآثروا «النواصة»، على ضياء الكهرباء ولم يرضوا بأن تتحكم بهم هذه الشركة الأجنبية بل يجب أن نسير من هذا الأمر إلى ثورة على الفرنسيين فقال لي بعض الجالسين لو ألقيت هذا الكلام في مجتمع من الناس قلت أنا ما تعوّدت أن ألقي كلاماً في المجتمعات ولكن أنتم بلغوه عني وفي اليوم الثاني قاطع الناس الشركة مقاطعة تامة وأحرقوا بعض عرباتها ولم يعد يركب فيها أحد، ثم تحوّل الأمر إلى قيام عام على الانتداب الفرنسي.

ويذكر بعض معاصريه الأستاذ أديب الصفدي رئيس تحرير جريدة الشعب الدمشقية. بعض تفاصيل حديثه يقول:

وتكلّم عن التضامن الوطني وأثره في تكوين مزاج الأمم ونفسياتها، وفعله في نهضتها وبلوغها حقوقها، وروى لنا سماحته المثل التالي:

جعلت شركة إنكليزية أيام الشاه ناصر الدين على امتياز بحصر الدخان بشروط مجحفة وشاع بين الجمهور، أنّ أحد كبار مجتهدي الشيعة الإيرانيين، تكلّم في وجوب الامتناع عن التدخين، وأنّ رجلاً من كبار المجرمين، سمع بفتوى المجتهد الإيراني الكبير وكان جالساً في مقهى عام ليدخن نرجيلة، فما وسعه إلّا أن كسر النرجيلة وأقسم أن لا يشرب الدخان أبداً، وأنّ الشاه أمر أحد خدمه بإحضار نرجيلة فذهب ولم يعد فكرر الطلب فلم يعد الخادم بهذا أيضاً وأعاد الكرّة بطلب النرجيلة، ولكن الخادم لم يستطع إحضارها وسأله الشاه عن أسباب تأخّره عن الصدوع بأمره، فأخبره أنّنا نستوحي من هذه القصية عدة نقاط.

النقطة الأولى: إنّ السيد محسن الأمين لم يكن شخصية علمية إصلاحية بعيدة عن الواقع السياسي الثوري، بل كان يتحرك في قلب الحالة الثورية من دون اعتبار للأخطار المترتبة على ذلك.

النقطة الثانية : إنّ الكتلة الوطنية كانت ترى في السيد الأمين شخصية قيادية على مستوى الحركة الثورية السياسية، **إلى جانب كونه** شخصية علمية دينية متعددة الأبعاد، ولذلك كانت استجابتها لدعوته الثورية في العصيان المدني حتى التحرير.

النقطة الثالثة : إنّ القياديين المسلمين على مستوى الشخصيات الدينية أو الحركة الإسلامية، لا تحصر نشاطها السياسي الثوري في الخط التغيير ي الاستراتيجي على مستوى الوصول إلى الحكم الإسلامي، **بل قد تحرك نشاطها في الخط المرحلي التغيير ي على**مستوى قضية تحرير البلد من الاستعمار ومن سيطرة الاستكبار العالمي، لتدخل في تنسيق أو تحالف مع الحركات غير الإسلامية التي تلتقي معها في الهدف المرحلي الكبير.

وهذا ما عاشه السيد الأمين ـ وهو من الفقهاء الإسلاميين الكبار ـ عندما انطلق مع الكتلة الوطنية التي كانت تتحرك على أساس وطني، لا إسلامي حركي، فلم يجد مانعاً شرعياً من التخطيط للتحرير معهم والانطلاق نحو الجبهة الوطنية الواسعة.

وبذلك نستطيع اعتبار السيد محسن الأمين الشخصية الإسلامية الكبر ى التي كان لها الدور **الفاعل في التخطيط** للتحرير وفي التنفيذ العملي لذلك مما يجعله من أبطال الاستقلال. فهو لم يجلس في الظل، بل كان في الواجهة التي تواجه كل التحديات، وتطلقها في وجه الاستكبار.

وفي الختام لا يسعنا إلاّ أن نطل ـ مع الجانب السياسي في شخصية السيد الأمين ـ على موقفه من أن سيدات البلاط كسرن سائر النراجيل، ولم تبق واحدة منها في القصر، وأنّ إجماع الإيرانيين على ترك التدخين اضطر الشركة الإنكليزية هي نفسها إلى إلغاء الامتياز.

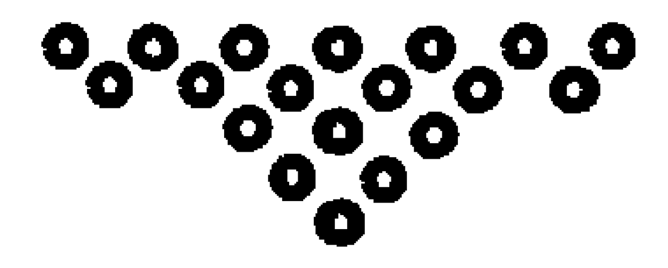
وقد تحدث هذا الصحفي عن بعض الأسرار في الحديث التي لا يمكن كشفها، وذكر المعلق على كتاب أعيان الشيعة هذا السر وهو دعوة السيد إلى مقاطعة هذه الشركة وإلى أن تنقلب هذه المقاطعة إلى ثورة عامة ضد الفرنسيين فنظمت المقاطعة في تلك الجلسة ثم انقلب الأمر إلى ثورة شاملة فأضربت سوريا إضرابها الخمسيني المشهور الذي اضطر الفرنسيين إلى النزول على حكم الأمّة الثائرة.

ويذكر محمد جميل البارودي أنّ السيد قال في معرض حديثه إنّني أدعوإلى أكثر من ذلك، أدعو إلى أن نتخذ من المقاطعة باباً إلى العصيان المدني على الفرنسيين فلا ينتهي هذا العصيان إلاّ بتحقيق مطالبنا الاستقلالية، وأن يكون هذا العصيان بأن تضرب البلاد السورية كلها إضراباً عاماً شاملاً وأن لا ننهي هذا الإضراب إلاّ بنزول فرنسا على حكمنا بتحقيق الاستقلال، وإنّني أقول لكم بأنّنا نحن في هذا الحي «حي الأمين» سنعلن الإضراب لا غداً لأنّ الغد سنجعل منه يوماً لإعداد هذا الإضراب، بل بعد غد وإنّنا سنستمر في هذا الإضراب يومين متتابعين فإذا رأينا المدينة قد استجابت للاضراب الجماعي تابعنا معها الإضراب وإلاّ فإنّه يكون لنا عذرنا في إيقاف الإضراب لأنّ إضرابنا وحدنا لا يجدي شيئاً.

فلقيت هذه الفكـرة تجاوبـاً حماسيـاً من جميـع الحـاضـرين، وتحـوّلت الزيارة إلى اجتماع تنظيمي للإضراب، وتذاكر زعماء الأحياء الحاضرون في كيفية تعميم الدعوة وقرّروا الاتصال بغيرهم من رجال الأحيـاء ليكـون القـرار إجماعياً، وانقضت الجلسة في منزل السيد محسن الأمين عن قرار ثوري خطير هو إعـلان العصيـان المـدني، ثم أصبحت دمشق في اليـوم الثاني من تلك الليلة مضربة كلها إضراباً عاماً لم يشـذ عنـه أحـد، ثم توجهت رسـل إلى المـدن الأخـرى تدعـو لتعميم الإضراب فلم ينتهِ الأسبوع إلّا وسوريا كلها مضربة ليس فيها متجر كبير أو صغير فاتح أبوابه.

أمّا بالنسبة للقضية الفلسطينية، فقد وجّه نداء للعالم الإسلامي يحذره فيه من الأخطار المحدقة به من خلال الـوجـود الصهيـوني، ويدعوه إلى مساعدة الشعب الفلسطيني ومساندته للوقوف في وجه هذا العدو الوحشي المتعدد الأطماع.

لقـد كان السيـد الأمـين شخصيـة إسـلامية علمية متعددة الأبعاد، مما يجعله نموذجاً حيّاً للجيل الإسـلامي المنفتـح على كل قضـايـا الـواقـع، وأوضـاع التحدّي في الخط الإسلامي الذي يلتقي بكل الخطوط المتحركة في طريق الحرية والعدالة في كل زمان ومكان.



بعض ذكرياتي مع والدي

* السيد حسن الأمين
نجل العلامة السيد محسن الأمين

بسم الله الرحمن الرحيم

إنني إذ أحيي رجل العلم والعمل والإخلاص الشيخ محمد شريعتي وأشكره على جميل ماقام به من إحياء هذه الذكرى الأربعينية. إنني إذ أحييه وأشكره لاأفعل ذلك من أجل مافي عمله هذا من تكريم رجل واحد من رجال الإسلام، بل لما في مدلول عمله هذا من ترابط الشعوب الإسلامية على اختلاف مواطنها، وتباعد منازلها.

فالمستشارية الثقافية الإسلامية الإيرانية تعيد لنا باحتفالها هذا تاريخاً إسلامياً كان المسلمون فيه يرون أنهم أمة واحدة يعمل رجالها أينما حلوا على رفعة الإسلام وإعلاء شأنه، تشدهم بعضهم إلى بعض روابط من الإيمان والعلم والكفاح.

ولعل من أحسن الصدف وأكرمها أن يكون هذا الإحتفال مقاماً في دمشق مدينة الإسلام الكبرى، فهو بذلك يجلو لنا صورة من الماضي وبثقة الصلة بالحاضر.

إذا كانت المستشارية الثقافية الإسلامية الإيرانية تحتفل بذكرى الرجل الذي كانت دمشق مسكنه

وميدان عمله العلمي والنضالي، وفيها مكتبته ومدرسته ومسجده، فإنها تكرر اليوم ما قام به أسلافها منذ ما يقرب من تسعة قرون في تكريم رجل كانت دمشق موطنه وميدان عمله العلمي وفيها مكتبته ومدرسته ومسجده.

إن الشيخ محمد شريعتي حين دعا إلى هذا الحفل التذكاري لا باسمه الشخصي بل باسم من يمثل إنما كان يعطينا الصورة الواضحة المشرقة عن ماض إيراني مشرق متتابع الحلقات، متصل السمات في تكريم العلم والعلماء. . ومن أبهج المصادفات وأسمى المناسبات أن يكون لنا مثالان محورهما دمشق نفسها.

إن إيران التي تكرم اليوم ذكرى الرجل الشامي الذي كان العلم عمله والكتاب سميره والقلم جليسه. قد كرمت قبل ما يقرب من تسعمائة سنة رجلاً شامياً كان العلم عمله والكتاب سميره والقلم جليسه.

وإذا كانت إيران تكرم اليوم ذكرى الرجل الشامي المعاصر السيد محسن الأمين وتكرمه في دمشق الشام نفسها فقد كرمت بالأمس البعيد الرجل الشامي التاريخي في إيران نفسها.

إن علي بن الحسن بن هبة الله الذي اشتهر باسم (ابن عساكر) ابن دمشق وربيبها، ثم عالمها ومحدثها ومؤرخها، إن ابن عساكر - كعادة علمائنا الأقدمين - لم يقنع بطلب العلم في وطنه، بل كان كغيره من العلماء الذين أخلصوا للعلم ونذروا نفوسهم له، فعانوا في سبيل تحصيله ونشره ما عانوا، لقد طافوا في الأرض سعياً وراءه، ومشوا من أقصى مكان إلى أقصى مكان لأخذ حديث من محدث وتناول رواية من راو.

هكذا كان شأن ابن عساكر. لقد ترك دمشق متنقلاً من بلاد إلى بلاد طلباً للعلم ولقاء العلماء، فمضى إلى خراسان عن طريق آذربايجان ماراً بخوي وتبريز ومرند وزنجان وأبهر. وفي كل هذه المدن كان يلقى التكريم والتعظيم.

وفي رحلة لي إلى إيران منذ سنين مررت بإحدى المدن التي أقام بها ابن عساكر، واجتزت مدينة أبهر التي نص المؤرخون على أنه سمع فيها الحديث وسمع الشعر.

واسمحوا لي هنا أن أتلوا عليكم فقرة صغيرة من مذكراتي التي كتبتها عند مروري بمدينة (أبهر):

هذه أبهر بين أيدينا، ولعل هذا المنزل أو ذاك هو الذي آوى إليه ابن عساكر، ولعله تحت هذا السقف أو بين هاتيك الجدران سمع الحديث، ولعل هذه الحجرة أو تلك هي التي سهر فيها الليل مشدوداً إلى كتبه، منكباً على قراطيسه، ولعل هذه النافذة أو تلك هي التي سرى منها صوت ما استنشده من الشعر.

من دمشق ومن بساتين غوطتها المتألقة بأزهار المشمش، من هناك إلى هنا إلى أبهر، وبساتينها المشعة بأزهار اللوز والفستق، كم من أطياف تموج في الضمير وتمور في الخاطر، هذه الأطياف التي حركها تذكر ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق الكبير، وهو يحط رحله على باب من هذه الأبواب.

ومضت بنا السيارة لا تلوي على شيء، وهاجني الحنين إلى الماضي البعيد أولاً، إلى تلك العهود، عهود علمائنا وهم يجوبون وطنهم الإسلامي الكبير، فينزلون أينما نزلوا على دور يرون أنها دورهم، وعلى أهل يرون أنهم أهلهم.

ثم الحنين إلى دمشق وإلى السكك التي طالما جلست فيها طفلاً ويافعاً، والتي تذكرني بها الساعة سكك مدينة أبهر، وكم وددت لو جلست فيها ومشيت حيث مشى ابن عساكر، في الدروب الضيقة والأزقة المتكاثفة فانبعث من ذكراه جلداً على الصعاب، قوياً على الشدائد.

لقد كرمت إيران بالأمس البعيد ابن عساكر وتكرم اليوم ذكرى السيد محسن الأمين، وبذلك تعرب إيران عن حقيقتها الإسلامية الناصعة التي ترى في المذاهب الإسلامية مجرد إجتهادات تسوغ اختلافاً ولا تسبب شقاقاً، بل تكون باستمدادها كلها من منابع الإسلام وتعاليم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) مجالاً للتعاون على البر والتعاضد على الخير، والسير بالإسلام قدماً في معارج السمو والرفعة.

وإذا كان لابد لي من الإشارة إلى بعض ذكرياتي مع والدي، فإنني سأكتفي بذكر أجل تلك الذكريات وأعلقها بنفسي وأبعدها أثراً في الحياة العامة وفي حياتي الخاصة معاً.

تلك الذكرى التي أستطيع أن أقول أنها غيرت مجرى مستقبل أيامي بعده وحددت لي الطريق الذي يجب أن أسير عليه فلا أعدوه.

ثم إنها ربطت اسمي باسمه برباط لا ينفصم، فلا يذكر إلا وأذكر معه، ولا يشار إليه إلا وتشملني تلك الإشارة.

وكان هذا من نعم الله التي لا تعلوها نعمة.

في مرضه الذي توفي به وفي أيامه الأخيرة، وعلى التحديد قبل أسبوعين من وفاته، دخل عليه أحد أصحابه ممن كانوا يعنون بموسوعته (أعيان الشيعة)، وكانوا يتابعونها فصلاً بعد فصل.

فلما رآه الوالد ـ وكان مسجى على الفراش ـ ذرفت عيناه وبكى، فراح الرجل يهون عليه ويسليه. ولكن كان هو في شاغل عن هذا التهوين وهذه التسلية، كان تفكيره فيما هو أبعد مما ظن الرجل.

فلما مضى الرجل، طلب إليّ أن أحضر له قلماً وورقة، وكان الطبيب قد نهاه نهياً قطعياً عن كل قراءة وكتابة. فتلطفت كل التلطف في عدم تلبية طلبه، فتضجر تضجراً لا أنساه أبداً.

فأخذني آخذ من الرقة والحنان لا يقاوم، فأسرعت إليه بما طلب، وتركته وحده ومضيت خارج الغرفة، ثم عدت إليه بعد حوالي الساعة، تاركاً له خلالها التفكير وحده فيما يريد أن يسجله.

فلما دخلت عليه ناولني الورقة وقد كتب فيها هذه الأبيات من الشعر:

بكيت وما بكيت لفقد دنيا ... أفارقها ولا خل أليف

ولكني بكيت على كتاب ... تصنفه يداي إلى صنوف

سيمضي بعد فقداني ضياعاً ... كما يمضي شتاء بالخريف

فلما قرأتها عدت إليه وقلت له: أسأل الله أن تكمل أنت كتابك بنفسك، ولكن إذا جاء أمر الله الذي لا راد له، فإني أعاهدك بأن كتابك لن يمضي ضياعاً، وسأقف حياتي كلها عليه.

ووفيت له بما عاهدته...

فإلى إيران الإسلام، إيران الثورة الإسلامية، إيران جمهورية المسلمين، إيران بشخص ممثلها حجة الإسلام الشيخ محمد حسن الأختري، المجاهد في سبيل رفعة الإسلام والمسلمين وإعلاء شأنه، وبشخص حامل لوائها الثقافي حجة الإسلام الشيخ محمد شريعتي. وإلى دمشق التي احتضنت السيد محسن الأمين وكرمته حياً وميتاً، وإلى مجمع اللغة العربية وإلى دمشق قلب العروبة الخفاق ومنارة الإسلام المشعة، إلى إيران وإلى دمشق وإليكم يامن شاركتم بحضوركم في إحياء هذه الذكرى أتوجه بأزكى التحية وخالص الشكر.





برنامج اليوم الثاني لمؤتمر دراسة أفكار
العلامة السيد محسن الأمين العاملي

* ـ القرآن الكريم.
* ـ «دلالات سيرة في زمن من أزمنة النهضة»
  الدكتور وجيه كوثراني

* ـ «السيد محسن الأمين من خلال شعره»
  الشيخ عباس قاسم شرف

* ـ «السيد محسن الأمين نموذج إصلاحي مسلم»
  الأستاذ محمد علي شمس الدين

* ـ «الجانب الاجتماعي للعلامة السيد الأمين العاملي»
  الدكتور شفيق نظام

* ـ «الجانب الأدبي عند العلامة الأمين»

الدكتور عاطـف عـواد

* ـ «السيد محسن الأمين» مصلح كبير ومجاهد وطني وإسلامي عظيم

الدكتور حسن أبو عليوي

* ـ استراحة وصلاة

* ـ «الجانب الإصلاحي للعلامة السيد محسن الأمين العاملي»

الدكتور عبد المجيد زراقط

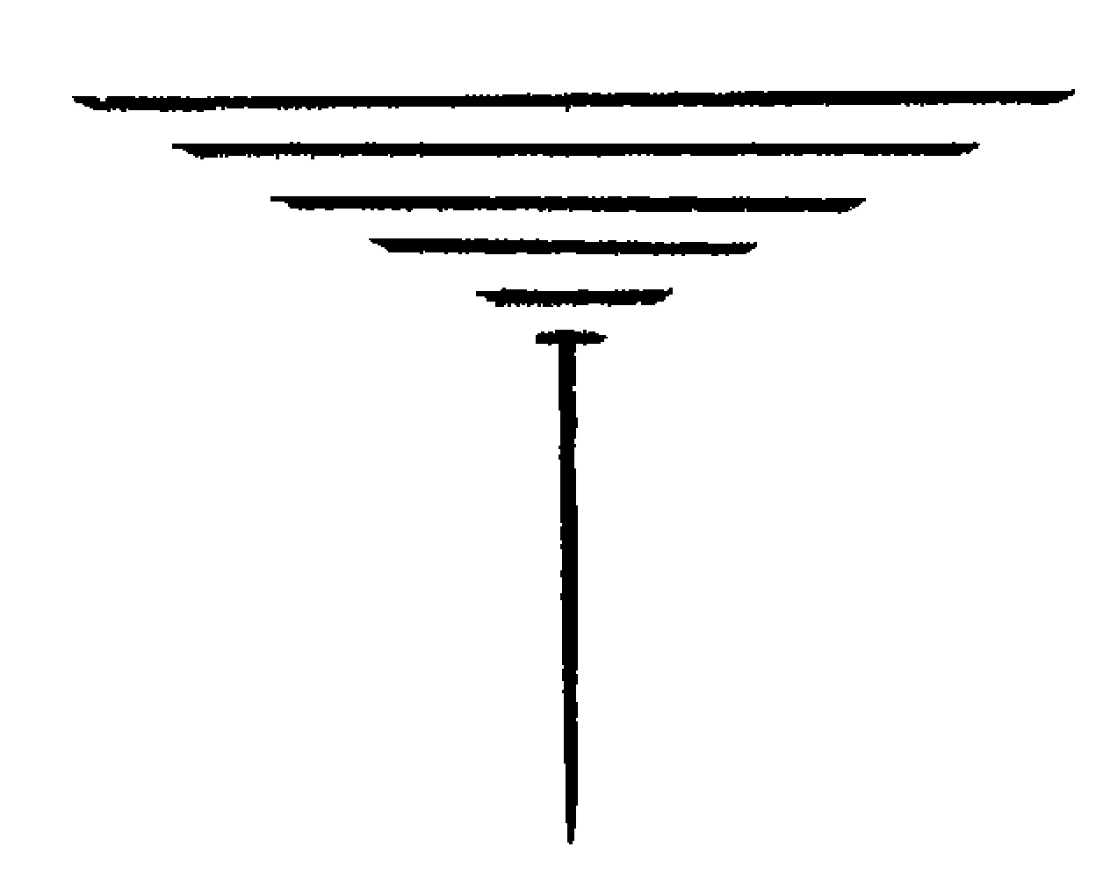
* ـ «موقع السيد الأمين في مجرى الحركة الإسلامية السياسية الحديثة»

الدكتور حسن جابر

* ـ «كلمة الختام»

حجة الإسلام الشيخ محمد حسن أختري

سفير الجمهورية الإسلامية بدمشق



السيد محسن الأمين
دلالات سيرة في زمن من أزمنة النهضة

******************** الدكتور وجيه كوثراني

بسم الله الرحمن الرحيم

لعلَّ السؤال الذي يلح على كل باحث، هو ماذا نفيد من العودة إلى الماضي، سواء أكان الماضي بعيداً أو قريباً، بل ماذا نفيد من التأمل في سيرة مضت وتفحص وجوه أصبحت في ذمة التاريخ؟

كثيراً ما يبدي بعض الواثقين بالنفس وثوقاً لا يخالجه شك، أو بعض المطمئنين إلى إحاطتهم العلمية الكونية اطمئناناً لا يشوبه قلق، إلى القول بأن هذه العودة هي جزء من «فكر ماضوي»، وبأن الكلام عن السيرة الشخصية للرموز والأبطال والعلماء القدامى هو منهج ينافي قوانين التاريخ وسيرورته.

وغاب عن هذا النقد، ان الفعل الإرادي الإنساني هو عنصر أساسي من عناصر السيرورة التاريخية.

وبأن التواصل بين الأفكار والأجيال والمراحل هو قناة التراكم المعرفي والمنهجي والمسلكي، وبأن هذا التراكم هو شرط التقدم والنهوض الفعلي. ولعل أحد أسباب الأزمة التي تعانيها النهضة العربية والإسلامية - من حيث مراوحتها في المكان نفسه أو انتقالها من هزيمة إلى أخرى، هو في غياب التواصل ما بين المراحل وغياب الإستفادة المتبادلة بين مواقع الأفكار ومناهجها وأزمنتها. فكأن كل مرحلة تنفي سابقتها - وكأن كل فكر أو منهج ينفي الآخر، فلا يعيش اختلاف في زمن واحد. إنه الدوغمانية - أو العصبية الفكرية، الصفة المشتركة لكل الإيدولوجيات التي تطرح نفسها فرقاً وأحزاباً سواء أكانت هذه الفرق ذات خلفية إيدولوجية وضعية أو خلفية إيدولوجية دينية...

ففي كل الحالات يبرز النفي منهجاً واحداً ومشتركاً لدى كل الأطراف التي تحوّل الفكر إلى حزبية مغلقة. يبرز النفي عند البعض بصيغة التجهيل والتسفيه والتعالم، ويبرز عند البعض الآخر بصيغة التكفير والتنسيق والتأثيم. وبين هذا وذاك ينعدم التواصل الفكري لا بين المعاصرين المتقاتلين في المنهج، وإنما أيضاً بين الماضي والحاضر. إذ يبني الماضي صورة مبررة للحاضر، فتختفي صور وتبرز صور أخرى. تبرز الصور ذات الوظيفة السياسية في المشروع السلطوي الراهن - وتختفي الصور التي لا تفيد هذا المشروع أو التي قد تناقضه.

وبالرغم من هذا الخناق والتساجل تبقى بعض النوافذ مشرّعة على الماضي يطل الواحد منها على مجالات رحبة من التفكير الحر والمناهج المستقلة في الرؤية والعمل، كما يتعرّف من خلالها على مراجع قدمت في سيرتها وفكرها ومن خلال تعاطيها مع الأحداث والوقائع معان تستوقف دلالاتها التي يمكن أن تشكل عنصراً مهماً من عناصر التراكم المعرفي الذي نحتاج إليه من أجل تعميق التواصل، كما نحتاج إليه من أجل التعرف على معالم الإتجاهات والمدارس التي انتظم فيها مفكرون وفقهاء كبار.

ولا شك أن العلامة المجتهد السيد محسن الأمين هو من المراجع التي انتظمت وساهمت في رسم معالم مدرسة فكرية من مدارس عصر التجديد والنهضة في تاريخ العرب والمسلمين. هذه المدرسة نقرأ تجلياتها في مركزين إسلاميين كبيرين هما الأزهر والنجف. في الأزهر نقرأ تجلياتها مع الشيخ محمد عبده ومدرسته الإصلاحية الكبرى، وفي النجف مع سلسلة من الفقهاء، الذين نتعرف على أسمائهم في زمن انتفاضة التبتاك والثورة الدستورية في إيران، ثم الإنتفاضة الشعبية في العراق أمثال حسن الشيرازي، وكاظم الخراساني، وحسين النائيني وآخرين...

والسيد الأمين علم من أعلام هذه المدرسة التي ربطت عملية الإجتهاد بالإصلاح ورأت الإجتهاد الموصل إلى الإصلاح حالة من حالات الجهاد والفريضة.

وإذ نستحضر اليوم بعضاً من معالم هذه السيرة، فإنما نستحضرها من ضمن المنهج الذي نلح عليه، وهو منهج التواصل الفكري الذي لا يقف عند مرحلة مقدساً ومحتطاً، ولا يقفز عنها ملغياً

ومـزدريـاً، بل يتعـامـل معها ومع رموزها وأعلامها تعاملاً تاريخياً علمياً يقوم على الفهم واحترام الرأي وتفسير خصوصيته.

ولا بد ـ وأنـا أشـير إلى أهميـة الـدراسـة التـارخيـة وفـائدتها ـ أن أنوه بدراستين قدمتا بإشرافي في الجـامعـة اللبنـانية في قسم الدراسات العليا عن فكر السيد الأمين هما: دراسة الشاعر محمد علي شمس الدين حول فكر الإصلاح عند السيد الأمين، ودراسة السيدة سميرة حسون حول فكره التربوي. كما أنـه يسعـدني أن أنـوه ـ بالمنـاسبـة ـ بفضـل العـلامـة الأستـاذ حسن الأمـين، في ترشيده وخدماته لهذه الدراسات ولغيرها في مجال البحث العلمي.

وإذ خرجت بانطبـاع مفـاده أن دراسـة أكـاديمية لا تستطيع وحدها، الإحاطة بجميع المجالات التي اهتم بها السيـد في كتـابـاتـه الغـزيرة ـ والتي توزَّعت على قطاعات واسعة من المعرفة من فقه وعلم أصول وتاريخ وأدب واجتماع، فإني أتساءل اليوم: ماذا يمكن أن أقدم عن هذا الفقيه والمفكر في مداخلة كهذه؟

لعل وقفة تأملية في بعض مواقف السيد وأقواله تساعد الباحث على استخلاص وجهة في المنهج، ومـوقـع في الإتجـاهـات الفكـريـة، في زمن شهـد استجـابـات شتى للتحـديات التي عصفت في العالم الإسلامي آنذاك، وتحديداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فالسيد هو شاهد قرن من الزمن تقريباً، قرن توزع على قرنين حاسمين في تاريخ العالم.

ولعـل استخـلاص وجهـة السيـد في منهجـه واستبيـان موقعـه في اتجاهات عصر النهضة العربية والإسلامية ـ يتطلبان دراسة مستفيضة لنصِّه ومواقفه ومع هذا فإن نظرة تأملية ـ كما أشرنا ـ في أهم معالم سيرته تقودنا إلى دلالات غنية في حقول المنهج الفقهي، والعمل السياسي، والعمل التربوي والعلمي.

ولعله جاز لنا أن نوزع هذه الدلالات في حقول ثلاثة، لا تزال هي الحقول نفسها التي يحرث فيها الفكر والعمل الإسلاميان حتى اليوم.

١ ـ حقل الوحدة الإسلامية: فنسائل أنفسنا عن موقف السيد ومفهومه ـ كفقيه للوحدة الإسلامية؟

٢ ـ حقل العلاقة بين الدين والسياسة: أن نتساءل عن رؤيته لحدود هذه العلاقة وحجمها ـ وعن طبيعة العلاقة بين الفقيه والسلطان.

٣ ـ حقـل الـتربيـة والعلم والـدين، والسؤال: كيف طالب السيـد بدخول زمن المعاصرة مع التصدي للسياسة الإستعمارية وتجديد الثقافة الإسلامية في آن واحد.

١ـ الموقف الوحدوي أو مفهومه ـ كفقيه ـ للوحدة الإسلامية

كان للفقه في مراحل معينة من التاريخ الإسلامي، دور أساسي في الوحدة المسلكية والإجتماعية والنفسية لدى المسلمين. كان ذلك أيام كان الفقه علماً مرتكزاً إلى الإجتهاد، حيث يبر ز أمام مجتهد ـ كبير في علمه ومسلكه وعدله، فينشأ مذهب له أتباع ومقلدون. أما حينما وقعت المذهبية الفقهية في شباك التوظيف السياسي للسلطة، فإن قطاعاً واسعاً من الفقه والفقهاء، ساهم من حيث يدري أو لا يدري، في عملية التجزئة السياسية التي أصابت المسلمين وفقاً لخطوط نشأة السلطنات وحاجة هذه الأخيرة لتبر ير شرعيتها.

ولم يعدم التاريخ بروز فقهاء ساروا على الخط الأول في فهمهم للفقه علماً منفتحاً وللمذهب على أنه اختيار حر وتقليد واع، لا على أنه مذهب مغلق وتقليد إلزامي، فحافظوا على استقلالية الدين من أن يتحول إلى مجرد إيديولوجية للدولة السلطانية أو لأقلية مذهبية، فاستحقوا عبر ذلك الجهد العلمي وتلك الإستقلالية المسلكية الجهادية أن يصبحوا مراجع تقليد، أو ضمائر تختزن آلام الجماعة وآمالها.

وهؤلاء المراجع ـ تعاملوا مع المذاهب الفقهية على أنها اجتهادات فقهية، فإن انتمى أحدهم إلى مذهب ـ فإنه ما كان ليطلب التقليد من عامة المسلمين لنفسه أو لمذهبه. نعرف من هؤلاء زين الدين بن علي المعروف بالشهيد الثاني (توفي ٩٦٥هـ / ١٥٥٨م) ومعروف عن هذا الأخير أنه كان يدرِّس في المدرسة النورية في بعلبك الفقه على المذاهب الخمسة، وأنه كان يبني منزله ويعتني بكرمه ويحتطب ويعيش من تدريسه. هذا النموذج الفقهي يتردد في أدبيات السيد محسن الأمين، يتردد كخبر تاريخي في «الأعيان»، «والخطط»، ويتردد كنموذج حي في سيرة السيد ومواقفه.

وخبر الرجل الذي قصد السيد بداعي إعلان تشيعه معروف. وخلاصته أن رجلاً جاء وقال له أريد أن أكون جعفرياً. وبعد أن بيَّن له (السيد) عدم الفرق بين السني والشيعي فلم يقتنع، قال له: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقالها، فقال له: أصبحت جعفرياً.

ولا شك أن خلفية هذا الموقف لدى السيد هي في نظرته الشمولية والمنفتحة إلى الدين الإسلامي التي ترى أن إمامة الأئمة الإثني عشر ليست من ضروريات الدين ـ بل من ضروريات المذهب.

ومن أقواله المشهورة في هذا المجال «لم نزل نتخاصم على شرعية الخليفة حتى صار المندوب السامي الفرنسي خليفتنا».

ولعل هذا القول ـ الموقف يختزن من المعاني والدلالات على مستوى علم الكلام والعقائد والسياسة والتاريخ، ما يعبر عن حقيقة تطمح أن تتجاوز الذاكرة التاريخية الإسلامية الإنقسامية، لتوحدها في الحاضر، وانطلاقاً من تحديات يطرحها على المسلمين الزمن الإستعماري الذي أصبحت فيه انقسامات الماضي في الذاكرة والتراث والمعاش ظواهر معيقة، لحركة النهوض والوحدة.

فالسيد كان يعي خطورة الانقسامات الطائفية والمذهبية ـ وكان يعي ويفطن لأساليب السياسة الإستعمارية التي لجأت إلى الذاكرة التاريخية السلبية عند المسلمين تحييها، وتثير كوامن الصراع فيها من خلال التلويح بجاذبية السلطة والدفع للتنافس على اكتساب مواقعها هنا وهناك.

وما يرويه السيد محسن الأمين عن «بعض ما جرى (له) مع الفرنسيين» في سيرته، يقدم مثالاً لمرجعية دينية تعي تماماً دورها في التصدي لمثل تلك الأساليب. ولعله من المفيد أن نترك السيد يحدثنا بقلمه عما جرى حول موقفه من قانون الطوائف يقول: «أصدر الفرنسيون قانون الطوائف بما لا يوافق مصلحة المسلمين ويخالف نص الشرع الإسلامي، فعارض في ذلك جملة من علماء دمشق وبالغوا في المعارضة فأوقف القانون وأصدر الفرنسيون بلاغاً بأن وقفه يشمل السنيين من المسلمين فقط ـ فقدمت بذلك احتجاجاً للمفوضية الفرنسية باللغتين العربية والفرنسية، قام الفرنسيون له وقعدوا ونشرته الصحف وهذا نصه:

إلى فخامة المفوض السامي في بيروت، لقد سمعتم الإحتجاجات الصاخبة التي قام بها المسلمون عموماً في مشارق الأرض ومغاربها على القرار ذي الرقم ٦٠ المسمّى بقانون الطوائف وعلى تعديله ذي الرقم ١٦٤ عن المفوضية العليا لأنهما مناقضان مناقضة صريحة لتعاليم دينهم وأحكام شريعتهم التي نصَّ على احترامها حتى صك الإنتداب والذي سبب هذه الثورة الفكرية في البلاد، ولم نكن نحن المسلمين الشيعيين بأقل استنكاراً لهذا القرار الذي يسيء إلى حرمة الأديان السماوية كافة ـ لأننا من أشد أبناء الشريعة المحمدية تمسكاً بتقاليدها وحرصاً على تعاليمها. لذلك استغربنا ما جاء في خطاب فخامتكم في الراديو من تفريقكم بين طوائف المسلمين. هذا التفريق الذي ينكره المسلمون أجمع، ونستغرب قصدكم توقيف مفعول القرار على الطائفة السنية وحدها واستثناءكم بقية المسلمين من ذلك.

«فأنا بصفتي الرئيس الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في سورية ولبنان أرجو فخامتكم أن تحيطوا علماً باستنكار المسلمين الشيعيين عامة لهذا القرار ولهذه التفرقة المصطنعة بين المسلمين».

وهكذا، ومن خلال هذه المواقف نستنتج أن الخلافات الفقهية داخل الجماعة الإسلامية ينبغي ألا تؤثر في رأيه على وحدة الأمة على مستوى العقيدة والحضارة، ولا على مصلحة المسلمين على مستوى الإقتصاد والسياسة والإجتماع.

فالخلاف الفقهي ينبغي أن يظل في حدود الرأي في الأوساط العلمية ولا ينسحب إلى العامة ليصبح عصبية مذهبية تغذي موقفاً سياسياً فئوياً، أو يغذيها هذا الأخير فينفخ في ضرامها، كما يقول، بسبب الجهل أو الغرضية.

إن وحدة الأمة لا تتمثل في موقف فقهي واحد تتبناه دولة سلطانية فتدعي شرعية تمثيلها للأمة من

خلال واقع «البيعة القسرية».

ولا تتمثل أيضاً في موقف فقهي واحد يتبناه تيار سياسي أو جماعة، فيعطون «لإجتهادهم» صفة الإطلاقية.

هذا الإشكال الفقهي يقودنا إلى قراءة حقل العلاقة بين الدين والسياسة عند السيد محسن الأمين.

٢ ـ نظرته إلى حقل العلاقة بين الدين والسياسة:

لم يكتب السيد محسن الأمين في الفقه السياسي بصورة مباشرة. إذ لا نجد في كتاباته نظرية سياسية حول الدولة والحكم وطبيعة السلطة وعلاقة الفقهاء بها. ولعل هذا اللاهتمام بالنظرية السياسية للدولة هو صفة عامة نجدها لدى معظم فقهاء الشيعة. قبل منتصف القرن العشرين غير أن هذه الصفة العامة لم تمنع تبلور موقف فقهي عملي حيال الدولة القائمة يتحرك وفقاً لسلوك الحاكم عدلاً أو ظلماً... فعدالة الحاكم كانت معياراً لمواقف الفقهاء المستقلين. هذا الموقف العملي ما لبث أن تحوّل إلى خط فكري في أواخر القرن التاسع عشر مع زعامة السيد حسن الشيرازي لإنتفاضة التنباك في إيران، وريادة الشيخ كاظم الخراساني للثورة الدستورية في الأعوام ١٩٠٦ ـ ١٩١١.

إذ مع الثورة الدستورية التي شارك فيها العديد من المراجع والعلماء تبلور موقف فقهي حاول البعض أن يعبر عنه بصيغة النظرية السياسية الإسلامية التي ترى في النظام البرلماني والدستوري نظاماً إسلامياً... فكما فعل بعض فقهاء السنة أمثال محمد عبده ورشيد رضا باعتبارهما الشورية معادلة للبرلمانية والعمل الديمقراطي، كذلك فعل أحد فقهاء الشيعة حسين النائيني عندما أصدر كتابه «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» في خضم الثورة الدستورية في إيران. معتبراً أن الصيغة الدستورية البرلمانية تمثل إرادة الأمة وهي شرط للحد من ظلم الحاكم وهي الصيغة الممكنة تاريخياً وانسانياً، طالما تعذّر وجود إمام معصوم في زماننا..

هذا المناخ الفكري ـ السياسي هو الذي ساد أجواء النجف في مطالع القرن العشرين، وهو الذي سيعين لفترة طويلة في تاريخنا المعاصر حقل العلاقة بين الفقه والسياسة، أو بين الفقهاء والعمل السياسي. ففي إطاره قام العديد من الفقهاء بدور قيادي في الثورة العراقية الكبرى ـ في عام ١٩٢٠، وفي ظل استمرارية هذا المناخ شهدت النجف بروز مراجع ترى في العمل السياسي والاجتماعي والتربوي حقلاً للإصلاح والنهوض بالشعب.. وفي هذا المناخ برزت في العالم الإسلامي أسماء لامعة: كالسيد محسن الأمين، والسيد محسن الحكيم، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء...

لقـد وقف السيـد الأمـين الموقف الذي يليق بمرجع كبير، ووفقاً للتقليد التاريخي الشيعي الذي نشأت عنه المرجعية، وهو أن الزعامة أو الرئاسة هي نتاج وتتويج طبيعي لعلم واجتهاد وعدلٍ وتقوى، لا يتوسل لها بالسياسة ولا بالوظيفة ولا بالمال ولا باستدراج الألقاب.

ووفقاً لهذا المنطق نفهم موقفـه الـرافض والحـازم عنـدما عرضت عليه المفوضية الفرنسية منصب رئيس علماء الشيعة في لبنان وسورية مع ما لهذا المنصب من «صلاحيات» في الإفتاء وإدارة الأوقاف. إذ كان رده: «إني موظف عند الله فلا يمكن أن أكون موظفاً عند المفوض السامي».

وهـذا التعـالي عن الـوظيفـة الزمنية لدى الإدارة الأجنبية، لم يكن ليعني لا مبالاة بشؤ ون الناس وحيـاتهم . . . كما أن اعتبـار نفسـه موظفاً عند الله لم يكن ليعني استخدام مفهوم الحق الإلهي في السلطة وبـالصيغـة التي شاع فيهـا بتأثـير المفاهيم القديمة في الدول السلطانية من عباسية وصفوية وعثمانية . . فالـوظيفـة عنـد الله هي خدمة للجماعة بأخلاقية رسالية وجهادية، ولا تعفي الفقيه ـ المرجع من تحصيل كسبـه بالعمـل المنتـج، كما لا تعفيـه من الإلتـزام بحـل مشـاكل الناس الحياتية والحفاظ على كراماتهم وقيمهم في ديارهم وأوطانهم. بل على العكس، إن السيد يفهم الوظيفة عند الله التزاماً بهذا كله ومن هنا تأتي فعالية النصح والإرشاد والتوجيه من موقعه في العمل السياسي.

لقـد كان للسيـد ـ كما هو معـروف ـ علاقـات وثيقـة مع زعـماء الكتلة الوطنية في سوريا. إذ كان هؤلاء يترددون على مجلسـه ويصغـون لآرائـه وأفكـاره واقـتراحـاته. ومن توجيهاته التي كان لها فعالية قصوى في العمل السياسي الوطني اقتراحه على الكتلة الوطنية مقاطعة «شركة الجر والتنوير الفرنسية»، وتفصيل ذلك ما يرويه بقلمه يقول: «واختلفت شركة الجر والتنوير الأجنبية مع الأهالي في دمشق. وكان عنـدي ليلة فريق من زعـماء الكتلة الـوطنيـة. فقلت ما بالنا لا نقاطع هذه الشركة الأجنبية؟ لقد أماتت الـدولـة العثـمانيـة عواطف الشهـامـة والشمم في كبرائنا. فكان الوالي إذا جاء إلى هذا البلدة ومر بأحد الأكابر وسلّم عليه يأتي إلى أصحابه فيقول له مفتخراً: الوالي اليوم ضرب لي تمني ـ وأغنياؤ نا وكبراؤ نا اليـوم دخلهم الشهـري مئـات الليرات الـذهبية، فإذا دفعوا منها في الشهر عشر ليرات سورية لا يرونها شيئاً، فيدخلون الدار ليلاً ويجلسون على الأسرة والأرائك ويفتلون زر الكهرباء فتضيء الدار كأنهم في النهـار ويـرون ذلـك هو اللذة والسعادة، ولا يبالون بتحكم شركة الكهرباءالأجنبية بهم. ذلك لأنها قد أماتت منهم عاطفة الشمم والإباء. ولو كان فيهم شمم وإباء لآثروا «النواصة» على ضياء الكهرباء ولم يرضوا أن تتحكم بهم هذه الشركة الأجنبية. فقال لي بعض الجالسين، لو ألقيت هذا الكلام في مجتمع من الناس، قلت أنا ماتعودت أن ألقي كلاماً في المجتمعات ـ ولكن أنتم بلغوه عني. وفي اليوم الثاني قاطع الناس الشركة مقاطعة تامة وأحرقوا بعض عرباتها ولم يعد يركب فيها أحد.

ويعلق الأستـاذ حسن الأمـين، ناشـر سيرة السيـد: أنتجت هذه المقـاطعة الإضراب الخمسيني

المشهور في سورية الذي اضطر معه الكونت دي مارتل المفوض السامي الفرنسي إلى النزول على رأي المواطنين».

إن هذا الكلام يعيد إلى أذهاننا فتوى السيد الشيرازي بتحريم التنباك أيام محمد علي شاه القاجاري، والتي أدّت إلى إضراب شعبي كان من نتيجته سقوط الإتفاقية الإحتكارية التي عقدها الشاه مع الشركة الإنكليزية. وكان السيد الأمين يحكي قصة هذه الواقعة مع دلالاتها السياسية الوطنية ليشير على رجال الكتلة الوطنية إلى أسلوب في العمل السياسي من شأنه أن يحرِّر الإرادة الشعبية من نتائج السياسة الإستبدادية التي تغلغلت في السلوك والأخلاق بأشكال من المهالأة والتكاذب والخضوع والتراضي.

ولعل هذا ما عبر عنه أحد زعماء الكتلة الوطنية ورئيس الوزراء السوري سابقاً، لطفي الحفار - عندما قال فيه ولا أنكر أننا كنا نلاقي مثل هذا التأييد والتشجيع من بعض رجال الدين الآخرين على اختلاف المذاهب والطوائف الذين يستشعرون واجباتهم الدينية والدنيوية. غير أن ما كان يتمتع به الإمام العلامة السيد محسن من الزعامة والقوة والحب العميق من جميع من عرفه واجتمع إليه من إخوانه ورجاله وأبناء عشيرته وغيرهم. كانت هذه الزعامة والحب قوة لنا لمتابعة الجهاد والنضال دون تردد أو ضعف. وكانت مجالسه كلها التي نغشاها من حين إلى آخر مجالاً للدعوة الصالحة في وجوب التضامن والإئتلاف ونبذ السخائم والخلافات والترفع عن الدنايا والإسفاف.

ولعل المجال الأوسع والأرحب الذي خاض فيه السيد معركة الإصلاح في زمن النهضة آنذاك هو المجال الإجتماعي وحقل التربية والتعليم.

٣ - حقل التربية والعلم والدين في المجتمع الإسلامي:

إن الظاهرة التي طغت على الحياة الإجتماعية والثقافية لدى عامة المسلمين في زمن السيد، ولا سيما في مرحلة احتكاكه الأول بقطاعات المجتمع الإسلامي في كل من جبل عامل والعراق وإيران والشام هي الظاهرة التي عبر عنها معظم المفكرين آنذاك بصفة الجهل، جهل المسلمين لعلوم دينهم وجهلهم لعلوم عصرهم. فعلوم الإسلام من فقه وعلم أصول وعلم كلام كانت أصبحت تكراراً لأخبار وروايات وأحاديث دخلها التزوير فأضاف إليها ألواناً من البدع والخرافة والأسطورة. وأصبح الخبر مزيجاً من وقائع تاريخية ومن صور ابتدعتها المخيلة السلطانية، وأجهزتها الفقهية من أجل التعبئة السيكولوجية لدى عامة المسلمين، كما حصل أيام الحكم الصفوي في إيران، أو لجأت إليها المخيلة الشعبية من أجل الإحتماء والتعويض النفسي عن الحرمان أو القهر أو المرض الذي تعانيه.

وكما حصل في قطاع طرق الصوفنية في الدولة العثمانية. في مراحل تقهقرها، أوكما حصل في مجال الشعائر الحسينية في الدولة الصفوية والقاجارية. والمرُجح أن الإرادة السلطانية والمخيلة الشعبية كانتا تتغذيان من منهج واحد، هو المنهج الذي يبثه وينشره في الأمة وعلى حد قول الشيخ حسين النائيني: علماء السوء أو شعبية الإستبداد الديني.

وبالنسبة لعلوم الزمن المعاصر لتلك الفترة، كان الغرب قد أنجز ثورته الصناعية التي بدت أنها ارتكزت إلى الثورة العلمية والفكرية التي عمت القرنين الثامن والتاسع عشر. كما بدت أن قوة الإستعمار لا تكمن فحسب في السياسة والحرب، بل أيضاً في المعرفة والتخطيط واستخدام العلوم. كل هذا شكل تحدياً للعقل الإسلامي الملاحظ والمقارن: تحدياً حصل في حقل الرؤية لحالتين متعايشتين:

حالة الغرب وماهو عليه من قوة وبأس وعلم. وحالة الشرق الإسلامي وما هو عليه من ضعف ووهن وجهل. لقد لخصت هذه المقارنة صورة الوعي التي استقرت في ذهن المصلحين المسلمين آنذاك. فكان ردهم على هذا الأشكال ـ المقارن أن ما ينسب إلى الإسلام في الممارسة الشعبية الطقسية ـ التي تندرج في التقاليد، ليس إسلاماً، فينبغي تجديد علوم الدين. وبأن ما ينعت به الغرب من صفات تهوين أو تهويل لا يصيب الحقيقة، فهو ليس، ملاكاً يحتذى وليس شيطاناً يرجم ثمة ما هو مفيد ينبغي تعلمه من الغرب وفقاً لمصالح الشعوب الإسلامية.

ولعل هذه الصورة الموجزة تلخص رؤية كل من الشيخ محمد عبده والسيد محسن الأمين في منهجهما الإصلاحي في المجتمع عن طريق تجديد الدين ونشر العلم.

ولا يتسع المجال هذا للإستفاضة في مواقف السيد وآرائه وأفكاره في هذا الحقل، فهي غنية وواسعة ومتعددة، سواء أعلى مستوى النص أو على مستوى الممارسة.

والسيد يغنينا عن محاولة إيجاز توجهاته في الإصلاح إذ يوجزها بنفسه في سيرته بتوجهات ثلاثة عندما يقول: «وردنا دمشق في أواخر شعبان من سنة (١٣١٩هـ) في أواخر الخريف، فوجدنا أمامنا أموراً هي علة العلل ولا بد في إصلاح المجتمع من النظر في إصلاحها:

١ ـ الأمية والجهل المطبق فقد وجدنا معظم الأطفال يبقون أميين بدون تعليم وبعضهم يتعلمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم.

٢ ـ وجدنا إخواننا في دمشق متشاكين منقسمين إلى حزبين بل إلى أحزاب وقد أخذت منهم هذه الحزبية مأخذها.

٣ ـ مجالس العزاء وما يتلى فيها من أحاديث غير صحيحة وما يصنع في المشهد... من ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات وبعض الأفعال المستنكرة وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر استئصالها لا سيما أنها ملبسة بلباس الدين فوجّهنا اهتمامنا إلى إصلاح هذه الأمور الثلاثة.

والمسيرة التي قطعها السيد انطلاقاً من هذا الإلتزام كانت طويلة وشاقة.

فعلى مستوى التعليم، كان الأمر يحتاج إلى مؤسسة وإلى وضع برامج ومناهج حديثة وكتب تلبي هذه المناهج.. وكل هذا يحتاج إلى مال. بدأ السيد بإعطاء الأنموذج بنفسه. بدأ مدرساً في مجالسه، يدرس النحو وبعض دروس الفقه حتى استطاع أن يجعل من الكتاب مدرسة حيث أدخل إليها كما يقول «العلوم الحديثة»، وحيث استأجر إلى جانبها داراً لتعليم البنات إلى جانب تعليم البنين.

ولم يلبث مسلكه المتسم بالزهد والعزم أن أقنع أغنياء الحي بشراء دار أوسع للمدرسة، فبثَّ في الأفراد روح التعاون والإيثار وعقلية العمل الجماعي. واللافت للنظر أن يهتم السيد ـ وهو الفقيه المجتهد ـ وصاحب المؤلفات الموسوعية الكبرى، بأمر التأليف المدرسي آنذاك. فيؤلف كتباً مدرسية ميسرة لتدريس النحو والعقائد والأحكام الشرعية وتفسير القرآن وتلقين المخطوطات الأدبية. حتى راجت هذه الكتب في العديد من المدارس وعم نفعها وترجمت إلى الفارسية.

ولم يهمل السيد العلوم العصرية أبداً ـ إذ فضلاً عن التزام المدرسة بالبرامج الرسمية المقررة، كان السيد مشجعاً على تلقي العلوم الصناعية بصورة خاصة. يقول «وأما العلوم الراجعة إلى الصناعات فيجب على الناس تعلمها كفاية، ومع وجود من يحصل به سد حاجة الناس، يكون تعلمها راجحاً عيناً ـ ولا سيما في مثل هذا الزمان الذي ارتقت فيه الصناعات ارتقاء باهراً فعلى المسلمين أن يجاروا باقي الأمم في تعلم الصناعات التي تتوقف عليها حياتهم مع باقي الأمم، حياة عز وغنى، لا حياة ذل وفقر، ولا يكون عالة على سواهم. فدينهم الحنيف وكتابهم المبين يأمرهم بذلك حيث يقول:

﴿وامشوا في مناكبها﴾.. ويخلص السيد إلى القول: إن تعلم اللغات وسائر العلوم العصرية راجح في نفسه بل واجب على المسلمين كفاية..

قد يبدو هذا الكلام ـ اليوم ـ بسيطاً. ولكن من الضروري أن نضعه في سياقه الزمني لندرك أهميته وجدته فتذكر كما يحدثنا ظافر القاسمي اعتماداً على يوميات والده الشيخ جمال الدين الذي عاصر السيد: إن بعض حلقات دمشق من فقهاء الحشوية والمعممين الجامدين كانوا ولا زالوا يتذاكرون في مسائل من مثل: هل تعليم الجغرافيا والكيمياء أو الفيزياء حلال أم حرام!؟.

وإذا كنا نتحدث عن دور السيد في مجال التعليم فإنه لابد من المرور على دعوته لإصلاح برامج التعليم الديني في النجف والحوزات الدينية الأخرى.

إن ما نبه السيد إلى هذا الأمر هو نفسه الحال الذي نبه الشيخ محمد عبده له عندما تصدى هذا الأخير لإصلاح التعليم في الأزهر، وهو الفوضى الضاربة أطنابها في مدرسة النجف الأشرف كما يقول، ثم يشرح فيضيف: فالطالب فيها يقرأ أي شاء وعند من يشاء لا يجبر على شيء ـ والطلاب ليس لتدريسهم ميزان ولا «بروغرام» يمشون عليه إلا ما أورثته العادة القديمة ويقترح السيد على من بيدهم

أزمّة الأمور ولهم الكلمة النافذة من العلماء وضع دستور للتدريس ليس الطالب أن يتعدّاه وإلا طرد من التدريس، حتى لا يكون ضرره أكثر من نفعه . . . وإجراء الإمتحان للطلاب في ابتداء تدريسهم ووضعهم في الدروس اللائقة بهم وامتحان على رأس كل ثلاثة أشهر وامتحان في نهاية السنة يكون بموجبه نقلهم من كتاب إلى كتاب ومن علم إلى علم. . .

ورأى أن كل هذه العلوم لا يكتمل نفعها إلا إذا توجت بتدريس علم الأخلاق. حتى يتخلّق الطلبة بالأخلاق الفاضلة فتستفيد الأمة حينئذ من علومهم. وهنا التشديد على علم الأخلاق لم يكن يهدف إلى تعليم نظريات أخلاقية مجردة بل إلى اكتساب فضائل مسلكية في عملية التعليم والتعلم. ذلك أن السيد كان يلاحظ أن ما عليه واقع المعلمين الجامدين في سلوكهم وأخلاقيتهم في المجتمع وما هم عليه من روح فردية وأنانية وانتهازية وتزلف وتخلف للحكام والحاكمين. . . لذلك كان التشديد على علم الأخلاق دفعاً للإلتزام بقضايا الجماعة وخدمتها والإرتقاء بها، وكانت سيرة السيد على كل حال، وفي كل جزئياتها، أبلغ مثال وأنفع درس في أخلاقية العالم والباحث والمربي، والإنسان العادي.

ولعل علاج المرض الثاني الذي يشير إليه في المسلكية الإجتماعية وهو الحزبية والتنابذ والتشاكي، كان يصدر عن مسلكية إيضاحية ونموذجية في شخصه بالذات. يقول: وأما الأمر الثاني وهو أمر الحزبية. . . فرفعه أمر واحد لم نكن نعرفه ولا نعرف أن له هذا الأثر وهو المساواة بين الناس وعدم التحيز لفريق دون آخر. وهذا أمر طبعنا عليه ولم نتكلفه تكلفاً.

والحقيقة أن المسلكية المساواتية حيال كل الناس كبيرهم وصغيرهم، فقيرهم وغنيهم، حاكمهم ومحكومهم، تطلبت شخصية شجاعة وجريئة وعادلة وزاهدة، لا مطمع لها في مال ولا في سلطان ولا في جاه. فالالاف ذهباً كانت ترد عليه فما يمسها ويحولها للحال إلى وجوه الخير، وكان بسيطاً في مأكله الذي يعدُّه بنفسه. ومتواضعاً في ملبسه ـ والشخصيات التي عرفته وكتبت عنه في حياته وبعد مماته، تجمع على سمات هذه الشخصية التي تستعيد في الوعي الجمعي صورة الإمام الزاهد والشجاع في آن معاً، حيث تغلب عليه هيبة العلم والتقوى والجاه.

فجواب السيد للشاه رضا بهلوي الذي أخذ عليه قلة العناية بمظهره، «نحن ننظف قلوبنا وأنتم تنظفون ثيابكم»، والذي تناقلته المجالس يعبر عن هذه الصورة النموذجية في المسلكية الإجتماعية التي لا تحابي ولا تمالي ولا تهاب ولا تتحيز والتي تحوز بسبب هذا كله على ثقة الناس.

وأما المرض الثالث الذي عاناه السيد في جماعته فهو حال الإنحطاط والإبتداع في ممارسة الشعائر الحسينية. صحيح أن هذا الحال كان متعدد المظاهر والتعبيرات في حياة المسلمين لكن الشعائر الحسينية وبالصورة التي كانت تقام بها ولا تزال حتى يومنا هذا في بعض القطاعات الإجتماعية والمناطق، كانت أخطر تلك المظاهر التى لفتت نظر السيد، لما فيها من أخبار مكذوبة وأغلاط شائنة وقصص هي أشبه

بالقصص التي تتلى في المقاهي في هذا العصر، كما يقول، ولما يرتكب في أثناء مواكبها من أعمال عنف وهتك وإيذاء للنفس . . .

وإذ لايتسع المجال هنا لعرض تفاصيل قصة تصديه لهذه المسألة، يتوقفنا في منهج تعاطيه معها أمران : الأول أن السيد عندما لاحظ أن القراءات المملوءة أخطاءاً وكذباً وظرافة، هي الشائعة، بادر إلى وضع نص تاريخي بديل واعتمده في قراءة المجالس الحسينية . والثاني هو التصدي بمنهج كلامي وفقهي لما يعتبره بدعة في الشعائر الحسينية كإيذاء النفس بالحديد واللطم، وكالتمثيل وصياح النساء، فألف «رسالة التنزيه في أعمال الشبيه» ليبين حرمة هذه الأفعال بنص الشرع وحكم العقل.

ومعلوم أن هذا الموقف أثار نقاشاً حاداً في أوساط الفقهاء وطلاب العلوم الدينية في النجف وجبل عامر وأنحاء أخرى من العالم الإسلامي، وانقسمت هذه الأوساط بين مؤيد ومعارض. ولا يزال الخلاف حول هذه المسألة في المجال الفقهي مستمراً حتى يومنا.

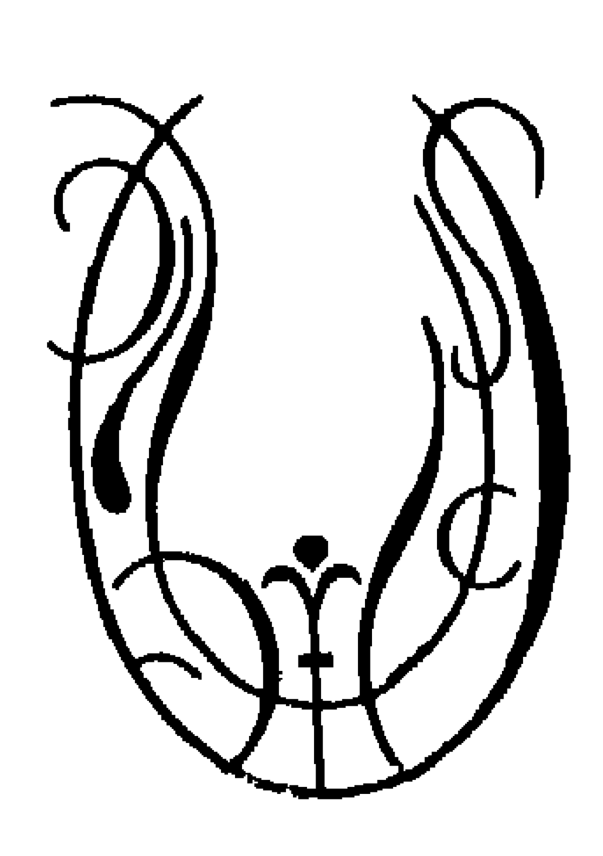
ولعلّ الجانب النفسي والإجتماعي والسياسي والتاريخي في ظاهرة المواكب الحسينية لم يدرس بعد دراسة وافية، ولم تعالج أسباب استمرارية هذه الظاهرة بأشكال عنيفة ودموية في السلوك الإجتماعي الشعبي لدى الشيعة.

لقد رأى السيد أن أشكال العنف هذه هي دخيلة وطارئة في الموروث الإسلامي - الشيعي . ولعلّ هذا الإفتراض يدفعنا إلى العودة إلى المرحلة الصفوية في إيران حيث نعرف أن الشاهات - ومنهم على وجه أخص الشاه عباس -، قد بالغوا في إسباغ مظاهر الهيبة والتأثير العاطفي والنفسي على تعظيم المواكب الحسينية والدعوة لها في ظل الصراع العثماني - الصفوي - حتى أضحت هذه المواكب مهرجانات كبرى للتعبئة الشعبية.

ومما لا شك فيه أن العودة إلى الأصل التاريخي لا يعفي الباحث من دراسة الشروط الإجتماعية والسياسية والنفسية التي أعادت وتعيد إنتاج مظاهر العنف والتعذيب الذاتي في هذه الظاهرة حتى يومنا هذا. لكن السيد الأمين كان يراهن عندما اقتحم هذا الأمر وخاض تلك المعركة، على أمرين :
أولاً - مرجعيته الفقهية كمرجع تقليد - فكان حكم التحريم المعلل بالبرهان الشرعي سلاحاً في المنع .
ثانياً - دعوته وقيامه بالتعليم والتربية والتثقيف إذ رأى في المدرسة خير وسيلة لتنوير العقل ومحاربة الجهل باعتبار هذا الأخير سبباً لكل انحراف على مستوى الفرد أو الجماعة.

والنتيجة أن السيد نجح في رهانه حيث امتد نشاطه وحيث وصل تأثيره فكان حلقة أساسية من حلقات النهضة العربية والإسلامية. وإذا كان مشروع هذه النهضة قد مر بمأزق حتى وصل إلى حالته المأزومة اليوم - فإن العودة إلى قراءة مناهج هذا المشروع ومدارسة قراءة نقدية هي ضرورية من أجل

التواصل والتراكم والتكامل ولعلّ في استعادة سيرة من سير أئمة الإصلاح آنذاك تعطينا فكرة كم كان هم الناس كبيراً في وجدان الفقيه وضميره وتقوى الله عارماً في قلبه الأمر الذي حفظ للدين قدسيته بدل أن يصبح ذريعة في السياسة وحفظ للعمل السياسي أخلاقيته بدل أن يصبح مطية لكل مستعجل للسلطة والسلطان.



السيد محسن الأمين من خلال شعره

****************** الشيخ عباس قاسم شرف

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

يا من سقاني كؤوس الحب صافية   علّا ونهلًا فأضحى العقل نشوانا
هلّا تعود بنا الأيام ثانية   ويصبح القلب بعد اللهف ريانا

* * *

وقائلة ما هذه الدرر التي   تساقط من عينيك سمطين سمطينِ
فقلت هو الدر الذي كان قد حشا «أبو باقر» أذني تساقط من عيني

* * *

يا راحلين وما ترحل حبكم   هيهات سلواني لكم هيهاتا

من مات في رغـد فمضنـاكـم على شوك الـقـتـاد مسـهـداً قد باتـا

قد قضى العقـل والـدين باحـترام عظـماء الـرجـال أحياء أو أمواتاً، وتجديد الـذكـرى لمن بذل نفسه وجاهد حتى مات بعد إصلاح شديد، وبذل قصارى جهده لجمع شمل المسلمين.

ترتسم على كل أفق من آفـاق العـالم الإسـلامي أسـماء معدودة لرجال معدودين امتازوا بمواهب وعبقريات رفعتهم إلى الأوج الأعلى من الأفاق، فإذا أسماؤ هم كالنجوم تتلألأ في كبد السماء المضيئة، وإن أسماء أولئك الذين ارتسمت اسماؤ هم لقليل. . ، وقليل هم، وأولئك هم الذين علت بهم النفوس الطيبة العالية النادرة وكان من نبوغهم النادر ما جعلهم أفذاذاً في العالم الإسلامي.

وإلى هذا يشير سيد المتكلمين وإما العظماء ربيب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يقول(عليه السلام):

«وما برح لله جلَّ ثناؤ ه في البرهة بعد البرهة وفي أيام الفترات عبادٌ ناجاهم في فكرهم وعلمهم في ذات عقولهم فكانوا أدلّة في الفلوات، من أخذ يميناً حمدوا له الطريق وبشروه بالنجاه ومن أخذ شمالاً حذّروه من الهلكة، وكانو مصابيح تلك الظلمات».

ألا ومنهم مولانا المحتفى به السيد محسن الأمين الذي انحدر من السلالة الطاهرة، ولا عجب ولا استغراب ولا استهجان إذا صدرت منه تلك الصفات العالية وهو ابن محمد وعلي عليهم الصلاة والسلام.

شاهـدتُـهُ بعيني ورأيتـهُ وجـالستُـهُ وقمت على خدمتـه وكتبت معـه في بعض مؤ لفاته رأيت عليه العظمـة والجـلال والكـمال والهيبة والوقار، كان حريصاً على الوقت حريصاً على المنفعة حريصاً على لم شمل المسلمين.

كان يخاطب كل إنسان على قدره، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان عفيفاً ذكياً عظيماً كتبت له ـ ومعه ـ يوماً من الأيام من أول النهار لآخره، ثم جئت إليه في اليوم الثاني وقد كتب كتاباً عظيماً فقلت في نفسي ألم ينم سيدي في تلك الليلة. . . ! لم تنم عيناهُ في همة لا تعرف الكلل والملل والسآمة؛ وهو القائل:

لذات دنـيـاي لا أخـشـى تغـيرهـا ولا أبـالي بها يومـاً فأحـرسـهـا
في الـليـل ما لذتـي إلا مطـالـعـتي وفي الـنـهـار دروسٌ لي أدارسـهـا

كان متقنـاً في عمله، محافظاً على وقتـه وجلسـائه، وقد سمعت من أبياته الخالدة، أبياتاً كل

منها يحمل معنى قائم بذاته حيث يقول رضوان الله عليه:

ذو العلم بعد الموت حي والذي ورث الجهالة ميت لم يدفنِ
والمرء لو ملك البسيطة لم ينل منها إذا ما مات غير المدفنِ
ومن السفاهة أن تكون مخيراً فتكون مختاراً لغير الأحسنِ
عجباً تراب الأرض تنبت حنظلاً طوراً وطوراً تنبت الرطب الجني
وإذا القلوب أصابها داء العمى لم ينفع الإنسان نور الأعين
ومتى تجد طرق الأنام تعددت لا تسلكن سوى الطريق البين

لقد ترك وراءه ثروات من المعرفة والأدب والشعر فكان رجل العلم والدين والأدب والوطن، كان «رضوان الله عليه» رجل الأدب الثوري والذي ما فتىء يحمل أقلامه مدافعاً بها عن حياض الدين، يقف بالمرصاد لكل من سولت له نفسه المساس بكرامة الإسلام، وقد كان له موقف مع شاعرين يقول الأول:

نحن لولا الوجود لم نعرف الفقد فإيجادنا علينا بلاء
قبح الله لذة لشقانا نالها الأمهات والآباء

وقد ذيله آخر بقوله:

فهي أفضت بنا إلى شر دار للإساءات أخذها والعطاء
فسل النيرات عمن أظلتهم على الأرض قبلنا الغبراء
قرض الأجمعين مقراض دهر نصلتاه صباحه والمساء

وأما نظريته عليه الرحمة إلى هذا الوجود فهي نظرة عالم متأمل، عالم نظر إلى حقيقة وجود الإنسان نظرة ثاقبة لا تدع من مجال للشك بهذا الخالق العظيم:

نحن لولا الوجود لم نعرف الله فإيجادنا لنا نعماء
وبنعم الوجود والعقل نعمنا وبانَ عنا الشقاء
نحن لولا الوجود لم نعبِد الله بفعل لنا عليه الجزاء
ليس إيجادنا بلاء ولكن اتباع الهوى علينا بلاء

إن نظرة واقعية إلى هذين الشاعرين تكشف مدى الجهل الذي كانا يعيشانه ـ وأمثالهما من الضالين ـ حتى وإن كانوا من ذوي العلم والمعرفة، ولكن المقياس في هذا المجال لا يقاس إلا من خلال

نظرته (رضوان الله عليه) حيث يقول:

إذا لم يزن علم الفتى بتواضع وعلم وحفظ للنوافل والفرض
فبالجهلِ خير للفتى من علومه إذا لم تكن يوماً إلى عمل تفضي

وقد طرق مولانا محسن الأمين في ديوانه «الرحيق المختوم» والذي يتألف من جزئين معظم أبواب الشعر العربي ولم يقصر «رحمه الله» في أي غرض من أغراضه، فهو في مجال المدح شاعر عظيم، وقد وقَفَ معظم مدحه على حضرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله الكرام وقد أجاد في هذا اللون وكان لتصويره الدقيق البارع مايترك في النفس أثاراً عظيمة ومؤثرة يقول في مدح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

خير الزمان وأشرف الأعياد يوم به ولد النبي الهادي
ولدته آمنة فيا بشرى لها شرف حوته بذلك الميلاد
يوم به ظُلَمُ الضلال تقشعت من نور أحمد علة الإيجاد

وإذا ما تجوّلنا في ثنايا هذا الديونان الكبير لوجدنا أنفسنا نقف عند باب قد خصصه لبعض مُخلَصيه؛ إنه ولا شك باب الرثاء! فالرثاء وما تحويه هذه الكلمة من معنى تجده شعراً، فحيثما تجد مسلماً متشيعاً يقول شعراً فهو يقول شعر الرثاء . . . ، فكيف إذا كان هذا الشاعر ينحدر من السلالة الحسينية؟ وكيف إذا كان هذا الشاعر هو العلامة السيد محسن الأمين؟ لقد تفجع رضوان الله عليه في رثاء آبائِه الكرام، ورصد العظيم من عاطفته الجياشة لهذا الوسام الرفيع. فخرج شعراً رائعاً يليق برثاء سيد الشهداء وعترته الطاهرة.

وكان «رضوان الله عليه» ينظر إلى هذا الغرض نظرة إصلاحية إجتماعية: فقد كان شاعراً مصلحاً ثائراً على التشويه الذي لحق بالثورة الحسينية النقية، فكان ينادي في كل حين باجتثاث ما دخل على هذه المسيرة المطهّرة، وقد وضع الحل بأن بدأ بتأليف المراثي الحسينية بنفسه، كما قام على جمع أشعار الشعراء المعتبرين بكتاب أسماه «الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد» مما يكشف لنا عن حبه للشعر وتأثره العميق لمصاب أجداده الكرام، يقول عليه الرحمة:

من مبلغ المصطفىٰ سبطاه قد قضيّا بالسم هذا وذا بالسيف منحورا
أوصى وأكد في الدنيا وصيته فأوسعوا عهده نكثاً وتغييرا
لو كان جدهما أوصى بظلمهما لما استطاعوا لما جاؤه تكثيرا

ويقول في قصيدة أخرى:

يا آل بيت محمد لمصابكم قد كاد صبكم يموت بدائه
وإذا المحرم هلَّ جدد حزنه لكم تذكر يوم عاشورائه

يوم به سبط النبي قضى على ظمأ وغودر في ثرى رمضائه
سيم الردى والضيم فاختار الردى وأبى رضاع الضيم فرط ابائه
هيهات أن يرضى مقام الذل مَنْ ورث الابا والعز عن آبائه
ويلام يا للمسلمين محبكم بين الأنام لنوحه وبكائه
أنىّ تصيب النار جسم موحد أصبحتم في الحشر من شفعائه

وإذا تعمقت في هذا الديوان فإنك ستجد باباً قد أسماه باب الحماسة . ! .

ومن أولى بالحماسة والفخر من رجل ينحدر من السلالة المحمدية ومن همة نشأت في البيئة العاملية ، لقد حق له أن يفتخر ويتحمس وهو الذي صنف في موسوعته الخالدة «أعيان الشيعة» الشعراء الحماسيين ، فقد حقق رضوان الله عليه في شخصية الشعراء الحماسيين فكان منهم «أبو فراس الحمداني» ـ الذي قرأ ديوانه وهو ما يزال حدثاً ـ وقد تأثر به واستمد من شخصيته وشخصية باقي الشعراء مادة الحماسة والفخر، يقول عليه الرحمة :

وكل ابن انثى سوف يدركه الردى ولو نال أعمار الصقور القشاعمِ
ألا فاذكريني يا ابنة الخير واذكري مقامي إذا أصبحت بين الرمائمِ
وقولي فلان كان أول سابق لنيل المعالي واكتساب المكارمِ
وقولي فلان كان إن غلب الكرى فليس بغير المكرمات بحالمِ
وقولي فلان لم تُدَنس ذيوله مطامع دنيا ظلها غير دائمِ
فمن لكم مثلي يقارع عنكم بأسيافه لا بالقنا والصوارمِ
ومن لكم مثلي من الناس راقياً إلى غاية لا ترتقى بالسلالمِ

وقد تلمح في طوايا صفحات الديوان ما أسماه بباب «الحكم والمواعظ» وهنا لا بد منَ الوقوف هنيهة لتستعرض في مضامين هذه الأشعار الخبرة الطويلة التي قضاها سماحته في هذه الحياة، يقول:

ألا إنَّ مدح الخلق ليس بنافع لمن كان عند الله يستوجب الذما
كما أن ذم الناس ليس بضائر لمن كان عند الله في المنزل الأسمى

وليس أجمل من شعر قد سبك ليؤدي لك نصيحة جليلة تحفظها عن رجل قد ناهز الثمانين فإذا به يعتصر خبرته ليصوغها حكمة بالغة جميلة :

العمر جوهرة وليس لها إلا اكتساب العلم من ثمن
إياك واحذر أن تجود بها لسواه واغنم فرصة الزمن

ثم يختم سماحته هذا الباب بأرق وأعذب وأجمل ما نظم في الحكم والمواعظ . . . ! فقد نظم قصيدة قوامها مئة بيت. وأما جمالها ودقة نظمها فهي كامنة في قافيتها فكان يختم كل بيت بكلمة واحدة وهي (عجوز) وقد كان لكل منها معنى مختلف عن غيره، وقد سلك في هذا المجال تجربة بعض الشعراء الذين سبقوه، ولكنهم لم يتوصلوا إلى الرقم الذي وصل إليه سماحته وإلى المعاني والانسجام اللذين تميزت بهما القصيدة الطويلة :

أتعمل طول دهرك للعجوز؟ (الدنيا)	ولاتخش غداً حر العجوز؟ (النار)
تروح وتغتدي في جمع مال	لديك من النضار أو العجوز (الفضة)

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على عذوبة عاطفته وإلى وفرة المعاني التي أُشبعت بها ذاكرة سماحته الطاهرة.

وهكذا حلّق مولانا في معظم ألوان الشعر، وطرق الأبواب الأخرى وتعمق في عدة موضوعات أدبية أفرد لها أبواب خاصة: كباب المراسلات والمعميات والألغاز ـ وباب الأغراض المتنوعة ـ والحنين ـ والتاريخ. . . ، ومن الأبواب التي تلفت النظر في ديوانه الرائع هو باب الغزل والنسيب: والذي أفرد له سماحته جزءاً عظيماً من وقته وأدبه وكأني عندما أطالع فيه أجد العشق الروحي العظيم الذي كان قلبه مشحوناً به.

أوجهك أم بدر الدجنة أشرقا	وثغرك أم برق لموع تألقا
وفي فيكِ هذا الريق لذ لشارب	أم الكاس قد أهدت شراباً معتقاً
ترفق بصب فيك مازال وجده	يزيد وأما صبره فلك البقا
بنفسي محيا يُخجل الشمس كلما	تأملته يزداد عندك رونقاً

وهذا يدل على شمولية شعر السيد وعلى عنايته بكل ما يمتُّ إلى الإحساس والشعور والخيال بصلة، ولقد أبدع إلى حد النشوة فكان شعره مزيجاً من العاطفة الصادقة والخيال الخصب، وقد ارتقى سماحته في هذا الديوان إلى حد وصل فيه الهدف المطلوب وهو استخدام كل موهبة في طاعة الله عز وجل، واستطاع أن يتبوّ هذا الشعر مكانة مرموقة بين الشعر العربي والإسلامي، أما أسلوبه فكان علمياً أدبياً في آن واحد لأنه جمعَ بين التفكير والتصوير والتعبير.

وأما كتاباته فكانت تتسم بالموضوعية والعملية، ومن الناحية الأدبية فإن ألفاظه تتراوح بين السهولة والصعوبة فمنها ما كان معروفاً سهلاً ومنها ما كان صعباً غير مفهوم المعنى، وأما تراكيبه فقد كانت قوية متماسكة لا خلل فيها ولا وهن ولا ضعف وقد كانت قوتها في جرسها القوي الذي كان يقرع

الآذان ويلهب المشاعر، وكان أسلوبه أسلوباً هادفاً إصلاحياً ثورياً صارخاً على بعض العادات والتقاليد البالية، وقد تميّز شعره (رحمه الله) بسلوك نهج الأقدمين في اتباع نظام القافية الواحدة والشطرين الموزونين، ولقد تشبه بالنهج القديم في معظم القصائد حيث كان يبدأ بالوقوف على الأطلال والغزل واستنشاد الأخلاء والأحبة.

هذا بالاضافة إلى عاطفته الفياضة فقد كان يملك بعض الهوايات الأدبية: كتشطير الأبيات والقصائد، وتخميسها كما في قصيدة السيد حيدر الحلي:

لقد وقفت ونار الحرب تضطرم — والمشرفية برق والقنا اجم
وقلت للنفس والأجال تخترم — (إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم)
(فلا مشت بي في طرق العلا قدم)

ومن طرائف ديوانه انتهاج بعض الألوان الأندلسية كالموشحات، وقد ورد في شعره بعض الألغاز والمغميات الشعرية مما أضفت على الديوان نوع من الظرفة الأدبية، كما يقول في كوكب المشتري:

ما مشتر ما باعه بائع — هل مشتر يلغى بلا بائع
يخفى وراء الستر في يومه — وليس طول الليل بالهاجع

وقد اعتنى (رضوان الله عليه) في موسوعته: «أعيان الشيعة» بالشعر والشعراء حيث فندّ حياة كل شاعر شيعي وأفرد لبعضهم الكتب الخاصة: (كأبي فراس ـ وأبي تمام) بالاضافة إلى العديد من الكتب أمثال معادن الجواهر ـ والدر النضيد..

وهكذا صرف حياته الشريفة بما أفاده في دنياه وأخرته وظل مواظباً على التأليف والدراسة حتى قضى «رضوان الله عليه» ومكتبته والمكتبة الإسلامية زاخرة بالعناوين والكتب والتي بقيت تخلد اسمه وتعلي رأيه السديد في كل عصر وأوان.

ولما أتى النبأ العظيم بالفاجعة الكبرى، قلت في نفسي كيف أذكر هذا المربي العظيم؟ وهل أحلى من أن تكافىء شاعراً بشعر؟ إنه قليل فيه الرثاء ولكنها جولة صغيرة في عالمه الرحب نتذكر فيها الأيام التي كنت قد قضيتها بخدمته وعلى منبره ومن داخل غرفته المتواضعة، أتذكره وهو يطالع في الكتب بعينيه اللتين تلتهمان العلم والمعرفة، إنها الماضي الذي لن يعود والذي كنت من خلاله من الذين أكرمهم الله بمعاصرة هذا الرجل الفذ، والجلوس معه والسهر على خدمته خلال فترة حياته في دمشق، ومن دمشق ومن حي الإمام زين العابدين(عليه السلام) أطلقت هذه الأبيات المتواضعة علّها تصل إلى أسماعه وهو في الملكوت الأعلى بين أجداده الكرام:

تضعضع الكون واندكت رواسيه ... واعول الدين ينعى فقد حاميه
والأرض ترجف والأملاك في شغل ... والعلم يذري دماء من مآقيه
والعرب تندب شجواً قطب دارتها ... دور الثقافة تبكيه وترثيه
وناحت الشرعة السمحا مروِّجها ... إذ غاب من كانت العليا تناجيه
حتى الملائكة تبكي في السماء أسىً ... والروح جبريل يلقي من تعازيه
لفقده الشمس قد غابت أشعتها ... وأظلم الأفق واسودت نواحيه
والدهر قد ملأ الدنيا بغاشية ... عمَّ الخلائق جمعاً من نواعيه
يومٌ أطلَّ على الدنيا بجائحةٍ ... تعمي الفؤاد وتدميه تشجيه
مَنْ مبلغ المصطفى والصنو حيدرة ... أن قد غدونا يتامى بعد ماضيه؟
مَنْ للأباة ومن للسائلين ومَنْ ... يكف عنا بلايا مَنْ نعاديه
قل لليتيم وللمسكين إيك أسىً ... راح العماد الذي قد كنت تبغيه
كنا حيارى جميعاً في مسائلنا ... فأفصح الحقَّ في أجلى معانيه
إذا ألمت بنا في الشام نائبةٌ ... وسامنا الدهر خسفاً من نناديه
يرد عنا جماح الدهر سيدنا ... ويوسع الخصم طعناً في بوانيه
ساد الأنام بِخلق من سماحته ... من ذا الذي كان في الدنيا يدانيه
إن عُدَّ من نسك أو زين من أدب ... أو قيس في شرف من ذا يجاريه؟
أدى رسالته للناس قاطبة ... حتى إذا بلغت طابت أمانيه
يا حاملي النعش رفقاً فالقلوب هوت ... هذا الطبيب الذي كنا نوافيه
يا ساكن اللحد . . . هل من نظرة لشجٍ ... تحيي فؤاد الذي قد كنت تحييه
يا صاحب اللطف والإحسان رُدَّ على ... صوت الشريد الذي قد كنت تؤويه
يا زينة الأرض والدنيا ومصلحا ... وجامع الشمل للعرفان تنشيه
ياجهبذ العصر، بل يا زبدة العلما ... ياذا الذي شخصك «العباس» يرثيه
ما إنت إلا سفير عن أئمتنا ... ضل الذي كانت الأهواء تعميه
ثقفت منا دروساً بعد ما بليت ... أظهرت والله ما الأيام تخفيه
أنعشت منا قلوباً بعدما قرحت ... ألفتَ كتباً غدت للعقل تنميه
لو قد صببنا دماء من محاجرنا ... حزناً عليه لما كنا نكافيه
شاء المهيمن أن تحظى بجنته ... وتترك الناس في حزن تعانيه
لو كان يفدى بجمع الناي كلهم ... لكنتُ أوّل من يمضي ويفديه

مولاي . . !، يا أيها الأب الروحي العظيم الذي ترك القلوب ولم ينزل التراب حتى ترك محلاً في القلوب والصدور، ما أحلى ذكرك وما أشهى كلامك وما أعلا مقامك، وحق لنا أن نخاطب صورتك العظيمة التي تزين كل محفل وكتاب ونقول:

ضاق بك الكون على وسعه   كيف حواك اليوم قرطاس

نهجت بالناس سبيل الهدى   وما اهتدى إلا بك الناس

لو كنت تفدى بكل الورى   لكان أول من لبّاك «عباس»

هذه بعض من جوانب السيد محسن الأمين الشعرية، وإنما كانت غيضاً من فيض، وقليلاً من كثير ولو كنا أردنا أن نغوص في أعماق شاعريته لنفدت منا الأوراق، لما كان «رضوان الله عليه» يحتل من منزلة عالية في قلوب كل من رآه أو سمعه وسمع به، فعليه الرحمة والرضوان، والسلام عليه يوم ولد ويوم ارتحل ويوم يبعث حياً.

والحمدلله رب العالمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



السيد محسن الأمين نموذج إصلاحي مسلم

******************* الأستاذ محمد علي شمس الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مما يؤثر عن السيد محسن الأمين. أنه أوصى أن تدفن معه في مثواه الأخير دواتهُ ومجموعة أقلامه[1].

إن هذه الرغبة المؤثرة، لدى الرجل، تصلح أن تكون المفتاح الأساسي لشخصيته المؤسسة على «العلم»[2]، كما نظر إليه في تصانيفه، وكما طبقه في حياته العملية. فهو يعقد في مطلع كتابه «معادن الجواهر ونزهة الخواطر»[3] فصلاً طويلاً (يقع في ٦٥ صفحة) تحت عنوان «المقدمة.. وفيها أمور الأول في فضل التأليف والعلم» معتبراً أن طلب العلم «ضرورة وفضيلة» يدلّ عليها العقل والنقل.

إن السيد محسن الأمين ينحدر إلى هذا «الموقع العلمي» من أصول تاريخية ومعرفية وعائلية ساهمت في بلورة مزاجه الشخصي في الالتصاق بالمحبرة والأقلام، ومنحته هذا الموقع المتقدم كمؤلف موسوعي، فهو، على حد قول الشيخ أحمد رضا عنه «وريث الجبل العاملي.. الذي ما زال منذ القرون

الخـاليـة يطلع على العـالم الإسـلامي بنـوابـغ العلماء ومجتهـدي الفقهـاء الذين أشرقت في أفق الكيان الإسلامي آثارهم الساطعة بنور العلم»[٤].

فالـرجـل في وجهـه العـام، شيعي، عاملي، يحمل فقه المذهب الشيعي، وعراقة الجبل العاملي. والـواقـع أن لعـالم الـدين الشيعي، عموماً كما يتمثل في سيماء وزي السيد محسن الأمين، شيئاً من سيماء النبـوة أو الأئمـة، كما تصـورهم لنـا مخيلتنـا المـدفـوعـة بالـدين. فهو، كما تظهره لنا صورته المطبوعة في الصفحـات الأول من معظم كتبـه: عينـان واضحتـان يقـدح منهما نور غامض، أو شرر، تعلوهما عمامة سوداء، مكوّرة كنصف هلال، ثم ذقن كثّة بيضاء تكمل دورة الهلال... ويدان تمسكان بمقبض عصا كموقع ارتكاز. وسط جبة واسعة وقفطان... حتى كأنّ التوازن الهندسي، في الصورة يرشح من توازن آخـر (إيماني) خلفهـا... أو كأن الصـورة، هنـا، هي صورة «الـروح الشيعية» في عالم الدين. فالزيّ مفصّل على الروح لا على الجسد.

إن جاذبيـة المظهـر لدى السيـد محسن الأمـين، كانت مقـترنـة بهيبة خبره أيضاً، مما كان يولد في النفوس إجلالاً خاصاً به. وهيبة الخبر لدىٰ الرجل، كانت محصلة خلقيته العالية من جهة، ووقوفه مع الناس في أرضيةّ واقعهم المرير، من جهة ثانية. فمن شواهد أخلاقيته «أن آلآلاف ذهباً كانت ترد عليه فما يمسّهـا، ويحـولهـا للحال إلى وجوه الخير»[٥] وإنه كان يباشر بيده في تهيئة طعامه، غير حافل برفاهية مأكل أو مشرب، ولا ملتفت إلى زينة في شارة أو كسوة.. وكذلك شأن العظماء ينكرون ما أسماه نيتشه فلسفة الخياطين «فلا يؤمنون أن الثوب يخلق الراهب»[٦].

كانت هذه الخلقيـة العـاليـة للسيـد محسن الأمين، دليله العملي في تعامله مع الناس. لقد وقف معهم على أرض واقعهم المرير، كما أسلفنا. وليس أشدّ مرارة من واقع العامليين كما شربوه قطرةً قطرة.

لقد لعب الرجل في تلك القرى الجنوبية، دور الطبيب والكاتب والمعلم والمرشد والقاضي وفاتح أبواب السماء للمستجيرين بها (كما ورد في خبر صلاة الاستسقاء التي استمطر بها السيد المطر في سهل الخان قرب تبنين، بعد انقطاعه عن الناس وقحطهم.. وقد نزل المطر على حد تعبيره، بعد الصلاة، بفضلٍ من «العناية» الربانية والألطاف الإلهية»[٧].

إن هذه السـيرة جعلت السيـد الأمـين ضمـيراً شعبياً حقيقياً، كما خوّلته الإمساك بما نستطيع أن نسميه «سلطة الإيمان الديني... التي تجلت بتقليده «كمجتهد أكبر». من قبل عدد كبير من المسلمين الشيعة الذين اتخذوا رسالته «الدرّ الثمين» دليل عبادة وعمل، ومعرفة بأصول الدين الإسلامي.

رسالة التنزيه في أعمال الشبيه.

نتسـاءل: كيف يتعـامـل السيـد محسن الأمـين مع هذه الظاهرة ظاهرة الشعائر التي تقام سنوياً

لإحياء ذكرى واقعة كربلاء، كيف نظر إليها، وما هو التفسير الذي قدمه لفصولها. وهل كان فقيهاً اعتيادياً في حكمه عليها. أم كان عالماً اجتماعياً ومحلّلاً نفسياً سبر أغوار الجماعة البشرية، وأدرك خفايا سلوكها في التعبير عن صبواتها المكبوتة، ورغباتها في التبرير أو الانتقام في هذا العمل من إسقاط الماضي على الحاضر؟ ثم نسأل: كيف واجه الرجل هذا التيار الجارف من السلوك الجمعي للعامة وهل كان يكفي اعتبارهم من العامة أو القشريين أو «الطغام» على حد تعبيره، لتفسير الظاهرة والتصدي للنواحي المرضيّة فيها؟. لقد فعل السيد الأمين ذلك من خلال عمل إصلاحي كبير، أخذ منه الجهد، وجشمه المشقة في التأليف والجدال والرد والمواجهة من خلال رسالته المعروفة بـ «رسالة التنزيه في أعمال الشبيه» والواقع أن الرجوع إلى التسلسل الزمني لكيفية تعامل السيّد الأمين مع «الذكرى الحسينية» أو «المأتم الحسيني» يظهر لنا أن الرجل قد وقف موقفاً نقدياً مبكراً من النصوص التي تُلقى في المجالس الحسينية، ومن خطباء هذه المجالس، ومن أعمال اللطم والتفجّع والتطبير وشقّ الرؤوس التي كانت تصاحب هذا المأتم.

فهو منذ صغره وقد تحدّر من عائلة دينية حسينية عاملية تقيم المأتم وتحافظ على شعائره، لاحظ شيئاً من الخرافة تشوب تلاوة النصّ الحسيني. ويذكر أنه «كان يقرأ، في جبل عامل، في عشر المحرّم، ليلاً فقط في كتاب يسمىّ المجالس، مخطوط من تأليف بعض أهل البحرين فيه عشرة مجالس مطوّلة جداً، يجتمع منها كتاب ضخم، والسعادة العظمى لمن يحظى بهذا الكتاب، ويملكه... ثم يبتدىء (أي الكتاب) في ذكر حديث مكذوب أشبه بالقصص المخترعة في هذا الزمان، أو صحيح ولكن زيد عليه أضعافه من الأكاذيب، في أثنائه وفي آخره.

وهذا الكتاب قد رأيته وأنا صغير السن، وعلق بذهني منه حديث عن فاطمة بنت الحسين عليه السلام أنها رأت طيوراً بيضاء تمرّغت بدم الحسين عليه السلام، وجاءت حتى وقفت على حائط دارها في المدينة»[8] ثم يردف عن هذه القصص، أنها «أشبه بالقصص التي تتلى في المقاهي في هذا العصر»[9].

إن مثل هذه القصص، ينكرها السيد، كما ينكر خرافات أخرى تماثلها في التلاوة، يلحقها بـ «الأخبار المكذوبة والأغلاط الشائنة»[10] على حد تعبيره. فقد «ذكر مرةً رجل واقعة الجمل فقال: كان اسم الجمل عسكر بن مرديه. فقلت في نفسي: الجمل كثيراً ما يعرف باسمه، أما أن يقال ابن فلان أو ابن فلانة، فلم يُسمَعْ به... فسألته: قال هذا موجود في البحار.. فإذا فيه وكان اسم الجمل عسكراً. ثم ابتدأ بكلام جديد، فقال: ابن مردويه..»[11].

ويبدو السيد الأمين، إلى جانب ملاحظته، متأثراً بأستاذٍ يكنّ له الكثير من الاحترام، تلقّى عليه الدراسة في مدرسة بنت جبيل، هو الشيخ موسى شرارة[12]. لذلك فقد وضع نصب عينيه، تأليف

مجالس حسينية خالية من الأخبار المكذوبة، فألّف لواعج الأشجان والمجالس السنّية، لهذه الغاية[١٣] «دليلاً للخطباء ومستنداً للذاكرين يعتمدون عليه في تنقية ما يلقون ويذكرون من سيرة الحسين عليه السلام»[١٤].

كما وضع هذا الأمر بالذات، في جملة منهجه للإصلاح، حين ورد دمشق في أواخر شعبان ١٣١٩هـ/ حسب قوله في كتابة سيرته[١٥].

وقد كانت تقام مظاهر عاشوراء، في دمشق، في السيدة زينب، حين ورد السيد الأمين إليها، بكثير من الاحتفالية التي تقام فيها في النبطية من جبل عامل وفي إيران والعراق، فقرر منع إقامتها بهذا الشكل، مبتدئاً بمقاطعتها «وقاطعها معه وجهاء الطائفة ونخبتها في الشام»[١٦] ثم انتهى الأمر بمنعها في السيدة زينب بتاتاً.

وقد توّج الرجل عمله الإصلاحي هذا، بتأليفه لرسالة «التنزيه في أعمال الشبيه».

إن السيد الأمين يكشف بنفسه السبب الإجتماعي الإصلاحي لتأليف هذه الرسالة في كتابه «خطط جبل عامل»، حيث يذكر تحت باب «عادات عاملية» ما يقوم به العامليون من قرءات وأعمال لإقامة عزاء الحسين عليه السلام في الليالي العشر الحرم. وإن الأساس التمثيلي لعاشوراء قد جاء على يد بعض الإيرانيين المقيمين في النبطية، حيث أرادوا عمل ما يسمونه «الشبيه المشتمل على بعض الأعمال التي لا توافق الشرع، مما اعتاده بعض عوامهم»[١٧] فتصدى لهم العالم المصلح السيد حسن بن يوسف الحسيني العاملي الحبوشي الذي سكن النبطية بعد عودته من العراق، مستعيناً عليهم بقائم مقام صيدا... فما كان منهم إلاّ أن التجأوا إلى والي بيروت، متذرعين بحقهم في إقامة الشعائر الدينية، وأن قائم مقام صيدا يمنعهم من ذلك فصدر أمر الوالي إلى القائم مقام بأن لا يتعرض للإيرانيين في عمل الشبيه وجرح الرؤوس بالقامات فلم يتمكن السيد حينئذٍ من معارضتهم فعملوا ذلك.

وقد اتسع هذا العمل بعد ذلك وساعد عليه بعض من يناله نفع دنيوي[١٨]... وجعل بعض الناس يسميه المواكب الحسينية، كما تسمي بعض الأعمال المعروفة بحلقات الذكر، ولأجله ألفنا رسالة «التنزيه في أعمال الشبيه». كما يذكر في مكان آخر أيضاً أنّ «بعض قناصلة إيران أحدث هذه الشعائر والمواكب الحسينية في المشهد المنسوب إلى السيدة زينب بقرب دمشق»[١٩].

مما لا شك فيه أن الدافع الذي دفع السيد الأمين إلى تأليف رسالة التنزيه هو دافع عقيدي سعى من خلاله إلى إصلاح ديني إجتماعي. فقد تعامل الرجل مع «عاشوراء» على أنها «عمل ديني» لذلك عالجها باجتهاد الحلال والحرام، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهو يعتبر أن عمله من أبواب النهي عن المنكر، كما يقول في بداية الرسالة: «... وبعد، فإن الله سبحانه وتعالى أوجب إنكار المنكر بقدر الإمكان بالقلب أو اليد أو اللسان. ومن أعظم المنكرات اتخاذ البدعة سنة والسنة بدعة»[٢٠].

وقـد كان خصـومـه قد انطلقوا في حوارهم معه من هذا المنطلق الفقهي ذاته. باعتبار هذا العمل يدخل في دائرة الحلال والحرام، فقد جاء في الرسالة ذاتها، على لسان المجهول الذي يناقشه السيد في آرائه[٢١]، عن ضرب الرؤوس ويصفها بآلة جارحة: «. . . وهذا أيضاً مسنون شرعاً، إذ هو ضرب من الحجـامـة، والحجـامـة تلحقهـا الأحكـام الخمسـة التكليفيـة، مبـاحة بالأصل والراجح منها مستحب والرجوع مكروه والمضر محرم والحافظ للصحة واجب»[٢٢]. كما أن عنوان الرسالة، بحد ذاته، يدل على الدائرة الفقهية للموضوع إذ ورد في العنوان: «التنزيه. . يتضمن الكلام على ما يدخل في إقامة العزاء للإمام الحسين الشهيد عليه السلام من المحرمات والتحذير منها» لذلك فهو يعتبر معركته معركة دينية، ويسميها بعض أنصاره «ثورة»[٢٣]. . . ويعتبر هذه المعركة موجهة ضد البدع والمنكرات التي رأى إبليس وأعوانه إدخالها على شعائر الحزن على سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين ابن علي عليهما السلام[٢٤].

فما هي هذه المنكـرات أو المحـرمـات التي يرتكبهـا العـوام في عاشوراء، بتسويلات من إبليس أو الشيطان وعلى حد تعبيره، وقام هو بعمله الإصلاحي للتصدي لها. . .؟

منها بحسب رأيه:

١ ـ الكذب.

٢ ـ إيـذاء النفس وإدخـال الضـرر عليهـا بضـرب الـرؤوس وجرحها بالمدي والسيوف حتى يسيل دمُها كثيراً. وضرب الظهور بسلاسل الحديد، وغير ذلك.

٣ ـ استعمال آلات اللهو كالطبل والزمر «الدمام» والصنج النحاسية وغير ذلك.

٤ ـ تشبه الرجال بالنساء في وقت التمثيل.

٥ ـ إركاب النساء الهوادج مكشفات الوجوه.

٦ ـ صياح النساء بمسمع من الرجال الأجانب.

٧ ـ الصياح والزعيق بالأصوات المنكرة القبيحة.

٨ ـ كل ما موجب الهتك والشنعة»[٢٥]. .

إن سبب حرمة هذه الأمور برأيه، هو «نص الشرع وحكم العقل»[٢٦].

أمـا الأمـر الأول، وهـو تنقيـة المجـالس الحسينيـة من الكـذب، فقـد تصدىّ له بمجهود تأليفي تعليمي في كتـابيـه المعـروفين: المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية ـ بأجزائه الثلاثة. . . ولواعج الأشجان في مقتل الإمام أبي عبدالله الحسين. . ويليه كتاب أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثار.

وقـد تعهـد السيـد الأمـين، في هذا المجـال، «النص الحسيني» و«الخطيب الحسيني» في مجالس التعزية. فأما من جهة «النص» فقد اختار للمجالس السنية، الأخبار الصحيحة الموثوقة، وأسقط منها

ما كان قد شاب هذه المجالس من أخبار مدسوسة مكذوبة، وتهاويل ومبالغات ينفر منها الذوق وينكرها الدين، وتدخل في باب الاختلاق.

أم من جهة «الخطباء»، فقد «اختط الإصلاح خطة عملية صحيحة، ففرض على الخطباء رقابة عسيرة تولاها بنفسه منعتهم من أن يسترسلوا في التهويل والتهويش، وكان إذا سمع من أحدهم، وهو على المنبر، كلمة لا ترضيه، لا يتوانى عن أن ينبهه في الحال وأن يقطع عليه خطابه ليصححها في أذهان الجمهور المستمع ثم يأمر الخطيب بمعاودة الكلام . . . وحسبك أنه اختار فيهم من يحسن لغة أجنبية ليكون أكثر وعياً وأبعد إدراكاً»(٢٧).

إنه بهذا العمل المزدوج، في إصلاح النصّ والخطيب معاً، قد قام بعمل تعليمي متكامل كان من نتيجته تهيئة جيل من المقرئين الجدد لمجالس التعزية الحسينية . . . أما سائر أمور الإصلاح العاشورائي التي ذكرها في رسالة التنزيه، فقد خاض في سبيلها معارك حقيقية، مع قطاع واسع من رجال الدين والسياسة ومع العامة من الشعب. وإننا نجد في هذه الرسالة نقاشاً فقهياً لخصومه من رجال الدين، كما نجد عرضاً وافياً لتفاصيل «معركته» في كتاب «السيد محسن الأمين/سيرته بقلمه وأقلام آخرين»، وفي مقال ابراهيم فران الذي كتبه بعنوان «رأيان مختلفان في كيفية إقامة عاشوراء» ونشر مع سلسلة أحاديث أخرى، في كتاب «حلقة دراسية حول عاشوراء» المشار إليه سابقاً.

جاءت رسالة «التنزيه . . » بمثابة ردّ على «مجهول» كما سبقت الإشارة. والتسمية، في الأصل، تشير إلى المعنى التمثيلي لواقعة عاشوراء/الذي ينكره السيد الأمين.

فكلمة «الشبيه» تعني «شبيه الحسين» الذي تنتهي التمثيلية بمقتله. أما «المجهول» حسب ما ورد في الرسالة، فهو في واقع الحال والأمر معلوم ومعروف. إن الشيخ عبد الحسين صادق الذي يبدو أن السيد الأمين قد عامله بالمثل، في مجال إنكار الإسم. . وهذا التجاهل المتبادل، بين الرجلين، يمكن إرجاعه بسبب الخصومة إلى رغبة نفسية لدى كلٍ منهما في إلغاء خصمه، فيلجأ إلى طمس اسمه وشخصيته.

ولا يكتفي السيد الأمين بطمس اسم خصمه، وهويته، بل هو يطمس الأثر الذي يرد عليه أيضاً، وذلك بتسميته «أوراق مطبوعة»(٢٨)، ثم يهزأ من تسمية صاحبها بالمصلح الكبير، قائلاً «أفهذا هو الإصلاح»(٢٩).

كان لرسالة التنزيه صدى واسع على أكثر من صعيد، ويذكر السيد الأمين في كتابه لسيرته(٣٠) طرفاً من أثر هذه الرسالة في نفوس بعض الناس، حيث يقول: «قام لها (أي الرسالة) بعض الناس وقعدوا، وأبرقوا، وأرعدوا، وجاشوا، وأزبدوا، وهيّجوا طغام العوام والقشريين ممن ينسب للدين، فذهب زبدهم جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض».

والـواقـع أن الـرسـالـة حركت في المجتمع الذي قذفت فيه، دوائر عديدة، وانقسامات في الواقع الشعبي والديني والسياسي، كما تركت بصمات في التعبير الأدبي والشعري. إن أبرز ما في محاولة السيد الأمين الإصلاحية، هو مجابهته للعامة في نقطة أساسية من معتقدها الديني المتحوّل إلى سلوك طقسي عاطفي، يُحِلُّ محلّ العقل والتاريخ معاً، مجموعة من السير والعادات، يختلط فيها إسقاط الماضي على الحاضر، برغبات دفينة وغامضة في التكفير والاحتجاج... وذلك بواسطة الحشد وتعذيب جماعي للذات. لذلك فإن التصدي لمثل هذه الظاهرة، لم يكن يعوزه عنصر «المغامرة»[٣١]. كما يقول حسين مروّة.

إن أول ردة فعل شعبية على دعوة «التنزيه» كانت مزيداً من التمسك بالشعائر الحسينية، في وجهها التمثيلي والتنكيلي. فقد قابلت النجف وسائر المدن العراقية، دعوة السيد محسن برد فعل قوي ظهر أثره في أوّل المحرم الذي جاء بعد الفتوى. فقد ازداد عدد الضاربين بالسلاسل والسيوف وازداد استعمال الطبول والصنوج والأبواق، وكثرت الأهازيج والأناشيد التي تتضمن النقمة والتحدي لتلك الدعوة الإصلاحية»[٣٢].

وإذا كان الجمهور العام قد وقف هذا الموقف الرافض من «فتوى إجتهادية» لا نملك من وسائل فرضها عليه سوى قوة منطقها الداخلي، فإن هذا الجمهور قد تصدّى لمن يملك أكثر من المنطق الداخلي في إيقاف المراسم الحسينية. تصدىّ لبعض الحكومات في إيران والعراق، حين حاولت «منع قيام تلك المراسم أو قمعها على الأقل»[٣٣]، ووصلت المعارضة الشديدة من جانب الجمهور في بعض الأحيان إلى حد الإصطدام المسلّح مع قوى الأمن وسقوط جرحى[٣٤].

والـواقـع أن المعارضة الشعبية لدعوة السيد محسن الأمين، قد بلغت حداً من الهياج دفع بعض مناصريه إلى الكتابة إليه «يرجونه لسحب الرسالة من المكتبات وإخفائها عن العيون»[٣٥] خوفاً على شخصه من التعرض للأذى. كما شاع على ألسنة الناس بيت من الشعر، وقد حفظناه ونحن صغار السن، من السنة العامة، دون أن نعرف قائله، أو كلماته بالضبط، وهو وليد الاشاعة وترويج الذم.

يا عابراً إمّا مررت بجلّقٍ — فاعبث ببيت أمينها المتزندق

أو بقبر أمينها المتزندق

فالتطرف الشعبي وصل إلى حد إخراج السيد الأمين من دائرة الدين[٣٦]، وإلى التعرض لمؤازريه بالضرب والتهديد «فكثر الاعتداء على الأشخاص، وأهين عدد كبير من الناس، وضرب البعض منهم ضرباً مبرحاً»[٣٧] كما يروي السيد جعفر الخليلي، وهو من مؤازري السيد الأمين في النجف الأشرف، أنه كان يجد في كثير من الأحيان رسالتين أو أكثر قد « أُلقي بها تحت الباب، وتتضمن إلى جانب التهديد بالقتل شتائم عجيبة غريبة»[٣٨] فكان يسرع إلى إلتقاطها وإخفائها عن والدة ملتهبة

العاطفة تخشى عليه الأذى، إذا عرفت بالرسائل (على حد قوله).

والواقع أن التصدي للحشد الشعبي الهائل الذي كان يتظاهر تظاهرات مفجعة أيام المحرّم من كل عام، كان لا بد أن يلاقي هذا النوع من ردود الفعل، سيّما أن التعامل مع مثل هذه الكتلة البشرية الدينية/العاطفية[٣٩] لم يكن تعاملاً فقهياً فحسب.. بل كان تعاملاً سياسياً واجتماعياً كذلك[٤٠].

فالتجاذب السياسي على هذاالحشد الشعبي، كما تجلّى في مواقف ممثليه السياسيين البارزين: يوسف الزين من جهة، وكامل الأسعد من جهة ثانية... كان يستعين في معركته، برموز ذات نفوذ معنوي على الجمهور، وأهم هذه الرموز رجال الدين، نظراً لما يملكون من هيمنة على نفوس العامة. وهكذا تقاطع الشرخ السياسي المحلي مع الخلاف الديني، فدعم التيار الأسعدي الشيخ عبد الحسين صادق في موقفه المؤيد للشعائر، ودعم الاتجاه الزيني السيد الأمين في موقفه المعارض. وقد وقف إلى جانب الشيخ صادق عدد من علماء الدين، منهم السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد نور الدين شرف الدين. والشيخ عبدالله سبيتي والشيخ مرتضى آل ياسين[٤١].

أم الصف الآخر المؤيد للسيد الأمين، فقد ضمّ عدداً من رجال الدين في جبل عامل، كان أبرزهم الشيخ أحمد رضا (رجل الدين واللغوي والمؤرخ المعروف) والشيخ سليمان ظاهر (رجل الدين والشاعر المعروف) وكلاهما من النبيطية. ولكنّ هذه العاصفة التي انطلقت من دمشق، ومن جبل عامل، تعدّت بآثارها حدود هذين القطرين، وصولاً إلى كافة أرجاء العالم الإسلامي الشيعي المعروف آنذاك. وقد لعب العامليون المقيمون في إيران والعراق دوراً في تأجيج الانقسام حولها، بين مؤيد ومعارض. فقد ظهر لها مؤيدون في العراق أمثال السيد أبو الحسن الأصفهاني الذي أفتى بحرمة الضرب بالسيف والاستاذ جعفر الخليلي صاحب جريدة الهاتف العراقية في النجف، والشيخ مهدي القزويني في البصرة، والسيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني في بغداد، كما ظهر لها مؤيدون في الهند «فكان ممن أيد الدعوة بحماسة، الكاتب الهندي محمد علي سالمين صاحب جريدة (ديوائن ميسج) التي تصدر في بومباي يومياً باللغة الانكليزية، فكتب مقالاً نشر بالعربية، وكان للصحافة كذلك دور واسع في تحريك هذه الظاهرة، فكتبت مقالات عديدة، بعضها باسم مستعار، مع السيد الأمين، وبعضها ضده، فكتب أثنان من أنصاره، وقع أحدهما مقاله بتوقيع (حبيب بن مظاهر) ووقع الثاني بتوقيع (أبو فراس)، كما كتب بعض الشعر فيها، ومن ذلك قصيدة للشيخ مهدي الحجار، فيقول فيها:

يا حر رأيك لا تحفل بمنتقدِ ... إنّ الحقيقة لا تخفى على أحد

وتراكم حولها النسيج الإعلامي والشعبي حتى أخذت دوراً يفوق ما تستحقه بالفعل. ومن الطريف حقاً هنا إيراد التسمية الشعبية التي أطلقت على أنصار السيد محسن الأمين في هذه المعركة وهي تسمية «الأمويين»[٤٢]، كما أطلق على خصومه تسمية العلويين.. والتسمية الأولى (الأمويون) تنمّ عن

رغبة إغراق الخصم ووصمه بلقب ينفر منه الشيعة، وهو يستحق اللعن في نظرهم.

كيف واجه السيد محسن الأمين هذه الموجة العارمة من الرفض والخصومة لرسالته؟

أول ما يسجّل للرجل في هذا المجال، جرأته وصلابته في التصدي والمواجهة، فمن مظاهر الجرأة، مثلاً، اختراقه لسدّ الكراهية المقام ضده في النجف، وقيامه بزيارة إلى هناك، يذكر تفاصيلها في سيرته الشخصيّة «حيث بولغ في إكرامه والحفاوة به، وكثرت الولائم والدعوات التي أقيمت له» ولم يخرج من النجف حتى سقطت تسمية «العلويين والأمويين» من الأفواه فلم يعد أحد يقسم الناس إلى قسمين»(٤٣) وذلك أنه، حسب تعبير الخليلي عنه «كانت له جاذبيته وسحره»(٤٤).

كما أنه حين طلب منه مؤازروه سحب أعداد رسالة التنزيه من الأسواق، خوفاً عليه من الأذى، أجاب بأنه زاد أعدادها، وضاعف الكميات المطروحة.

والواقع أن السيد الأمين عريق في مجابهة (الجمهور) في ما يعتقده خرافةً أو خطأ وانحرافاً في الدين أو الشعائر. فهو لا يدخر وسعاً في انتقاد العادات العاشورائية، ليس فقط في دمشق وجبل عامل، بل في كل بلد يزوره أو قطر يمر فيه. فهو ينتقد مثلاً في رحلته الإيرانية العراقية وأثناء مروره بمصر «إقامة عزاء سيد الشهداء في أيام عاشوراء على يد الإيرانيين»(٤٥) تحت باب «تكايا الإيرانيين في مصر وإقامة عزاء الحسين».

ويذكر «أن الله وفّق.. لوجود شخص من فضلاء سادات آل مرتضى في دمشق، قد ألمّ ببعض طريقتنا التي نتوخاها منذ سنين... وطبعها ونشرها فصار يذهب إلى مصر في العاشوراء بطلب من أهلها، ويظهر بقراءته محاسن إقامة العزاء على ذلك الطراز»(٤٦).

كما كان في رحلاته، نقّاداً لعادات العوام أو العادات الشعبية، كنقده لعادات ضرب الطبول أمام الجنائز، في النجف واعتبارها «منكرات» على حد تعبيره.

وقد سجّل عنه معايشوه هذه الظاهرة، فكتب عنه صديقه محمد أحمد علي صندوق، في مقدمة، «المجالس السنيةّ» أنه كان «يصادم الجماهير بغير ما تعتقد، ويواجه الجموع بغير ما ترى»(٤٧). والواقع أن السيد محسن الأمين، في عمله الصدامي ذاك، كان مزوّداً بعدّة فقهية قوية، هي حجته في الرأي والعمل. هذه الحجة قرع بها الجمهور قرعاً عنيفاً، وأطلق عليه ألقاباً وتسميات تنمّ عن جرأته عليه، فتارة يسميه «العوام» وتارة «الطغام»، أو «السواد».. وإن أبلغ جملة تختصر موقفه الفقهي الإجتماعي في هذه المسألة، قوله: «الأسماء لا تغير حقائق الأشياء وعادات الطغام من العوام لا تكون دليلاً للأحكام»(٤٨).

الجهد الإصلاحي في حقل التعليم والمدارس الدينية.

ما العلم في نظر السيد محسن الأمين؟

تتدرج أفكار الرجل في هذه المسألة، تدرجاً نلمسه في نصوصه المكتوبة من «نظرة إلى العلم» إلى «نظرية في العلم». وهذه الأفكار نجدها مبثوثة في مجمل كتبه، إلا أنها تتظافر وتتجمع متفرقاتها في مقدمة الجزء الأول من كتابه «معادن الجواهر ونزهة الخواطر» لتشكل رأيه المتبلور في هذه المسألة، على امتداد أربعين صفحة أو نيّف، أرادها الرجل أن تكون «مقدمة للكتاب» على ما يقول.

إن الجملة التي اختارها كعنوان لمقدمته تلك، هي «في فضل التأليف والعلم». . وقد أورد تحتها مجموعة وافية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأحاديث أهل البيت، تحضّ على «طلب العلم» كما تحض على «تدوينه» والعمل به».

وإن المرافقة التدريجية لهذه المقدمة الطويلة، تتيح مجالاً لأسئلة تواجهنا، وهي: أي علم يقصد المؤلف بهذا العنوان؟ هل يقصد العلم النافع للدين والدنيا معاً؟ هل يشمل العلوم العصرية به. . ماذا يقصد بالكتابة؟ أهي الحفظ بالتدوين؟ خطة حفظ المعرفة وبثها. . وأية معرفة هي المقصودة من وراء ذلك كله؟.

من الآيات التي يوردها المؤلف بفضل العلم والحضّ عليه، الآية الواردة في سورة العلق **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، أقرأ وربُّك الأكرم، الذي علم بالقلم، علّم الإنسان مالم يعلم﴾** حيث افتتح الله كلامه المجيد بذكر نعمة الإيجاد، وأتبعه بذكر نعمة العلم[٤٩] وقد اعتبر أن هذه الآية تشير إلى الإنسان في مستواه الأدنى (وهو علَقَةٌ)، وإلى الإنسان وهو في مستواه الأكمل (وهو عالم). . .

كما يورد أقوالاً عن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في شرف العلم والحض على تقييده. ومنها قوله (ص): [قيدوا العلم قيل: وما تقييد العلم؟ قال: كتابته][٥٠].

وهو يعتبر العلم ضرورةً، بدليلي العقل والشرع معاً: «أعلم أن فضيلة العلم وارتفاع درجته، أمر كفى انتظامه في سلك الضرورة، مؤونة الاهتمام ببيانه»[٥١].

فأما دليل «العقل» على هذه الضرورة، فيورد المؤلف في جمل تذكرنا بالجمل الفلسفية التي أوردها الفارابي وابن سينا في هذا المجال، حول تراتب المخلوقات. إنه يقول: «أما العقل، فدلالته على فضل العلم من وجهيه: الأول أن الأشياء تنقسم إلى موجود ومعدوم. والموجود أشرف من المعدوم ببديهة العقل والموجود ينقسم إلى جماد ونامٍ والنامي أشرف من الجامد. والنامي ينقسم إلى حساس وغيره، والحساس أشرف من غيره. والحساس ينقسم إلى عاقل وغير عاقل والعاقل أشرف من غيره. .

والعاقل ينقسم إلى عالم وجاهل، والعالم أشرف من الجاهل. كل ذلك ببداهة العقل، فالعالم أشرف الموجودات.

والثاني أن الأمور على أربعة اقسام: قسم يرضاه العقل ولا ترضاه الشهوة، وقسم عكسه، وقسم يرضيانه وقسم لا يرضيانه... فالأول كالأمراض والمكاره في الدنيا، والثاني المعاصي، والثالث العلم والرابع الجهل»[٥٢].

ثم ينصرف بعد ذلك إلى دلالة الشرع، من آيات وأحاديث، في القرآن والسنّة، ويظهر من الأحاديث التي يوردها، أن العلم «فريضة» أي «واجب ديني» «العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[٥٣].

وأن طلبه «أفضل العبادة»[٥٤] ... بل هو يورد أحاديث تبيّن فضل «العالم» على «العابد».. وقال (أي الرسول ص) لعليّ (عليه السلام): [ركعتان يصليهما العالم أفضل من سبعين ركعة يصليها العابد].
وقال عليه السلام: «ساعة العالم يتكىء على فراشه، ينظر في علم، خير من عبادة سبعين سنة»[٥٥].

وينتقل بعد ذلك لأحاديث في العلم، يرشح منها معنى (سياسي/قيادي) للعالم، يتصل بمفهوم «ولاية الفقيه».. كقوله (ص): [العلماء ورثة الأنبياء. العلماء أمناء الله على خلقه. العلماء أمناء أمتي][٥٦]. أو قوله: [الأنبياء قادة، والفقهاء سادة][٥٧].
وذلك عبر تصّوره لإمامة العلم أو «سلطة المعرفة» يقرّبه من تصوّر الفلاسفة الإسلامي، ونظرتهم في الحاكم/الفيلسوف، كتصور حاكم المدينة الفاضلة لدى الفارابي مثلاً. وهو يدعم هذا التصور بابيات من الشعر. منها على سبيل المثال:

وإنما العلم لأربابه ولايةٌ ليس لها عزلُ

أو:

إذا ما اعتزّ ذو علمٍ بعلمٍ فعلمُ الشرعِ أولى باعتزاز[٥٨]

فالعلم ولاية. والعلم المقصود هنا هو علم الشرع..

نعود إلى سؤالنا الأساسي: أي علم يقصد المؤلف؟ ذلك أنه، بعد إيراد ثلاثٍ وأربعين آية مجملة في العلم، لا يركز فيها على اختيار معنى محدّد، أو تفسير لمعنى معين.. تبدأ الإشارات لديه إلى أن العلم المقصود، هو علم «التوحيد» أو «الحكمة» «وإن الله قد أحاط بكل شيءٍ علماً».
فجعل العلم علة لخلق العالم العلوي والسفلي، وكفى بذلك دلالة على شرف العلم، لاسيما علم التوحيد، «ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً». وفسرّ الحكمة، في هذه الآية. وفي آية ﴿وآتيناهُ الحكم صبياً﴾ وغيرها بمواعظ القرآن، والعلم والفهم والنبوّة والكل يرجع إلى العلم»[٥٩].

فالعلم إذن، هو «علم التوحيد» أو «الحكمة» أو «العلم الإلهي»... والمعرفة هي في الأساس،

«معرفة دينية» وتأتي نقيضاً للجاهلية. . فهي المعرفة التي أتى بها الإسلام.
أما مصدر هذا العلم، فهو «تصّور إلهي» بحجّة الآية الكريمة: ﴿وأعلم من الله مالا تعلمون﴾ والآية ﴿وتلك حدود الله نبينها لقومٍ يعلمون﴾[٦٠]. أما هل إن هذا الأصل هو مصدر تلقيني أم هو مجرّد مصدر أصل كنور الشمس من الشمس مثلاً، على حد التصور الفلسفي (لدى الفارابي وابن سينا، تأثراً بأفلاطون في نظرية الفيض). . فإن السيد الأمين يعتقد أن هذا المصدر هو تعليمي، تلقيني، متوارث

ويورد الحديثالشريف: [العلماء ورثة الأنبياء][٦١].
وهو في جملة الأحاديث التي يوردها، دون تنسيبها إلى موضوع محدد، أوباب معيّن، أومعنى تندرج تحته بأوصافها، يذكر أحاديث تنمّ عن «وظيفة العلم»، حسب تصوره، ومنها ما جاء عن عليّ (عليه السلام) في فضل العلم «بالعلم يطاع ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحدّ، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، والعلم إمام العقل والعقل تابعه»[٦٢]. وجملة أحاديث أخرى عن أهل البيت عليهم السلام، تنمّ على أن المؤلف يقصد بالعلم اتصال العلم المنقول بالعلم المحفوظ. . وهو متوارث لدى آل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، عن الرسول عن الله عزّ وجلّ. .
قال الإمام العسكري، عليه السلام: «. . ألا فمن هداه وأرشده وعلمه شريعتنا، كان معنا في الرفيق الأعلى، حدّثني بذلك أبي عن أبيه عن آبائه عن رسول الله»[٦٣].

وهكذا، بعد أن يورد الرجل أربعين صفحة في العلم وحوله، بعمومياته، يصل إلى التخصيص بتعريف العلم المقصود، وتبويب العلوم، ومراتبها، بحسب تصوره، ويورد ذلك جميعاً، تحت باب «إصلاح المدارس الدينية»

إن القاعدة الجوهرية التي يعتمدها الأمين لمعنى العلم ورتبته، هي التالية، وقد أوردها في بداية هذا الباب، حيث يقول: «إعلم أن شرف العلم باعتبار شرف المعلوم»[٦٤]. . ثم يورد مراتب العلوم على الوجه التالي: «فأشرف العلوم وأعلاها معرفة الله تعالى، أي علم التوحيد، لأن معلومه أشرف المعلومات، وغايته أفضل الغايات. ثم علم الفقه الذي به نعرف الأحكام، ويميّز الحلال من الحرام. وقد نص كثير من كتب الأحاديث السابقة على شرف علم الفقه وعلو مرتبته، ويدخل فيه معرفة أحاديث النبي (ص) وآله وأهل بيته (ع) التي هي العمدة. . وعليها مدار الفقه في الدين، وقد مرّ في بعض الأحاديث، تفضيل حديث واحد في الحلال والحرام على الدنيا وما فيها.

ويتبع علم الفقه في الفضيلة ما يتوقف عليه من المقدمات، كمسائل الأصول والدراية والرجال والتفسير والنحو والصرف واللغة وغيرها. . ومن ذلك يعرف أن فضلها باعتبار توقف العلم الفاضل عليها، فعلى الطالب أن يأخذ منها بقدر الحاجة، فإذا زاد كان لغواً، بل ربما كان منسوباً لبعض العلوم الواجبة فيكون حراماً، كما أن التقصير عن قدر الحاجة فيها مفوت للغرض»[٦٥].

وهو يعود إلى هذه التراتبية، إنما بتفصيل أوفى، في الصفحات ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، من كتابه المذكور، حيث يعتبر علم التوحيد هو الأشرف بين العلوم، يليه علوم الفقه. أما باقي العلوم كالحساب والطب والهندسة وعلم الهيئة والجغرافيا والتاريخ وفن الشعر والعروض وغير ذلك، ففضلها وشرفها باعتبار غاياتها وفوائدها. فمنها ما يعين على معرفة العلوم الفاضلة ويوجب القوة فيها، وزيادة المهارة فيكون له شرف بهذا الاعتبار، وإن كان مستغنى عنه، إلا أنه من المحسنات كفنون الشعر ومعرفة كلام العرب، المعين على فهم الكتاب والسنة..

ومنها ماتكون له فوائد دنيوية فقط، كعلم الحساب الذي يستعان به على أمور المعاش، وربما استعان به الفقيه في فنه في أبواب كثيرة، لاسيما المواريث.. وكذا الهندسة التي يحتاج إليها في البناء ومساحة الأرضيين وفي أمور كثيرة تتعلق بالمعاش. وقد تنفع طالب الدين في معرفة الله في مختلف الأشكال، وغير ذلك، وأما علم الطب فمن العلوم المهمة لتوقف حفظ الصحة عليه، وأما علم الهيئة فينفع في معرفة العتلة ومعرفة الزوال وبه يستدل على عجائب قدرة الله تعالى، وقد قيل إنّ في قوله تعالى ﴿**ويتفكرون في خلق السماوات والأرض. ربنا ماخلقت هذا باطلا**﴾(الآية) دلالة على شرف علم الهيئة، والتاريخ يفيد الإطلاع على أحوال الماضين خيرها وشرها فيعين على الإقتداء بهم في الخير وتجنب الشر... وقد ينفع الفقيه في معرفة ما فتح عنوة من الأرضين وما فتح صلحاً... وقد يكون في الجغرافيا بعض الفوائدالتي سبقت لهذه العلوم. وأما العروض فيعرف به أوزان الشعر. وأما العلوم الراجعة إلى الصناعات فيجب على الناس تعلمها. كفاية ومع وجود من يحصل به سدّ حاجة الناس، يكون تعلمها راجحاً عيناً ولا سيما في مثل هذا الزمان الذي ارتقت فيه الصناعات ارتقاء باهراً... كما أن تعلّم اللغات، وسائر العلوم العصرية راجح في نفسه بل واجب على المسلمين كفايةً.. وإنما يحرّم بما يعرض له من عوارض خارجية - كتعلمه في المدارس التي انشئت للتبشير بغير دين الإسلام أو التي تجر إلى الإلحاد..»[٦٦].

.. وهكذا، فهذه العلوم، بكافة وجوهها، هي واجبة أصلاً، ضمن حدود انسجامها مع العقيدة الإسلامية. أو عدم توجهها ضد هذه العقيدة. كذلك شرط «عدم تلقينها في مدارس تبشر بغير دين الإسلام، أو تجر إلى الإلحاد». ومدلول هذا الشرط هو أن هذه العلوم لا يجوز أن يتلقنها المسلم في مدرسة تبشيرية - مثلاً، وهذا ما يدعو إلى مقاطعة المدارس والبعثات التبشيرية المسيحية والإنجيلية عامة. ولكنْ: هل يجوز أن يتلقنها المسلم عن مسيحي أو ملحد، ضمن مؤسسة إسلامية أو علمانية كمؤسسات الدولة مثلاً؟

إن هذه التفاصيل لا يطرحها السيد الأمين، ولكننا نميل إلى اعتقاده بجواز ذلك، سبب سلوكه العملي التعليمي والتربوي في المدارس التي أنشأها فقد ورد أن أساتذتها كانوا من جميع الطوائف[٦٧].

إصلاح المدارس الدينية

لقد اعتبر السيد محسن الأمين «ترك العمل» من الآفات المهلكة للعلم. لذلك فإن تطبيقه العملي لنظريته في «العلم» جاء في جهده التعليمي المتنوّع، الذي مارسه طيلة حياته. فقد قضى الرجل حياته (متعلماً ـ معلماً)، وهذه السمة هي من سماته التي قرّبت بينه وبين إصلاحي آخر. هو الشيخ محمد عبده، الذي كان يبدي إعجابه به في مجالسه العامة[٦٨]، ويتشابه معه في بعض مناحي إصلاح التعليم الديني في المدارس المكرسة لهذا التعليم، خصوصاً في الأزهر والنجف. وقد وصف أحمد أمين الشيخ محمد عبده بدوره، بأنه كان «عالماً ومعلماً»[٦٩]

وفضلاً عن أن الرجل كان لديه في منزله في دمشق، شكل من المدرسة (تختلف عن المدرسة النظامية التي أنشأها)، وقد اتسمت هذه المدرسة أو الحلقة، بشيء من الانضباط وانعقدت بشكل حلقة يومية يحضرها التاجر والسياسي والمثقف والطبيب وعامة الناس.. ويلقي فيها السيد دروساً في الثقافة الدينية واللغة العربية بفروعها، والصرف والنحو والنقد والأدب، والأصول والفقه... الخ[٧٠].

وفضلاً عن أنه كان يعقد في منزله أيضاً حلقة أسبوعية كانت تسمى حلقة الأربعاء، وردت بعض أخبارها في كتاب سيرته... وكانت على شكل «صالون أدبي» تقرأ فيه الأشعار وتدار شتى الأحاديث الأدبية والاجتماعية، على اختلاف نواحيها.. وفضلاً عن إنشائه للجمعيات كجمعية الاهتمام بتعليم الفقراء والأيتام... وجمعية الإحسان وجمعية المؤاساة.. نقول بالرغم من كل ذلك، فقد اهتم السيد الأمين بإصلاح المدارس الدينية، اهتماماً أساسياً، كما اهتم بإصلاح النجف الأشرف، وأنشأ المدرسة العلوية في دمشق (التي سميت فيما بعد المدرسة المحسنية)، كما أنشأ مدرسة للبنات في دمشق، سميت المدرسة اليوسفية.

والواقع أن النقطة الأولى من مختصر منهجه الإصلاحي الذي وضعه في دمشق، هي نقطة تعليمية. فقد ذكر أنه، حين ورد دمشق، في أواخر سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م وجد أموراً ثلاثة هي علة العلل، ولا بد في إصلاح المجتمع من النظر في إصلاحها. وأول هذه الأمور «الأمية والجهل المطبق، فقد وجدنا معظم الأطفال يبقون أميين بدون تعليم. وبعضهم يتعلمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم»[٧١].

نعتقد أن الفكرة الإصلاحية التعليمية للسيد الأمين، هي دينية في الأساس. فهو بالإضافة إلى ملاحظته حول تردي الواقع التعليمي والتربوي لمعظم الأطفال في دمشق كان قد لفتته مسألة إصلاح أساليب ومناهج وكتب التعليم في النجف الأشرف ـ كما سبق وشغلت قضية إصلاح الأزهر سلفه الشيخ محمد عبده في مصر.

وقد حاول السيد الأمين أن يطبق أفكاره الإصلاحية في التعليم الديني، وإصلاح النجف

الأشرف، في المدرسة التي أنشأها في دمشق (المدرسة العلوية) وفي مدرسة البنات (اليوسفية)، كما سبق ذكره

فقد كانت المدرسة العلوية، في أول أمرها، داراً عاديّةً في دمشق، نُقل إليها «كُتّاب الملّة»[٧٢] على حد تعبيره.. ثم تطورت إلى أن أصبحت «على أتم نظام وأحسن انتظام ذات صفوف ثانوية وقسم داخلي، تفوق جميع مدارس دمشق التي من نوعها، بحسن تنظيمها، والمحافظة فيها على التحلي بالأخلاق الإسلامية الفاضلة، ونجاح طلابها في الامتحانات مائة بالمائة، وأصبحت الطلاب تتهافت عليها من جميع الأحياء، لما يرى أولياؤ هم من تهذيب أخلاق أولادهم، ونجاحهم حتى صار يضطرنا الحال، أحياناً، إلى رد طلبهم لضيق المكان فيلحون علينا ويصرون ووضعنا لكل صف فيها كتاباً للمحفوظات، وكتباً تسعة للعقائد، والأحكام الشرعية من العبادات والمعاملات والمواريث والحدود والديانات وتفسير عدة من الآيات القرآنية، وقسم من الأخلاقيات، وطبعت هذه الكتب وانتشرت في باقي المدارس وعمّ نفعها وترجمت إلى الفارسية»[٧٣]

والواقع أن منهجه النظري في إصلاح النجف الأشرف، قد حاول تطبيقه على الذكور والإناث في المدرسة العلوية والمدرسة اليوسفية على حد سواء. فتخرج من المدرسة العلوية عدد غير قليل من رجال سوريا ولبنان وشبابه المثقف. ففد لاحظ ما يكابد شراة العلم من الغموض والتعقيد الملحوظ في كتب الدراسة القديمة المجردة في الفقه والأصول وفي غير ذلك من العلوم فتركها وشأنها. ووضع بنفسه وبمفرده كتباً حديثة سهلة التناول يعول عليها الطلاب في مدارسه في دمشق وغيرها إلى اليوم»[٧٤].

ويروي الشيخ محمد رضاالشبيبي، في مقال له عن السيد الأمين، أنه ثار مرة أمامه على «أحد الأساتذة الجامدين الذين يقدسون طريقة القدامى ويحرصون على ألاّ تمسّ، وأن تبقى كتبهم على ما هي عليه، قائلاً: لماذا نحذو حذوا الأقدمين، هم رجال ونحن رجال» وكان ذلك سنة ١٩٢٠ في مجلسنا بدمشق الشام[٨٥].

وقد لاحظ السيد محسن الأمين ما يشوب كتب التدريس في النجف الأشرف، وفي سواها من مدارس دمشق وجبل عامل، من أمور مضرّة «من عدم تهذيبها وتنقيحها. وتحسين عبارتها، وحذف الفضول منها، وحذف ماهو من علوم أخرى لم يتعلمها الطالب بعد، أو لا يتعلمها أصلاً»[٧٦].. وهذه كتب الأصول المتداول قراءتها، كالمعالم والقوانين والرسائل والكفاية، محتاجة إلى تهذيب... والقوانين من عجمة عبارتها واستفلات كثير منها لا تصلح للتدريس، وتحتاج إلى التهذيب.. والرسائل.. محتاجة إلى التهذيب.. بحذف بعض الإطالات أو اختصارها»[٧٧].

فعزم على استبدالها بسواها، مقترحاً إنشاء لجنة للتأليف تتألف من «أفاضل العلماء بينهم العريقون في علم العربية، فتضع في كل علم ثلاثة كتب، مختصر ومتوسط ومطوّل... تنتقى من هذه

المؤلفات الشهيرة ويكون عليها مدار التدريس في مدرسة النجف الأشرف الكبرى، وتتبعها سائر المدارس في أقطار البلاد. . . بعد أن تفرض هذه الكتب على أنظار كبار العلماء ويرضوا بها ويقرروا تدريسها»[٧٨].

ذلك أن طريقة التدريس المتبعة يومذاك في النجف، كانت دون ضوابط سواء من حيث حلقات التدريس أو الأساتذة الذين يتلقى عليهم الطلاب الدروس. «فالطالب فيها يقرأ أنىّ شاء وفي أي كتاب شاء وعند من شاء»[٧٩] على حد تعبيره لذلك لأنه إضافة إلى اقتراحه تنقيح وتوحيد كتب الدراسة، اقترح تقسيم الطلاب على صفوف، وتدريسهم مناهج وكتباً محددة، وقبولهم في صفوفهم بعد امتحانات قبول، وإجراء إمتحانات فصلية لهم، مرة كل ثلاثة أشهر على أن يجري امتحانات لهم في نهاية العام يتم بموجبه نقلهم من كتاب إلى كتاب ومن علم إلى علم.

وقد ركز السيد الأمين، في مناهجه التعليمية، على وجوب تدريس علم الأخلاق، وآداب التعليم والتعلم، واقترح إجبار كل مدرس بتعليم كتاب مثل «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» للشهيد الثاني.

كما أنه أدخل العلوم الحديثة على مناهج التدريس، في المدرسة العلوية، وتعليم اللغات الأجنبية، وكان أساتذة المدرسة من جميع الطوائف. . والمثال أن معلمي الدروس الصرفية والنحوية كانوا من السنة. والشيعة، وكان المدرس للغة الفرنسية مسيحياً، يسمى الأستاذ شاكر، وكان مدّرس اللغة التركية سنياً اسمه علي أفندي، ومدرس تحسين الخط الأستاذ ممدوح، الخطاط المعروف[٨٠]

كما وضع بنفسه بعضاً من الكتب المدرسية كالدرر المنتقاة لأجل المحفوظات في ستة أجزاء مطبوعة. . ووضع روايات تمثيلية مثلها طلاب المدرسة العلوية على مسرح المدرسة.

أما إنشاؤه لمدرسة البنات (اليوسفية) في دمشق، فكان مبادرة منه، تكتسب أهميةً خاصة في ذلك الوقت، بسبب صدورها عن رجل دين، من جهة ودعوته فيها لتدريس العلوم المدنية واللغات الأجنبية. من جهة ثانية، فضلاً عن التدبير المنزلي والخياطة والتطريز.

هذا الجهد الإصلاحي العلمي والتربوي للسيد الأمين، يتيح لنا مقارنة ما بينه وبين مصلح آخر اتخذ مجال نشاطه مصر، هو الشيخ محمد عبده. فقد انطلق كلاهما في جهده الإصلاحي، من واقعة تردي كتب التدريس ومناهجه يروي الشيخ محمد عبده على سبيل المثال، أنه أثناء تلقيه الدروس في الأزهر «غضب على كتاب فطبخ به عدساً»[٨١]، ويذكر عنه أحمد أمين، أنه كان عنده عقدة نفسية، ولدها شرح الكفراوي على الأجرومية[٨٢]. . وأن الدرس الأوّل في الكفراوي يبدأ بداية معقدة علق عليها محمد عبده، بعد ذلك، بقوله: «باسم الله ماشاء الله. . هذا أول درس لمن لا يعرف في النحو شيئاً، فلو أن متكلماً تكلم بالسريانية كان أهون»[٨٣].

وقد حاول الشيخ محمد عبده، بعد توليه منصب التعليم في الأزهر بطريقة عملية، تطبيق ما كان يؤمن به نظرياً من إصلاح للتعليم عامة في مصر، والتعليم الديني خاصة في الأزهر، فنشر العديد من المقالات في هذا الموضوع ـ ورفع بعض اللوائح إلى السلطات الرسمية آنذاك[٨٤] لقد حاول الشيخ محمد عبده إصلاح الأزهر. . إلا أنه، على حد قول أحمد أمين «بالله وإصلاح الأزهر. . ما حاوله أحد من قبل ونجح ولا الشيخ محمد عبده»[٨٥].

تنقية العقيدة ومحاربة الخرافات والأوهام

يقول السيد محسن الأمين في كتابه «المجالس السنيّة»[٨٦] لم يكن تأخر أتباع هذا الدين وضعفهم ناشئاً إلّا عن عدم تمسكهم بتعاليم دينهم»، كما يعتقد أن من محاسن الدين الإسلامي، «الأمر بالنظر وإعمال العقل والأخذ بالدليل والبرهان وذم التقليد»[٨٧] ويرى أن نجاح الأوربيين يعود إلى أنهم «أخذوا عن الإسلام فضائله»[٨٨].

وهو بذلك يلتقي مع تيار إصلاحي كبير من الإصلاحيين المسلمين، في نزعتهم للعودة إلى الأصول الإسلامية. وقد أشار إلى ذلك، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، في العبارة التالية التي وردت في مجلة العروة الوثقى التي أشرفا معاً على تحريرها وإصدارها في باريس، معتبرين أن فساد المسلمين «دخل على توالي الزمن من عقيدة الجبر والخطأ في فهم القضاء والقدر. . . ومما أدخل على الإسلام من زندقة وتشيعات وحزبيات»[٨٩]، «وأن الحل هو الذي يقدمه الفقيه المسلم التقليدي: تنقية الإسلام وتوحيد اتجاهاته.

إن هذه المعتقدات والخرافات الشعبية، المنتشرة في مصر أو السعودية أو ليبيا، كان يسود مثلها كذلك في جبل عامل، والعراق، وإيران، وأقطار أخرى إسلامية، وقد تعامل معها السيد محسن الأمين تعاملاً نقدياً، سواءأكان ذلك في البلاد التي طالت فيها إقامته (كجبل عامل ودمشق) أو البلاد التي مرّ بها زائراً في رحلاته إلى إيران والعراق ومصر والحجاز.

بالإمكان اعتبار تصدي السيد محسن الأمين للطقس العاشوارئي، وإصلاح الشعائر الحسينية، أهم موقف إصلاحي له في محاربته للبدع والخرافات الشعبية.

وهو في ذلك، لا تعوزه روح المواجهة، بخاصة إذا أخذنا بالإعتبار الظروف التاريخية والإجتماعية لدعوته، حيث كان كل جهد إصلاحي، مهما ضؤل، مرفوضاً، وموسوماً بالزندقة، أو بالخروج عن الدين، في مجتمع كانت السلطات الدينية والزمنية فيه تعتبر كل محاولة للإصلاح خروجاً على الدين وجريمة لا تغتفر، بل كفراً[٩١].

وقـد وصف الشيـخ موسى السبيتي العقليـة السـائـدة الجامدة آنذاك، بقوله: «كانت عند رجال الدين والأدب عقلية صلبة قاسية تحيا في دائرة ضيقة لا تحاول الخروج منها، بل يعدون الخروج من تلك الدائرة شذوذاً وتمرداً وكفراً»[٩٢]. كما أدرك السيد الأمين بذاته، صعوبة استئصال العادة الشعبية، سيما إذا كانت ملبسة بلباس الدين، على حد قوله[٩٣].

ولكنـه اعتـبر أن «الخـرافـة»، لا تبر رهـا شعبيتهـا، ولا يسـوغها في الشرع انتشارها الواسع بين العوام، لأنه بحسب تعبيره «عادات الطغام من العوام لا تكون دليلاً للأحكام»[٩٤].

فينسب السيد الأمين الخرافة والبدعة إلى «إبليس وأعوانه»، كما يظهر في بعض كلامه انظر مثلاً البدع والمنكرات التي رأى إبليس وأعوانه إدخالها على شعائر الحزن على سيد الشهداء[٩٥]، وهو يسميها «منكرات»[٩٦]. لذلك فإن محاربتها تندرج في جهده الإصلاحي، تحت عنوان «النهي عن المنكر».

ولا يفوته، في تآليفه الكثيرة أن يذكرها، تارة بالعرض والإشارة، وتارة أخرى بالتعليل والتفسير، دون أن تشكـل ملاحظـاتـه المتفـرقـة والمـوزعة على أكثر من كتاب أساساً لنظرية في التعامل مع الخرافة الشعبية، بل لتبقى على شكل مجموعة من الآراء المتفرقة في هذا الموضوع.

يبـدي السيـد الأمـين ملاحظـاتـه حول بعض العادات والخرافات الشعبية، في وقت مبكر، فهو يذكر، مثلاً، أثناء تلقيه العلم في «عيتا الزط» (من جبل عامل) هذه الحادثة:

«وقع في بعض السنين ثلج، وليس عند الطلاب حطب، وقريب من القرية شجرة قديمة يحترمها أهـل القـريـة، ويحـرجون من قطع غصن منها، خوفاً من المجازفة في الدنيا، وأمثال ذلك في جبل عامل وغيرها كثير. فذهب التلاميذ وجعلوا يربطون فروع تلك الشجرة بالحبال، فتنكسر وتسقط، فيجرونها إلى أمـاكنهم للوقـود. وأهـل القـريـة يستنكـرون ذلـك ويخافون على التلاميذ عاقبة ذلك وينهونهم فلا ينتهون. وفي الصباح جاءوا ينظرون إليهم، هل ماتوا من عاقبة هذا العمل، فوجدوهم أحياء ولم يمت منهم أحد، وبطل ما كانوا يظنون»[٩٧].

كما يروي حادثة عن رجل من الطلبة كان معهم في «عيتا الزط» يتعاطى كتابة الحجب والهياكل، وعنده كتاب مطبوع في مصر اسمه شمس المعارف الكبرى، لرجل مغربي، وفيه الأعاجيب، ويورد أنه «جاء مرة إلى عيتا رجل أعجمي كان قد تعاطى طلب العلم ولم يتقنه.. وقال يوماً إن كلمات إذا تليت على الحـديـد لم يتألم به الجسم وهي (سـين أول دان بحـرور بسـرور بكاس كال كاي) وتلاها على إبرة وأدخلها داخل شدقة وأبقاها مدة وأخرجها من خارجه ولم يخرج منه دم، وفعل ذلك مراراً، وفعل ذلك بعض الطلبة وكان كذلك. والحقيقة أن ذلك الموضع ليس فيه عروق، فإذا شكت فيه إبرة لم يخرج منه دم، لا لخاصية في هذه الكلمات، وفطن لذلك بعض الطلاب، ففعلوا بدون الورد»[٩٨].

وهو، بعد أن يورد جملة من المعتقدات، يضيف معلقاً: «وأمثال هذه المخرفات كثيرة رائجة بين الناس»[٩٩].

والواقع أن السيد محسن الأمين كان ناقداً وراصداً اجتماعياً للعادات العاملية، في كتابه القيم «خطط جبل عامل» فقد أفرد في هذا الكتاب باباً خاصاً للعادات العاملية (من ص١٨٨ إلى ص١٢١) ذكر فيه جملة من معتقداتهم وعاداتهم الإجتماعية والدينية، حيث تمتزج الخرافة، بالإيمان الديني، بالخبرة الشعبية.

فهو يذكر، مثلاً أنهم «يتشاءمون من آخر أربعاء في صفر، فيخرجون فيها إلى البريّة، ويقولون آخر أربعاء في صفر نحس مستمر، ويكشفون رؤوسهم تحت ماء نيسان ويتلقونه بالأواني، ويتبركون به. . ، ومنها أن من تحكه يده يتفاءل بأنه سيقبض دراهم. . . ومن ترفّ عينه اليمنى يلاقي من يحب. . ومن ترف عينه اليسرى يحزن. . ومنها أن الهرة إذا جعلت تخمش شيئاً بأظافرها فهي علامة على ورود ضيف، وكذلك إذا فركت وجهها بيدها. . ومنها أن الهرة إذا عطست، تشاءموا بعطستها، وزعموا أنها تدعو على أطفالهم، فيضربونها على وجهها ويقولون: نقص في عمرك، ومنها أن الضباب في الشتاء علامة المطر ويسمونه أبوصويّ فيقولون «أبو صوي وراه ميّ»، ومنها أن من به التآليل والحرارة يعمد إلى سلحفاة ويلقيها على ظهرها بين حجرين حتى تموت. . وهذا من تسويل الشيطان، وهو محرّم، لأنه تعذيب للحيوان»[١٠٠].

ولكنه لا يكتفي بنقده للعادات العاملية، بل ينتقد العادات الشعبية التي يصادفها أثناء ترحاله، فيعلق بقوله «هكذا يكون الجمود» على بعض المعتقدات في الكوفة، إثر حادثة «جيء فيها بسمن على ورقة مطبوعة باللاتيني، فامتنع بعض الرفاق من الأكل مما طبخ بذلك السمن، فقلت له كيف نأكل السكر ولا نأكل هذا. . . فقال ذلك لم تره عيني وهذا رأيته. . ثم أخرج من القدر شيئاً من اللحم وغسله وأكله. . وهكذا يكون الجمود»[١٠١].

كما يذكر، في رحلته العراقية ـ الإيرانية، عن مسجد الكوفة «أن له مأذنة عالية، وفي وسطه عمود من رخام، الظاهر أنه كان شاخصاً لمعرفة الزوال وأوقات الصلاة، وللعوام فيه خرافات كعادتهم في أمثال ذلك، منها أن من لم يقدر أن يحيطه بباعه بحيث تصل إحدى يديه إلى الأخرى، فهو ليس لأبيه، فالويل لمن كان باعه قصيراً. وهذا كما كان في بيت المقدس عمودان يزعم العوام أن من لم يستطع أن يخرج من بينهما فهو ليس لأبيه، فالويل لمن كانت جثته كبيرة، وبطنه عظيماً. وفيه مكان يقال إنّ منه فار التنور وإن منزل نوح عليه السلام كان هناك»[١٠٢]، ولا يفوته في النجف الأشرف، أن ينتقد عادة ضرب الطبول أمام الجنائز، ويعتبرها «منكرات».

أما في إيران، فهو يورد بعض العادات والخرافات الشائعة، ثم يعللها ويردها إلى سبب ارتزاقي، بقوله «قصد أن لا يفوتهم شيء من النذور»[١٠٣]، وذلك في معرض ما اتفق له في كرمنشاه حين جاء صاحب مجلّة وذكر أن «امرأة كانت مصابة بمرض السرطان، وعجزت عنها الأطباء، فاستجارت بمرقد

الرضا عليه السلام، في طوس فبرئت، وإن طبيباً افرنجياً اسمه الدكتور أرثور أعطى تقريراً بأنها لا تبرأ»، وقد طبع ذلك هذا السيد في ورقة وقرأها علينا. وفي اليوم الثاني جاء وأعاد قراءتها وجعل يكرر قراءتها لكل قادم. فقلت إن فضائل أئمة أهل البيت عليهم السلام وكراماتهم لا يشك فيها أحد. ولكن كثيراً من الكرامات التي تنقل على ألسنة الناس هي مكذوبة، لأن الكرامة لا تأتي عفواً، ومتى شاءها الإنسان وعلى يد كل أحد وفي كل مناسبة، وإنما تكون عند موجب قوي يقتضيها.

فأهل النجف يقولون إن المعدان جاؤا لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام، وباب البلد مغلق، ففتح لهم الأمير الباب. وهل كان الأمير بواباً لهؤلاء الأعراب؟ البوالين على أعقابهم التاركين للصلاة، المستحلين المحرمات حتى يخرج ويفتح لهم. وخُدّام العباس عليه السلام يقولون أن رجلاً جاء ومعه نذر للعباس لم يدفعه، فأصيب بكذا قصداً أن لا يفوتهم شيء من النذور[١٠٤].

من النصوص التي أوردناها، نسأل: كيف كان السيد محسن الأمين يتعامل مع الخرافة الشعبية؟ فنرى أنه كان كثيراً ما يسوق الواقعة كما رآها أو عاينها، ويعلق في نهاية كلامه، بتعليق مقتضب يدل على رأيه في الواقعة. فتارة يرد المعتقد الشعبي إلى سبب ارتزاقي، وتارة يظهر التفسير العلمي لظاهرة من الظواهر، خفي على العامة سببها الحقيقي فألحقوها بالخوارق، وتارة يكشف سقوط الوهم الشعبي في حادثة من الحوادث، بالإقدام عليها، ومجابهتها مباشرة. وهو في كل ذلك، لا تفوته روح مرحة، تذكرنا أحياناً بأسلوب الجاحظ.

لكن ما ينبغي التوقف عنده، هو أن الرجل لا يطور ملاحظاته المتفرقة تلك، حول الخرافات والعادات الشعبية، إلى درجة امتلاك مقياس انتقادي عام لها.. فهو، في الوقت الذي يرفض فيه تعازيم وقراءات الرجل الأعجمي على تخدير الجلد، لحجب الألم عنه، يؤمن إيماناً مطلقاً بالإستخارة، ويورد طرق الإستخارات بالسبحة، وبالرقاع، ويذكر حكايات غريبة منها ما نقله العلامة المجلسي في مفاتيح الغيب ومحكي البحار عن والده عن شيخنا البهائي أنه كان يقول سمعنا مذاكرة عن مشائخنا عن صاحب الأمر صلوات الله عليه. وفي الإستخارة بالسبحة أنه يأخذها ويصلي على النبي(ص) ثلاث مرات ويقبض على السبحة ويعد اثنين، فإن بقيت واحدة فهو افعل وإن بقيت اثنتان فهو لا تفعل»[١٠٥]. كما يذكر لابن طاووس جملة من «الغرائب والتجربات في الإستخارة»[١٠٦]. ويقول: «ولو أردنا استقصاء جميع ما اتفق لنا من عجائب الإستخارات، لطال الكلام، فلنقتصر على هذا القدر»[١٠٧].

ولا بد من الوقوف، في مجال تنقية العقيدة، عند المناقشات الحادة التي خاضها السيد مع الوهابية من جهة، ومع الشيخ رشيد رضا صاحب المنار، من جهة ثانية، خصوصاً في كتابيه: «تجديد كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب» والرسالة المسماة «بالحصون المنيعة في ردّ ما أورده صاحب المنار

في حق الشيعة». وقد تناولت هذه المناقشات مسائل عديدة يتعلق بعضها بالمعتقدات الإسلامية الشعبية حول تكريم قبور الأولياء والصالحين والتوسل بها والنذر لها، وتحريم ذلك، أوجوازه، من وجهة نظر شرعية إسلامية، وحول مفهوم «الشفاعة» وجوازها أو تحريمها من وجهة نظر إسلامية. . كما يتعلق بعضها الآخر بمسائل أصولية حول معنى التوحيد والشرك، ومسائل فقهية مذهبية حول متعتي النساء والحج، فقد ذكر السيد الأمين في مقدمة رسالته «الحصون المنيعة» إلى أن سبب الرسالة هو «نصرة الحق» وذكر أصل الوهابية وحقيقته لأمر اقتضى ذلك»(١٠٨).

فمن المعروف، أن محمد بن عبد الوهاب، بحسب التاريخ الإصلاحي السني، كان يحركه في دعوته هاجس تنقية العقيدة من البدع والأوهام كما شغلت ذهنه «فكرة التوحيد في العقيدة، مجردة من كل شريك»(١٠٩) فلا اجتماع لقراءة مولد ولا احتفاء بزيارة قبور، ولا خروج للنساء وراء الجنازة، ولا إقامة أذكار يُغَنّى فيها ويرقص، ولا محمل يتبرك به ويتمسح، ويحتفل به هذا الإحتفال الضخم، وهو ليس إلا أعواداً خشبية لا تضر ولا تنفع.

وقد حاولت الوهابية «حيث استولت على بلد، أن تنفذ تعاليمها بالقوة، ولم تنتظر حتى يؤمن الناس بدعوتها، فلما دخلوا مكة، هدموا كثيراً من القباب الأثرية كقبة السيدة خديجة، وقبة مولد النبي(ص) ومولد أبي بكر وعلي، ولما دخلوا المدينة رفعوا بعض الحلي والزينة التي كانت على قبر الرسول»(١١٠). . وقد سار على خطى ابن عبد الوهاب، إمام ظهر في اليمن، هو الإمام الشوكاني، حيث هاجم بعنف، تعظيم القبور، وزيارتها، والتوسل بها، مطلقاً لشعب «القبوريين» على من يقومون بمثل هذه الأعمال(١١١).

لقد خاض السيد محسن الأمين الكثير من المنافشات مع الوهابية، مقدماً المسوغ الفقهي لآرائه، فهو إلى جانب تقديسه للمشاهد الذهبية للأئمة الأطهار عليهم السلام. يدافع عن تعظيم قبور الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسوّغ التوسل والشفاعة بهم لا من وجهة نظر شيعيّة مذهبية، بل من وجهة نظر إسلامية عامة، مستنداً إلى حجج في العقل والنقل، من المذاهب كافة.

يقول في تجديد كشف الإرتياب: «إذا كان الجبري، في تاريخه، يرى رأي الوهابيين بأن محمداً كان مثالاً للزهد في دنياه، وأنه لم يبعث لكي يكون ملكاً وإنما لكي يكون هادياً ومبشراً، ولذلك، فإن تزيين مقامه ومقامات أهل بيته، بالذهب والفضة، عمل فاسد وغير جائز، لأن من الأفضل صرف ذلك على المحاويج من المسلمين. . فما لا شك فيه أن هذه الآراء أبعد ما تكون عن الصحة، لأن تزيين القبور الشريفة نوع من التعظيم والإحترام التي ثبت رجحان تعظيمها واحترامها، وتوهمتها الوهابية بعكس ذلك على أنه شرك وعبادة!! . . . فإنه من المستحب تعظيم القبور النبوية بتزيينها إذا كان ذلك بالمستطاع. . وإذا كنا ننتقد ذلك، في بداية الإسلام، فذلك راجع فقط إلى أحوال المسلمين الضنكة

ليس إلا . . .»[١١٢] . . . ويضيف: «لهذا فإن تزيين المقامات النبوية وبيوت الله إنما له فوائد عظيمة وهو بالتالي راجح مطلوب شرعاً لعلة الفائدة، وإن لم يكن واجباً بالضرورة شرعاً».

«وهو يدفع رأيه في تعظيم قبور الأنبياء والأولياء، إلى نقطة حرجة، معتبراً تعظيم هذه القبور من تعظيم حرمات الله وشعائره»[١١٣] . . «ولا يمنع العقل من تعظيمها والتبرك بها وزيارتها والتوسل إلى الله تعالى ببركة أصحابها»[١١٤]. كما يجوِّز الشفاعة أيضاً، ويورد الآية الكريمة: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ معلقاً عليها بقوله «أثبت الشفاعة بالجملة»[١١٥].

وهو يورد ملخص معتقده في مثل هذه الأمور بقوله: « . . أما تشييد قبور الأنبياء والأوصياء والصلحاء والعلماء فقد تقدم الدليل على جوازه ورجحانه، وأما التوسل بالموتى من ذوي المكانة عند الله تعالى فلا مانع منه شرعاً ولا عقلاً فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون»[١١٦]. وأما النذور وذبح القرابين . . فالنذور لا يقصد تمليكها للأموات بل لتصرف على الخدمة أو الزوار أو الفقراء أو نحو ذلك، ويكون ثوابها للميت أو للناذر، وفي ذلك تعظيم للشعائر كما مرّ»[١١٧].

ولا بد لنا هنا من وقفة نقدية، تفرضها بعض المفارقات، فقد رأينا أن السيد الأمين يحرّم ضرب الطبول أمام الجنائز ويعتبرها «منكرات» ولكنه يعتبر كسوة قبور الأولياء والصالحين وتعظيم قبور الأنبياء من تعظيم حرمات الله وشعائره. فما معنى إذن الحديث الشريف: «خير القبور الدوارس»؟

وهو تارة ينتقد عادة النذر للعباس، ويعتبرها مجلبة لرزق بعض المنتفعين، وتارة يعتبر النذر جائزاً وراجحاً بالعقل والنقل.

كما أنه ينتقد ما يعتقده صاحب مجلة في كرمنشاه، في أن امرأة مصابة بالسرطان عجزت عنها الأطباء فاستجارت بمرقد الرضا عليه السلام في طوس، فبرئت. . وتارة يعتبر التوسل بالموتى من ذوي المكانة عند الله تعالى أمراً مندوباً في الشرع والعقل.

ويبدو لنا، في هذه الحالات، أن قوة الموقف النقدي عند السيد محسن الأمين، تقف عند حدود النص الشرعي الثابت لديه وما يتحتم عليه من أحكام، سواء كان هذا النص قرآنياً، أو حديثاً مروياً عن النبي(ص) أو عن أحد الأئمة الأطهار.

الحواشي

(١) أنظر. الأمين محسن. سيرته بقلمه وأقلام آخرين. مطبعة العرفان صيدا ١٩٥٧م حققه وأخرجه ولده حسن الأمين/ص ١٤٨.

(٢) قسم المؤلف العلم إلى مراتب بحسب شرف العلوم فأشرف العلوم وأعلاها علم معرفة الله تعالى أي علم التوحيد ثم علم الفقه ومعرفة الأحاديث. . ثم علم الأصول والدراية . . . إلخ . . أنظر الأمين /محسن في كتابه «معادن الجواهر ونزهة الخواطر، ط١/دار الزهراء

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٠م جـ ١ ص ص ٤٠/٤٧/٤٨/٤٩ .

(٣) ص ٩ وما يليها.

(٤) الأمين/محسن: رحلات السيد محسن الأمين.. دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت مع مقدمة أحمد رضا للكتاب

(٥) محسن الأمين/سيرته بقلمه وأقلام آخرين ص ١١٨ .

(٦) المصدر المذكور آنفاً/مثال حكمت هاشم.

(٧) محسن الأمين/سيرته بقلمه وأقلام آخرين ص ٩٦/٩٧ .

(٨) و (٩) الأمين، محسن. سيرته بقلمه ص ٢٦/ورد سابقاً.

(١٠) المصدر نفسه ص ٧٥

(١١) المصدر نفسه ص ٧٥.

(١٢) المصدر نفسه ص ٢٣

(١٣) المصدر نفسه ص ٢٧ .

(١٤) الأمين/محسن المجالس السنية، جـ ١ . ص ٣ من المقدمة بقلم حسن الأمين.

(١٥) إنه يقول: «وردنا دمشق فوجدنا أمامنا أموراً هي علة العلل ولا بد في إصلاح المجتمع من النظر في إصلاحها. . . أما الأمر الثالث، فهو إصلاح إقامة العزاء لسيد الشهداء عليه السلام» سيرته بقلمه ص ٧٢/٧٣/٧٤/٧٥ .

(١٦) حلقة دراسية حول عاشوراء /ذكر سابقاً/ ص ٢٦ .

(١٧) الأمين، محسن. خطط جبل عامل. ص ١١٩ .

(١٨) يذكر ابراهيم فران في مقاله في حلقة دراسية حول عاشوراء (مذكور آنفاً) أن بعض العامة كان يعتبر عاشوراء موسماً تجارياً ويضيف أن عاشوراء تؤجل إلى الثلاثاء إذا صادف وقوعها يوم السوق (الأثنين) في النبطية ليربح التجار سوقهم.

(١٩) الأمين/ محسن/ سيرته. . . ص ٧٦/٧٧.

(٢٠) الأمين/محسن. رسالة التنزيه ص ٧

(٢١) هذا المجهول هو في الحقيقة عبد الحسين صادق صاحب رسالة سيماء الصلحاء.

(٢٢) المرجع عينه ص ٢٠.

(٢٣) الأمين/ محسن/ سيرته. . ص ص ١١٩/١٢٠/١٢١/١٢٢/١٢٣ .

(٢٤) الأمين/ محسن/ التنزيه ص ٧ ـ ويسميها كذلك «تسويلات الشيطان».

(٢٥) المصدر نفسه ص ٨.

(٢٦) الأمين/محسن. سيرته. . ص ٧٦/٧٧ .

(٢٧) المصدر عينه ص ٧٦.

(٢٨) رسالة التنزيه . ص ٩.

(٢٩) المصدر عينه ص ١٠ .

(٣٠) الأمين محسن/ سيرته بقلمه. . . ص ٧٦/ ٧٧ .

(٣١) نفس المرجع ص ٢٠٧ .

(٣٢) المصدر نفسه/ص ١١٧/. . كذلك فقد ازداد الهياج عند الجماهير وازداد تمسكها بالتظاهر والضرب بالسيوف في النبطية والقرى المجاورة لها (حلقة دراسية حول عاشوراء. . ص ٤٢).

(٣٤)· المصدر نفسه/حلقة. . . ص ١٩ وما بعدها.

(٣٥). الأمين/سيرته بقلمه. . ص ١١٩ وما بعدها.

(٣٦): يقول السيد في سيرته عن بعض معارفيه: «ولقد أشاعوا في العوام أن فلاناً حرّم إقامة العزاء بل زادوا على ذلك أن نسبونا إلى الخروج عن الدين» (ص ٧٦/٧٧).

(٣٧): المصدر نفسه/ص ١١٦

(٣٨) المرجع عينه ص ١١٦

(٣٩) يذكر فريدريك معتوق في «حلقة دراسية حول عاشوراء/ص ٨٤» أن عدد المشاهدين عام ٧٣ بلغ ستين ألفاً (في النبطية) وأنه عام ٧٤ بلغ ثمانين ألفاً. ولا شك أنه في الثمانين فإن المائة ألف مشاهد غداً.

(٤٠) مما يذكر أن ألفت رسائل فقهية، مع التنزيه «وأخرى» ضدها. . فقد ألف الشيخ عبد المهدي المظفّر في البصرة رسالة ضد التنزيه سماها «إرشادات الأمّة للتمسّك بالأئمة» كما ألف الشيخ محمد الكنجي رسالة معها.

(٤١): رسالة «كشف التمويه عن رسالة التنزيه». أنظر الأمين، محسن، سيرته. . . ص ١٢٢ وحاشيتها.

(٤٢) الأمين/محسن. سيرته بقلمه. . ص ١١٦

(٤٣) المرجع عينه ص ١١٩.

(٤٤) المصدر عينه ص ١١٨

(٤٥) الأمين/محسن. /رحلات السيد محسن الأمين. ص ٦١/٦٢.

(٤٦) المرجع عينه ص ٦١/٦٢.

(٤٧) المرجع عينه/ سابقاً ص ٤

(٤٨) المرجع عينه ص ٧٦/٧٧.

(٤٩) الأمين/محسن. معادن الجواهر ج ١ ص ١٢.

(٥٠) المصدر السابق ص ٩.

(٥١) المصدر عينه ص ١١-١٢.

(٥٢) المصدر نفسه ص ١٢.

(٥٣) المصدر نفسه ص ١٥.

(٥٤) المصدر نفسه ص ١٥

(٥٥) المصدر نفسه ص ١٥.

(٥٦) المصدر نفسه ص ١٧.

(٥٧) المصدر نفسه ص ١٨

(٥٨) المصدر نفسه ص ٣١.

(٥٩) المصدر نفسه ص ١٣.

(٦٠) المصدر نفسه ص ١٤.

(٦١) المصدر عينه ص ١٦.

(٦٢) المصدر عينه ص ١٨

(٦٣) المرجع عينه ص ٢٥.

(٦٤) المرجع عينه ص ٤٠

(٦٥) المرجع عينه ص ٤٠.

(٦٦) المصدر نفسه ص ٤٨

(٦٧) الأمين/محسن. سيرته. صص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٦٨) من مقابلة شخصية مع إبنه السيد حسن الأمين بتاريخ ٣٠/١١/٨١.

(٦٩) أمين أحمد. زعماء الإصلاح في العصر الحديث. مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ١٩٦٥/ ص٣٠٨.

(٧٠) من المقابلة الشخصية المذكورة. . وقد تثقف في هذه الحلقة اليومية في بيته جمهور كبير من المعروفين في اللغة والأدب والفقه منهم الدكتور مصطفى الروماني وأديب التقي والدكتور أسعد حكيم. . وسواهم.

(٧١) الأمين/محسن. سيرته. . . ص ٧٥.

(٧٢) المصدر عينه ص ٧٢.

(٧٣) المصدر نفسه ص ٧٤/٧٥.

(٧٤) المصدر عينه ص ١٩٢.

(٧٥) المرجع عينه ص ١٩٢.

(٧٦) معادن الجواهر ج ١ ص ٤٣.

(٧٧) المرجع عينه ص ٤٤.

(٧٨) المرجع نفسه ص ٤٥/٤٦.

(٧٩) المرجع نفسه ص ٣٦.

(٨٠) الأمين محسن/سيرته ص ٢٧.

(٨١) أمين/أحمد. زعماء الإصلاح. . ص ٢٨٦.

(٨٢) المرجع عينه ص ٢٨٤.

(٨٣) المرجع عينه ص ٢٨١/٢٨٢.

(٨٤) المرجع عينه ص ٣٠٩/٣٠٣.

(٨٥) المرجع عينه ص ٣١٧.

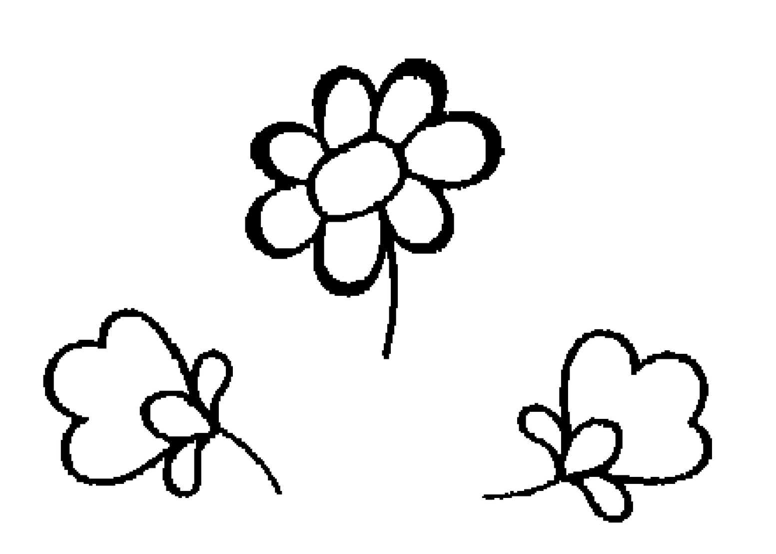
(٨٦) الأمين/محسن. المجالس السنية ج ٣. ص ١٩٧.

(٨٧) المصدر السابق ج ١ ص ١٩١

تحت عنوان محاسن الدين الإسلامي.

(٨٨) الأمين محسن/سيرته. . . ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٨٩) كوثراني وجيه «مختارات
سياسية مجلة المنار» ص ٩.
(٩٠) المرجع عينه ص ١٠.
(٩١) الأمين محسن/ سيرته.. ص ٢١٠.
(٩٢) المصدر ذاته ص ٢٦٥.
(٩٣) المصدر ذاته ص ٧٢.
(٩٤) المصدر نفسه ص ٧٦/٧٧.
(٩٥) الأمين/ محسن/ رسالة التنزيه ص ص ٨ - ٩.
(٩٦) الأمين/ محسن/ رحلات.. ص ١١٦ كما يسميها، في مكان آخر، مخرّقات (ص ١٧/من سيرته بقلمه).
(٩٧) الأمين/ محسن/ سيرته بقلمه ص ص ١٦ - ١٧.
(٩٨) الأمين/محسن. سيرته بقلمه ص ١٨.
(٩٩) المصدر نفسه ص ١٨.
(١٠٠) الأمين/محسن. خطط جبل عامل من ص ١١٨ - إلى ص ١٥١.
(١٠١) الأمين/محسن سيرته بقلمه.. ص ٦٥.
(١٠٢) الأمين/محسن. كتاب رحلات ص ١١٦ - ١١٧ - ١١٨.
(١٠٣) المصدر نفسه ص ١٥٠.
(١٠٤) المصدر نفسه ص ١٤٩/١٥٠.
(١٠٥) الأمين/محسن. معادن الجواهر ج ١ ص ٢٢٧.
(١٠٦) المصدر عينه ص ٢٣١.
(١٠٧) المصدر عينه ص ٢٣٦.
(١٠٨) الأمين/محسن. الحصون المنيعة.. ط ١ مطبعة الإصلاح بالشام ١٣٢٧هـ/المقدمة
(١٠٩) أمين/أحمد. زعماء الإصلاح ص ١٢.
(١١٠) المرجع عينه ص ٢٠.
(١١١) المرجع عينه ص ص ٢١/٢٢.
(١١٢) فضل الله، مهدي من أعلام الفكر الإسلامي الفلسفي ط ١ الدار العالمية. بيروت ١٩٨٢ ص ٣٣١/نقلاً عن تحديد كشف الإيثار.
(١١٣) الأمين/محسن. الحصون المنيعة ص ٢١.
(١١٤) المصدر نفسه ص ٢١
(١١٥) المصدر نفسه ص ٢٠.
(١١٦) المصدر نفسه ص ٣١.
(١١٧) المصدر نفسه ص ٣٢/٣٣.



الجانب الإجتماعي
للعلامة السيد الأمين العاملي

*************************** الدكتور شـفيق نظـام

بسم الله الرحمن الرحيم

في مطلع القرن العشرين عام ١٣١٩ هـ حضر إلى دمشق عالم جليل وأقام في منزل متواضع في أحد أحيائها القديمة المتفرعة من قسم القيمرية وكان يُسمّى حي «الخراب» وكان العالم ذو لهجة لبنانية جبلية لأنّه وُلد في «شقراء» وهي قرية في جبل عاملة من الجنوب اللبناني. وكان قد أتمّ دراسته العلمية الـدينيـة في حوزة النجف الأشـرف بالعـراق. وقد راعه الجهل المتفشي بين شباب وكهول هذا المجتمع الصغير بالإضافة للفقر المدقع والأمراض المستوطنة وهي ثالثة الأثافي وكان النزاع والشقاق الخبز اليومي للمجتمع وما يصاحب ذلك من العادات السيئة والانحرافات.

وكـانت سوريـا في أواخـر الحكم الـتركي العثماني مرهقـة بعد أربعة قرونٍ من الاستعمار التركي الذي عطّل مسيرة العلم وأشاع الجهل والفقر والتعسّف كما حاول خنق النهضة الحديثة للبلاد.

وكـانت تركيـا آنـذاك تُسمّى «الـرجـل المـريض» لأنّها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد أن نهش أطرافها أعداؤ ها الطامعون: فرنسا وإنكلترا وروسيا.

وكان الشعب يئن تحت نظام ضرائبي فاحش وحكم محلّي إقطاعي.

وكان في دمشق مدرسة ثانوية واحدة هي «مكتب عنبر» وكانت العربية هي لغة التدريس فيها ولمّا استولى الاتحاديون على دفّة الحكم قبيل الحرب العالمية الأولى أصبحت التركية لغة التدريس فيها وكان التعليم باهظ التكاليف ولا يستطيعه إلاّ المترفون أمّا الدراسة العليا باستنبول فهي إحدى المستحيلات الثلاثة ولم يستطعه إلاّ النذر اليسير من أبناء الباشوات. ثم جاء الانتداب الفرنسي ففرّق وغرّب وَميَّع الشخصية العربية الإسلامية في هذا المحيط الاجتماعي بدأ السيد محسن الأمين مسيرته التعليمية وخطته التجديدية وإصلاحاته التاريخية.

وقد فتحت عيناي على النور وذكرُ العلامة الأمين على كل شفة ولسان.

وكان معظم الأحاديث في الأمسيات تدور حول توجيهات العالم السيد محسن ومساعداته وأحاديثه ومحاضراته ومؤلفاته فقد كان قطب الرحى لكل خير وبر ومركز الإشعاع لكل متعلم أو مسترشد.

وكان العلاّمة الأمين طاهر الكفّ عفّ اللسان ظاهر المروءة وذا شخصية متفتحة متجددة وأسّس صداقات ومودات مع أساطين العلم وقادة الوطنية وزعماء الفكر في هذا البلد المجاهد.

كما انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي كما كان يسمى آنذاك وكان يقصده القاصي والداني طلباً للمشورة أو المعرفة أو الفتيا فلايبخل على أحدٍ بنصح أو توجيه وكان يرعى الفقير ويساعد المحتاج ويكلأ اليتيم ويحكم بالعدل ويبذل الخير ويحفظ الصديق ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وكان يهتم بجوهر الدين ويبتعد عن التطرّف والتعصب ويأمر بالتسامح والمؤاخاة وحُسن الجوار وقد أنشأ جمعية الإحسان الإسلامية عام ١٩٠٦ وكانت أوّل جمعية خيرية منظمة ذات وصولاتٍ وجهازٍ محاسبي منظم مع زيارات دورية لهؤلاء الفقراء في دورهم لمتابعة المعونات كما أنشأ جمعية الاهتمام لتعليم الفقراء والأيتام وكانت مسؤوليتها تقوم على حصر أسماء الناشئة وتهيئة الأسباب المادية لضمان متابعتهم الدراسة لأنّ معظم الأهل بسبب فقرهم يفضلون إرسال أبنائهم إلى بعض المراكز الحرفية لتعليمهم صنعة وهم بحالة الأمّية وذلك لحاجتهم الملحة لدخل هؤلاء الأولاد لتأمين الضرورات المعاشية.

ولمّا لاحظ العلاّمة الأمين أنّ الأطفال والشباب بحاجة لرعاية خارج نطاق المدرسة أنشأ جمعية الرابطة الأدبية الاجتماعية لتملأ هذا الفراغ وترفدهم بالنشاط الأدبي والرياضي فكانت هذه الجمعيات تعمل مؤازرة للمدرسة المحسنية والمدرسة اليوسفية تحت إشرافه المباشر وتوجيهه الدائم.

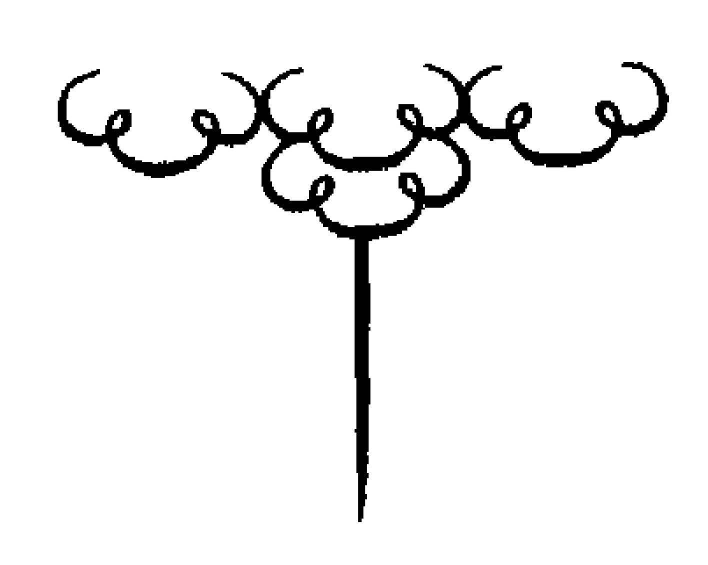
وكان يبذل قسطاً من وقته الثمين في إصلاح ذات البين مردداً قوله تعالى :

﴿لا خيرَ في كثيرٍ من نَجْواهم إلاّ من أمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس﴾ .

وكنت أزوره برفقة والدي في بيته المتواضع وكنّا نصعد إلى غرفة في الطابق الأوّل بدرجٍ خشبي يلُفُّ صاعداً كأدراج المآذن ليصل عبر غرفة وسيطة إلى غرفة الاستقبال وكان لهذه الغرفة الوسيطة الصغيرة رفوف عديدة يتكدس عليها مختلف الكتب والمراجع العلمية وكان يجلس على الأرض على بساطٍ متواضع وحوله أكداس الكتب وبيده القلم التقليدي وهو قطعة من القصب تشق نهايتها وتبرى بصورة مائلة وتغمس في الحبر . وكان وجهه دائماً متهللاً يتكلم بهدوء بعد إمعان الفكر وكان صدره رحباً يتسع للجميع وكان العلامة الأمين يتقن علم النفس الاجتماعي ويخاطب الناس على قدر عقولهم ـ وكان يحب مداعبة الأطفال والاستئناس بهم ـ وكان يتأنى مع الأميين ويتكلم معهم لغة بسيطة واضحة ويضرب لهم الأمثال .

أمّا في مجالس العلم فتشعر أنّه المجلّي وفي مضماره المفضل ـ فهو يقرع الحجة بالحجة ويفيض من علمه الغزير . ويُكثر الاستشهاد بآيات الذكر الحميد والأحاديث الشريفة وأقوال الأئمةِ وآراء السلف الصالح ـ وعندما ينتهي من ذلك يدلي برأيه الصريح بلطف وتؤدة .

وكان يتحلّى بالحلم والروية وبُعد النظر ـ وكان زاهداً بمتاع الدنيا ويكتفي بالقليل ـ وكان ذو بصيرة وعرفان ومروءة وإحسان وثقة بالله الديّان تغمّده الله برحمته ورضوانه وأسكنه جنّته مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء وحَسُنَ أولئك رفيقاً .



الجانب الفكري والأدبي عند العلامة الأمين

* الدكتور عاطف عــواد

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد محسن الأمين، واحد من شخصيات نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. ملأ حياته عملاً وجهداً متواصلين، وانصرافاً إلى البحث والعلم، لذا فقد عرفه الناس بحراً من العلم، على شواطئه الدر والجوهر المتعدد الألوان، المختلف الأشكال والقيم، فهو مرجع ديني قبل كل شيء.. وبالتالي فهو فقيه، وعالم ديني، وصاحب ثقافة واسعة، أخذ من كل علم بطرف، وأعطى غزيراً في كل علم.

نتاجه الفكري والأدبي

انكب الأمين في معظم حياته على تحصيل العلوم، والمطالعة والمراجعة والتأليف والتصنيف، وعمل في التدريس حيث تخرج على يديه العديد من التلاميذ، منهم علماء فضلاء.

أما في حقل التأليف فإن مصنفاته قد نيفت على سني عمره، ذلك مع استغراقه في أعمال الإصلاح والعمل الاجتماعي ومراجعات الناس وقد ترك الأمين عدداً من المؤلفات الضخمة المتنوعة الموضوعات والمسائل، إذ كان يبحث وينقب ليخرج إلى النور ما في أكوام الكتب والأوراق من كنوز بلا كلل ولا ملل، وحتى في شيخوخته فهو يقول: «لم نزل وقد بلغنا السادسة والثمانين من سني عمرنا مواظبين على التأليف والتصنيف. . ».

أما الموضوعات التي تناولتها مؤلفاته فهي في الفقه والعقيدة والأخلاق والحديث والتاريخ وأصول الدين والنحو والبيان والرحلات والمفاخرات والقصص واللغة والأدب وغيرها.

** النتاج الديني

في العقائد الدينية:

١ ـ البحر الزاخر في شرح الأئمة الأطهار ثلاث مجلدات ٢ ـ التنزيه لأعمال الشبيه ٣ ـ شرح التبصرة ٤ ـ رسالة الردود والنقود تشتمل على ردود وانتقادات في موضوعات شتى ٥ ـ امتناع اللائم على إقامة المآتم ٦ ـ الحصون المنيعة في رد ما كتبه صاحب المنار في حق الشيعة ٧ ـ عين اليقين في التأليف بين المسلمين ٨ ـ كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب ٩ ـ مناظرة أتباع المسيح القادياني ١٠ ـ عجائب أحكام أمير المؤمنين ١١ ـ الشيعة والمنار (ردود وعقائد) ١٢ ـ حواشي آمال المرتضى (عقائد وآداب) ١٣ ـ إرشاد الجهال: يتضمنها أصول الدين بطريقة الاستدلال بوجه سهل قريب إلى الأفهام.

في التشريع الديني والفقه:

١ ـ الدر المنظم في حكم تقليد الأعلم ٢ ـ أساس الشريعة في الفقه بطريق الاستدلال ٣ ـ أرجوزة في النكاح ٤ ـ جوابات المسائل الدمشقية ٥ ـ جوابات المسائل الصافيتية ٦ ـ جوابات المسائل العراقية ٧ ـ جناح الناهض إلى تعلم الفرائض: مطبوعة تبلغ (٦٤٢) بيتاً أرجوزة أولها:

الحمد لله القديم الوارث ... المنشىء الخلق المميت الباعث

٨ ـ كشف الغامض في أحكام الفرائض ٩ ـ سفينة الخائض في أحكام الفرائض ١٠ ـ حواشي العروة الوثقى لعمل المقلدين ١١ ـ الروض الأريض في أحكام تصرفات المريض وهي رسالة تحتوي على ثلاث مسائل ١٢ ـ شرح العقود في حكم زوجة الغائب والمفقود ١٣ ـ دروس الحيض والاستحاضة والنفاس ١٤ ـ الدر الثمين في أهم ما يجب معرفته على المسلمين من الطهارة والصلاة والزكاة والحج، عن رسالة يضعها كل مرجع مقلد ١٥ ـ أحكام الأموات لعمل المقلدين ١٦ ـ الدرة البهية في تطبيق الموازين

الشرعية على العرفية ١٧ ـ ضياء العقول في حكم المهر إذا مات أحد الزوجين قبل الدخول ١٨ ـ كاشفة القناع في أحكام الرضاع: منظومة ١٩ ـ الأوائل والأواخر أساس الشريعة ونظام مذهب الشيعة في الفقه ٢٠ ـ منظومة في الصوم ٢١ ـ مناسك الحج وأعمال المدينة المنورة ٢٢ ـ القول السديد في الاجتهاد والتقليد.

في الشعر الديني:

١ ـ الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد ٢ ـ ملحق الدر النضيد ٣ ـ العلويات العشرون ٤ ـ المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية (أدب ديني) ٥ ـ البرهان على وجود صاحب الزمان قصيدة عدد أبياتها (٣١١) في شأن الإمام المهدي (عج).

في الأدعية والأوراد:

١ ـ حاشية الصحيفة الثانية السجادية ٢ ـ حاشية الصحيفة الخامسة السجادية ٣ ـ مفتاح الجنات: ثلاثة أجزاء ٤ ـ حاشية مفتاح الفلاح ٥ ـ حاشية الغرر والدرر.

في السيرة:

١ ـ قصة المولد النبوي الشريف.

في علم الأصول:

١ ـ حذف الفضول عن علم الأصول ٢ ـ حواشي المعالم.

في الأخلاق:

١ ـ تحفة الأحباب في آداب الطعام والشراب ٢ ـ الدرياق في تهذيب الأخلاق ٣ ـ حق اليقين في التأليف بين المسلمين.

** النتاج الأدبي

في اللغة:

١ ـ صفوة الصفو في علم النحو ٢ ـ المنيف في علم التصريف ٣ ـ أرجوزة في الصرف يقول في أولها:

وبـعـده فالـصـرف في الـكـلام ... كالـنـحـو مثـل الملح في الطـعـام

في البلاغة:

١ ـ أرجوزة في علاقات المجاز وشرحها.

في الأدب:

١ ـ الرحيق المختوم في المنثور والمنظوم ٢ ـ مفاخرة السيف والقلم ٣ ـ مفاخرة الفقر والغنى ٤ ـ مفاخرة الراحة والتعب ٥ ـ مفاخرة العلم والمال ٦ ـ محاورة العلم والجهل ٧ ـ معادن الجواهر في علوم الأوائل والأواخر على نحو الكشكول ٨ ـ أدب المناظرات ٩ ـ ديوان أمير المؤمنين.

في القصص:

١ ـ ثلاث روايات تمثيلية مثلها طلاب المدرسة العلوية على مسرح المدرسة.

** النتاج التاريخي: (السيرة)

١ ـ أعيان الشيعة: هو عبارة عن ستة وخمسين مجلداً ويبلغ كل مجلد خمسمائة صفحة أو قريباً منها أو تزيد إلى الثمانماية صفحة، وهذا الكتاب عبارة عن «معجم يضم الأعيان من الشيعة: العلماء منهم والمتكلمين، والأصوليين والفقهاء، والمحدثين، والمؤرخين، و النسابين، والجغرافيين، والمنطقيين، والمنجمين، والأطباء، والنحويين، والصرفيين، والبيانيين، والشعراء، والأدباء، والكتاب، والمصنفين لفنون الإسلام في كل عصر. ٢ ـ خطط جبل عامل ٣ ـ أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثأر ٤ ـ العقد الثمين في آل الأمين.

في المنطق:

١ ـ شرح إيساغوجي.

في الردود والمناقشات العلمية:

١ ـ القول الصادق في رد ما جاء في مجلة الحقائق.

في الكتب المدرسية:

١ ـ الدروس الدينية: تسعة أجزاء للتلاميذ من أول المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة المتوسطة
٢ ـ الدرر المنتقاة لأجل المحفوظات: ستة أجزاء بالشكل الكامل.

هذه الثروة الفكرية المتنوعة، من أدب وفقه ولغة وتاريخ وفلسفة التي تركها لنا الأمين، تدل على عبقريته وعلى مدى استيعابه لمجمل علوم عصره، فهو بحق موسوعة علمية. إذ استطاع بهذه المؤلفات

أن يتفوق على معظم علماء عصره.

غير أن الصورة الرصينة للسيد الأمين، صورة المرجع الديني، والإمام المفتي، والمناقش العقائدي، لم تترك للناس من أتباعه المؤمنين وغيرهم، طلاباً، وباحثين المجال ليفكر بأن لهذه الشخصية الدينية، الوقورة، المتبتلة للعلم، وجهاً آخر، يضج بالعاطفة، ويهتز شعوراً.

في سبيل إبراز هذا الوجه الآخر من شخصية الأمين، ومناقشة النتاج العاطفي الذي وضعه، لوضعه في واجهة مؤلفاته؛ فإن «الرحيق المختوم في المنثور والمنظوم» الديوان الشعري، هو أحد أبرز ما وضعه الأمين في النتاج الأدبي عامة، والشعري خاصة، وهو الصورة الكاملة عدداً ومضموناً لهذا النتاج الشعري للأمين.

مميزات الأسلوب في شعر الأمين

أضفت الأجواء القروية العاملية وثقافة السيد محسن الأمين الدينية الواسعة على تعابيره الروعة والصفاء، ومع ذلك فهو يبدد من خلال قصائده كلاسيكياً، محافظاً على الأنماط التقليدية التي كانت معروفة. وترجع الكلاسيكية في شعر الأمين إلى تأثره المباشر ببيئته ودراسته الدينية المعمقة، وقد تناول بديوانه معظم الأغراض الشعرية التقليدية من مدح ورثاء وهجاء وغزل ووصف وحكمة وفخر وحنين وغيرها؛ ولكنه أضفى عليها الروح العصرية فجاءت متحملة بسمات واقعية.

فالمديح عنده يمتاز:

١ ـ بصبغة دينية تنم عن عاطفة وجدانية صادقة، بعيدة عن التزلف والرياء خاصة وأنه مولع بحب النبي وآل البيت فامتدح فيهم الحق والعلم والفضل.

٢ ـ بالإعجاب والتقدير بما أبداه القادة من بطولات وانتصارات كالحسين بن علي الذي غدا قائداً قومياً فامتدح فيه التضحيات والإخلاص والنضالات المتفانية في سبيل طرد المستعمرين.

٣ ـ ببعده عن التكلف، وبتحرره عن الغايات والنوايا الخفية، وكان الأمين. بمعظم مدائحه هذه بعيداً عن التكسب.

بالنسبة للرثاء فقد كان الأمين في رثائه سواء أكان رثاء لآل البيت أم للأهل والأقارب والعلماء صادقاً، تكتنفه اللوعة والأسى والحزن ويشوبه اليأس، وتغرق عاطفته بالدموع، دموع الوفاء والمحبة. ويغلب على رثائه لآل البيت الحماسة والتحريض، فالحسين في نظره يمثل ثورة شعبية تحريرية والرثاء عند الأمين غدا كناموس أزلي خط عليه التفجع واللوعة.

أمـا الهجـاء فيتناول فيه البخيل والمتخلفين بالوعد، ويصور البخيل بصورة كاريكاتورية فيها من التهكم والعبث الشيء الكثير مظهـراً عيـوبـه وشحـه وبخله، وكيفية معاملته للناس بضروب فيها من الحنكة والدهاء. ويهاجم المخلفين بالوعد ناعتاً إياهم بالكذب والجهل والبلادة.

بالنسبـة للغـزل والنسيب، فهـو في غالبيتـه من النـوع العـذري العفيف المترفـع عن الخـلاعة والفحش، وهو غزل بريء كبراءة الدين العاملي.

أمـا الـوصف فيتنـاول فيـه الكتـاب والسكـة الحديدية والرحلات وغيرها، بالنسبة للكتاب فقد شخصـه معتـبراً إياه صاحبه الصدوق المسلي والمرفه عن همومه، الهادي إلى الصواب والهدى، والحلال لمشاكله العويصة.

ووصف الـرحـلات وصفـاً مسهبـاً، فهـو لا يدع أية صغيرة ولا كبيرة إلا ويأتي على ذكرها، مما يجعل القارىء يلتذ بقراءتها، وشاعراً كأنه كان مشاركاً فيها.

بالنسبـة للحنـين إلى الأهـل والأوطـان، فكـان الأمين يحن إلى روابي جبل عامل. وعاطفته في حنينه كانت تتأجج بمشاعر صادقة، ملؤها الشوق والحنان والإخلاص والعواطف الجياشة بحب الوطن والأهل.

أما باقي الفنون فتمتاز بالصدق والدقة، وقد ساير فيها طريقة القدماء في بعض القصائد.

وهكذا نرى أن الأمين يهتم بعمود الشعر، ويقدسه كشاعر تقليدي، ولكنه يهاجم الوقوف على الأطـلال، مما يشـير إلى غلبـة المنطق في نهجـه الشعـري، فالشعـر عنـده أداة تعبـير يجب أن تتوفر كل مواصفاتها العروضية كما هي الحال لدى التقليديين، مع حذف النافل وغير الضروري.

أمـا من حيث التجـديـد، فقـد كان السيـد الأمين علاّمة عصره، إذ درس علوم العربية والمنطق والفقـه والأصـول.. وبلغ مرتبة الاجتهاد والفتوى وقد انعكست ثقافته الغزيرة على مؤلفاته، فجاءت أفكاره متجددة حية من روح العصر.

تميـز السيـد محسن الأمـين في ألفـاظه وعباراته باستعماله الألفاظ القديمة وبسهولة الألفاظ والنغم الموسيقي وبالتكرار المحبب، وقد زين مقطوعاته الشعرية بالعديد من المحسنات المعنوية واللفظية، ولأن هذه المحسنات باتت تقليدية، فإنني سأكتفي بالتلميح إليها فقط.

واقتبس الأمـين من المعـاني والعبـارات الـواردة في القـرآن الكـريم والأحـاديث النبـوية الشريفة والقصص الإسلامية التاريخية تتجلى في قوله:

خير الـنـبـيـين خير الخـلق سيـدهـا   للمـرسـلين به الـرحمـن قد ختـما

وقد أخذ معاني هذا البيت من القرآن الكريم، حيث ورد في كتاب الله **﴿ما كان محمد أبا أحد من** رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما﴾.

وقوله:

مهما زرعت اليوم تحصده غدا وكما غرست ستثمر الأغراس

المعنى من القرآن الكريم **﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا إنه كان في أهله مسرورا﴾**.

وقوله:

يوم بدر وخيبر وحنين ويوم الأحزاب والنهروان

مقتبس من القصص التاريخي الذي يروي بطولات الإمام علي.

وقوله:

باب علم مدينة العلم تؤتى منه لا من سواه من كل آن

مقتبس من الحديث النبوي [أنا مدينة العلم وعلي بابها].

وهكذا يمكننا القول أن للسيد محسن الأمين الفضل في إحياء تراث العرب القديم، لأنه نهج على سنن الكبار من شعراء العربية وهو بحق، أحد أعلام النهضة الأدبية الحديثة، وهو في دوحتها غصن من أنضر أغصانها، وأكثرها عطاء وجنى.

لم يعرف التزمت والتعصب بل كان يدعو إلى وحدة المسلمين والتقريب بين المذاهب، لأن هدفه الأسمى كان أن يرى وطنه حراً مستقلاً، بعيداً عن النعرات المذهبية والطائفية، التي كان الاستعمار يعمل على غرسها بين بنيه، دليلنا على ذلك النداء العام الذي وجهه في دمشق الشام في ١٢ جمادى الأول ١٣٦١هـ وهذه مقتطفات منه:

نداء عام

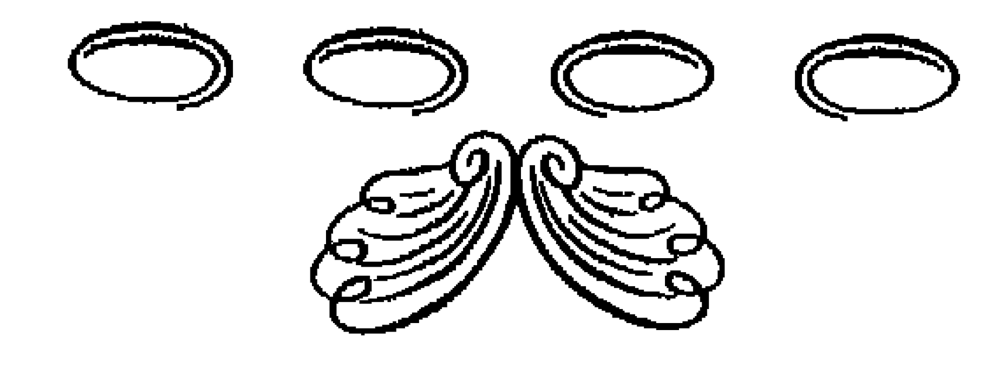
موجه إلى عموم المسلمين، ومغزاه الدعوة إلى الوئام والوفاق والتحابب والتآلف ورفع النزاع والشقاق والتخالف، والعطف والحنان على جميع بني الإنسان، ومنه تعالى نسأل التوفق والتسديد والهداية والإرشاد إلى سواء الطريق.

أيها المسلمون. إن ربكم واحد، ونبيكم واحد، وكتابكم واحد، وقبلتكم واحدة، وشريعتكم

واحـدة، ودينكم واحـد. إن الـدين عنـد الله الإسـلام. وكلكم والحمـد لله يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلي الخمس متوجهاً إلى الكعبة المشرفة، ويصوم شهر رمضان، ويعترف بوجوب الزكاة، وحج بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلا، ويحلل حلال الله، ويحرم حرامه، فعلام التباغض والتنابذ والتخالف، وليس بينكم شيء يوهم الافتراق إلا أمر الخلافة التي لا موضوع لها اليوم، وبعض الاختلاف في شأن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم قد مضى وانقضى، وكلا الأمرين وقد وقع مثله بين الصحابة أنفسهم ولم يوجب ذلك خروجاً على الإسلام، ولنا بهم أسوة حسنة، ورحمته تعالى تسعنا وتسعهم..

إن ديننـا وكتـاب ربنـا وسنـة نبينـا، وعقلنـا السليم، كلها تنهانا عن الشقاق والتباغض، وتأمرنا بالاتفاق والتحابب والتآخي. كما أن ديننا يأمرنا باحترام جميع الأديان السماوية، والعطف والحنان على جميع بني البشر؛ فقد جاء في السنة المطهرة الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أبرهم بعياله.

ختـامـاً: للحقيقـة **أقول**: إن وريقـات كهذه لا تكفي لإظهار المكامن النادرة في تراث الأمين، وإن كشفنا القناع عن بعض نتاجه، فإننا سنظل مقصرين تجاهه.



السيد محسن الأمين
مصلح كبير ومجاهد وطني واسلامي عظيم

الدكتور حسن أبو عليوي

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأعز المرسلين سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

السلام عليكم أيها الإخوة الأعزاء ورحمة الله وبركاته.

مباركةٌ ومشكورة خطوات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق، وعمل مناسب وضروري ما يقوم به حجة الإسلام الشيخ محمد شريعتي المستشار الثقافي، وما يبذله من جهود حثيثة في تكريم أعلام الإسلام الذين تركوا بصمات واضحة المعالم في مسيرة العمل الإسلامي الحضاري، ومن هؤلاء المجتهد الأكبر المرحوم السيد محسن الأمين(رضوان الله عليه) العالم الموسوعي والمصلح الكبير الذي ساهم من خلال أقواله وكتاباته وأفعاله بنهضة الأمة الإسلامية ورفعة المسلمين، فتكريمه اليوم، إنما هو تكريم لأمة في رجل.

وسنعـرض في هذه الـوقفة لصفحات مشرقة من حياة مجتهد كبير، وعلّامة جليل، ساهم بفعالية بتنفية الدين مما علق به من شوائب وأوهام خلال حملة إصلاحية، أعادت إلى العقيدة أصالتها، ونزعت عنها الكثير من الأمور المستجدة التي لا تتفق وجوهر الدين، وهو إمام في الوطنية، ومجاهد في سبيل مجد العرب والمسلمين، وقام بجهود كبيرة في سبيل تربية النشء وتوجيهه، ثم ترك ذخيرة كبيرة من المؤلفات التي أغنت المكتبـة الإسـلاميـة، وزادهـا تحقيقـاً وتصنيفـاً ومتـابعـة ولده البار المؤرخ الإسلامي الكبير والأديب الباحث الأستاذ حسن الأمين.

أولاً: نزعته الإصلاحية:

في دمشق، استبـدّت به نزعـة الإصـلاح التي استحوذت على شخصيته، وظهرت معالمها عنده منـذ صغـره، فرفض أن يجعـل وظيفته تقليدية، تقتصر على أداء الشعائر والإفتاء، وحلّ مسائل الزواج والطـلاق، بل حـدد لنفسـه وظيفـة كبـيرة، ونـدبها لمهام رفيعة، لما أوتي من وعي وتبصر وحس تغييري وشعـور بالمسؤوليـة الإسـلامية تجاه المجتمع المكبل بقيود التخلف والفقر والتمزق. وما لبث أن شخّص أمراض المجتمع الشامي وعلله آنذاك، وهي كما جاء على لسانه:

١ ـ الأميـة والجهـل المطبق، فقد وجدنا معظم الأطفال يبقون أميين، وبعضهم يتعلمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم.

٢ ـ وجـدنـا إخـواننـا في دمشق متشـاكسين منقسمين إلى حزبين، بل إلى أحزاب، وقد أخذت منهم هذه الحزبية مأخذها.

٣ ـ مجالس العـزاء ومـا يُتلى فيهـا من أحـاديث غير صحيحة، وما يصنع في المشهد المنسوب إلى زينب الصغـرى المكنـاة «بأم كلثـوم» في قريـة «راوية» من ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات، وبعض الأفعال المستنكرة، وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر استئصالها، لا سيما أنها ملبّسة بلباس الدين».

* أمضى السيـد محسن ما يزيـد على نصف قرن يخوض المعـارك ضد الجهـل والتخلف والبـدع ووجـه جل اهتـمامـه لإصـلاح هذه الأمور الثلاثة، فبالنسبة للتربية والتعليم، بذل جهوداً كبيرة لتعليم العلوم العربيه، كالنحو وإلقاء المواعظ في المجالس والتجمعات، والتفقه في الدين بقراءة درس فقهي في «التبصـرة» كل ليلة بعـد صلاة العشـاءين[٢]، وأنشأ في دمشق مدرسة لتعليم الناشئة، سميت بالمدرسة «العلوية» وأدخل إليها العلوم الحديثة، وداراً لتعليم البنات إلى جانب تعليم البنين.

ازدهـرت هذه المـدارس وتطـورت، حتى ضاهت مدارس دمشق الحكـومية، من حيث أقسامها الداخلية، وحسن تنظيمها، والمحافظة فيها على التحلي بالأخلاق الإسلامية الفاضلة، ونجاح طلابها

في الامتحانات بتفوق ملحوظ، فتهافت عليها الطلاب من جميع الأحياء.

وتعود الأسباب في نجاح سماحته بأهدافه إلى علو همته ومثابرته، ومشاركته العملية في أهدافه الإصلاحية، ففي محاربته للأمية، تطوّع بنفسه للتعليم في أول الأمر، ثم ما لبث أن دعا المحسنين للتبرع، ليتمكن من إنشاء المدارس وتوسيعها. انصرف السيد محسن بكل طاقاته وهمته التي لا تعرف الكلل إلى الإصلاح بكل معنى الكلمة، فهو إن لم يجد مدرساً، باشر التعليم بنفسه، وإن لم يجد كتاباً مدرسياً مناسباً، ألف هو هذا الكتاب، وقد راجت الكتب المدرسية التي قام بتأليفها، وترجم بعضها إلى الفارسية[٣].

وكان للجد وحسن النية، وما أوتي سماحته من نفوذ في قلوب الناس، ما هيأ له أسباب النجاح في أعماله، وبلغت المدارس التي أسسها الأمين من الشهرة في مجال التربية والتعليم، ما حدا بأحد الوزراء السوريين إلى أن يرسل ابنته إلى مدرسة البنات قائلاً: «أفضل الكمال الخلقي بهذه المدرسة على أي مدرسة أخرى».

وإلى جانب المدارس، أنشأ جمعيات خيرية لتمويل مشاريعه التعليمية، فضلاً عن مساعدة الفقراء، ومنها: «الجمعية المحسنية» و«جمعية رعاية الفقراء والأيتام» و«جمعية الإحسان» و«جمعية المؤاساة»[٤].

ولعل النجاح الذي لقيته تلك المشاريع، كان الحافز الذي دفع علماء آخرين إلى الإقتداء به في بلدان أخرى، كما حصل في النجف الأشرف على يد الشيخ محمد رضا المظفر من تأسيس «جمعية منتدى النشر» والمؤسسات التعليمية الأخرى[٥].

وسلك في الأمر الثاني طريقاً حاسماً للقضاء عليه، وهو ما عبر عنه بالنظر إلى الناس بعين المساواة وعدم التحيز لفريق دون آخر، ويعود سر النجاح في ذلك إلى الممارسة العملية في إقرار المساواة والعدل كواقع ملموس، وفي عمق تأثير السيد الأمين في محيطه الاجتماعي، ويدل على مدى احترام قدره وشخصينه الجذابة وكلماته التي تبعث الاطمئنان في النفوس، وقد نجح في هدم الحزبية البغيضة، وأصلح ذات البين بين مختلف الفئات، وقد طبع على التسامح، واشتهر بجرأته في قول الحق والتصدي للانحراف.

* * *

وأخيراً اهتم السيد الأمين اهتماماً خاصاً بإصلاح إقامة العزاء لسيد الشهداء الإمام الحسين(عليه السلام) من خلال نقد الأخبار والأحاديث المكذوبة وتمحيصها، ومهاجمة بعض الأعمال الصحيحة وخلافها، فعمل على تنزيه الذكرى من خلال المؤلفات التي تتناول هذا الموضوع ومنها: «أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثأر» ألفه سنة ١٣٣١هـ / ١٩١٢م، و«لواعج الأشجان في مقتل أبي عبد الله

الحسين» في السنة نفسها، وفي كتابه الكبير «المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية»، ألفه سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م في خمسة أجزاء، ورتبه بشكل مجالس حسينية، تتناول تاريخ الثورة الحسينية، وحياة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) عرضاً وتحليلاً، وبصورة ناصعة خالية من الأخبار والروايات الغريبة والضعيفة، كما وجه سهام نقد جريئة إلى بعض المظاهر السلبية التي رافقت الشعائر الحسينية وألصقت بها، فبدت دخيلة عليها، مضرة بها.

وعندما رأى أن الشعر الذي يُقال أحياناً في مجالس العزاء دون المستوى المطلوب، وضع كتاباً آخر هو «الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد» سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م، كما ألف كتاب «إقناع اللائم في إقامة المآتم» وأخيراً، كانت ثورته الإصلاحية الكبرى في رسالة «التنزيه» التي نشرها سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م، وهي رسالة صغيرة الحجم (٣٠ صفحة)، ولكنها عظيمة الخطر والتأثير، بما ترتب على ظهورها من نتائج، وجعلت من العلامة الأمين واحداً من أبرز المصلحين في عصره.

بدأ السيد رسالته بذكر المنكرات التي أدخلت على إقامة العزاء، فإذا هي محصورة بالأمور التالية:

١ ـ الكذب

٢ ـ إيذاء النفس وإدخال الضرر عليها، وذلك بضرب الرؤوس وجرحها بالمدى والسيوف حتى يسيل دمها. وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى الإغماء بنزف الدم الكثير.

٣ ـ ومنها استعمال آلات اللهو كالطبل والصنوج النحاسية والبوق وغيرها.

٤ ـ ومنها تشبه الرجال بالنساء في وقت التمثيل.

٥ ـ ومنها إركاب النساء الهوادج مكشفات الوجوه وتشبيههن ببنات رسول الله(ص).

٦ ـ ومنها صياح النساء بمسمع من الرجال الأجانب

٧ ـ ومنها الصياح والزعيق بالأصوات المنكرة والقبيحة

٨ ـ ومنها كل ما يوجب التهتك والشنعة، ولا يدخل تحت الحصر، ويختلف باختلاف الأقطار[٦].

تجاوزت قيمة هذه الرسالة حجمها المتواضع، وأحدثت دوياً كبيراً في العالم الإسلامي، ونتجت عنها ردود فعل متناقضة بين مندد ومعارض لها، وبين مناصر ومدافع عنها[٧]، وتعرض السيد من جرائها لانتقادات شديدة وحملات عنيفة، ككل مصلح يتصدى للانحراف لتقويمه، ومع ذلك صمد السيد لتلك الحملات المغرضة، بقوة شخصيته ومقدرته العلمية، حتى فازت دعوته، ورأى الناس أنها دعوة الحق[٨]، وعلى هدي هذه المدرسة سار، فيما بعد، المجددون في بيروت وجبل عامل وغيرهما.

لقد عمل سماحته على إحياء المراسم الحسينية وتواصلها، وكان أحد المؤسسين لها في دمشق، لنستمع إليه يحدثنا عن معالجته لهذه المشكله التي تمثل خلاصة حركته الإصلاحية الشهيرة:

«أما الأمر الثالث، وهو إصلاح إقامة العزاء لسيد الشهداء(عليه السلام)، فكان فيه خلل من عدة جهات، منها ما يتلوه الذاكرون من الأخبار المكذوبة والأنماط الشائنة وبعض الأعمال التي تجري في المجلس. . . وقرأ قارىء يوماً في الكاظمية، فلم يذكر في ذلك المجلس حرفاً واحداً صادقاً، وكان إلى جانبي السيد مهدي آل السيد حيدر، فقلت له: «أقسمت عليك بالله، هل فيما ذكره هذاالرجل حرف صادق؟» قال: «لا»، قلت: «فلماذا لا تنهون؟» قال: «لا نستطيع . . » فجهدتُ في تنزيه هذه الذكرى المباركة عن مثل ذلك، ونهيت القراء عن قراءة مثلها، وألفت كتاب «لواعج الأشجان» في مقتل الحسين(ع)، وانتقيته من الكتب المعتمدة، ورتبته أحسن ترتيب، وأردفته بكتاب «أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثأر»، وبكتاب «الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد»، وبالنعي للشيخ محمد بن نصّار، فراج ذلك رواجاً تاماً، ورأيتُ أن تدريب القراء على قراءة الصحيح لا يتم إلا بوضع كتاب، فألفنا كتاب «المجالس السنية في مناقب ومصائب النبي والعترة النبوية» في خمسة أجزاء. . . »[9] ومضى إلى أكثر من ذلك، حينما طالب الخطباء بأداء القراءة الحسينية بالفصحى لإظهار المجلس الحسيني بمنظر يجذب إليه الفئات المثقفة من الشعب، وليتمكن الخطيب من أداء رسالته على أكمل وجه، وحول هذه المسألة يعلق سماحته قائلاً:

«وعندنا أن من أهم الأمور إيجاد مدارس لقراء التعزية، يتعلمون فيها النحووالصرف بما يستطيعون به حفظ ألسنتهم من الغلط، وكيفية الرجوع إلى كتب اللغة لضبط الألفاظ العربية والخطابة، ويتمرنون على إلقاء الكلام في المجتمعات على معرفة المقامات المناسبة لأنواع الكلام، ويحفظون الأحاديث المكذوبة والتي لا يوافق قراءتها، أو القصائد الركيكة، وبهذه الوسيلة تخلص القراءة مما يعتورها من العيوب والمفاسد»[10].

وهكذا أمكن للمجلس الحسيني أن يتقدم إلى الأمام خطوات واسعة، بفضل جرأة السيد الأمين وحركته الإصلاحية.

ثانياً: جهاده الوطني والإسلامي:

إلى جانب الدور الإصلاحي الذي قام به على المستوى الديني والتربوي، فإنه قاد في سورية حركة سياسية كبيرة، كان لها الأثر البالغ في توطيد عرى الوحدة الوطنية في مقاومة الانتداب الفرنسي، وقد استطاع من خلال ذلك أن يجسد صورة القائد الإسلامي الذي يحمل هموم الأمة، ويدافع عن قضاياها، ويعيش مضحياً من أجلها، فغدا رمزاً من رموز التحرير في العالم الإسلامي، كما اشتهر بمواقفه الوطنية والإسلامية المشرّفة، ودفاعه عن القضايا العربية في وجه الانتدابين الانكليزي والفرنسي، فوقف علناً مؤيداً دعوة الملك فيصل بن الحسين (المتوفى سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م)، والذي

دخل دمشق سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م وكان الانكليز والفرنسيون متواجدين في دمشق في تلك الحقبة.

قام السيد على رأس وفد من علماء جبل عامل بالدخول على الملك فيصل ومبايعته وتأييده في مسعاه لتوحيد البلاد العربية، وقدموا له التهاني إثر تتويجه ملكاً على سوربة[١١]. ويذكر السيد الأمين بعض ما جرى بينه وبين الفرنسيين من وقائع، فقد أصدر الفرنسيون قانون الطوائف بما لايوافق مصلحة المسلمين، ويخالف نص الشرع الإسلامي، فعارض هذا الأمر جملة من علماء دمشق، وبالغوا في المعارضة، فأوقف القانون، ثم أصدر الفرنسيون بلاغاً بأن وقفه يشمل السنيين من المسلمين فقط، فانبرى السيد لتقديم احتجاج للمفوضية الفرنسية باللغتين العربية والفرنسية، فغضب الفرنسيون، ونشرنه الصحف[١٢]، فاضطر الفرنسيون للرضوخ لمطالبة الرئيس الروحي للطائفة الشيعية في سورية ولبنان.

شعر الفرنسيون بقوة السيد ومنزلته، فعزموا على إحداث منصب (رئيس علماء) للشيعة في سورية ولبنان، وقرروا تعيينه لهذا المنصب، وأصدروا له مرسوماً بذلك اعتقاداً منهم بأنه يقبله بكل امتنان، ولكنه أجاب الموظف الفرنسي قائلاً: ««إنني موظف عند الخالق وسيد الأكوان، ومن كان كذلك لا يمكن أن بكون موظفاً عند المفوض السامي، فاشكره بالنيابة عني على ثقته بي، واحمل إليه أن المعاش الكبير، والمركز الخطير، والدار المنيفة، والسيارة الرفيهة، كل أولئك قد أغناني الله عنه بالقناعة»، وقال للرسول الذي جاء بالكتاب: «إن هذا الأمر لا أسر إليه بقدم، ولا أخط فيه بقلم، ولا أنطق فيه بفم...». ثم جاءه إلى دمشق اثنان من زعماء الشيعة في لبنان، يطلبان منه القبول والموافقة، ويحتجان بأن المسألة تحتاج إلى شيء من التضحية، فقال لهما: «لا يصعب على المرء أن يضحي بدمه في سبيل المصلحة العامة، ولكنه لا يضحي بكرامته»[١٣].

وعندما اختلفت شركة الجر والتنوير الفرنسية مع الأهالي في دمشق، حرض السيد على مقاطعة الشركة التي تتحكم بالأهلين، ودعا لتحويل المقاطعة إلى ثورة عامة على الفرنسيين، فنُظمت المقاطعة في تلك الجلسة، ثم انقلب الأمر إلى ثورة شاملة، فأضربت سورية إضرابها الخمسيني الشهير، الذي اضطر معه الفرنسيون إلى النزول على حكم الأمة الثائرة[١٤].

ومن كلمات السيد الأمين التحريضية، أمام فريق من زعماء الكتلة الوطنية زاره في منزله، «ما بالنا لا نقاطع هذه الشركة الأجنبية؟ فلو كان فينا شمم وإباء لآثرنا (النواصة) على ضياء الكهرباء، ولم نرض بأن تتحكم بنا هذه الشركة الأجنبية». وفي اليوم التالي، قاطع الناس الشركة مقاطعة تامة، وأحرقوا بعض عرباتها، ولم يعد يركب فيها أحد، ثم تحول الأمر إلى قيام عام على الانتداب الفرنسي.

وعلق الأستاذ والمفكر اللبناني منح الصلح على مراقف السيد المشرفة تلك في مقال له، بعد أن ذكر عبد الحميد بن باديس وأثره في تحضير الجزائر للثورة: «.. والنموذج الثاني بين رجال الدين، على

العلاقة الخلاقة بين العمل الوطني والإسلام، هو المجتهد الأكبر السيد محسن الأمين الذي كان في دمشق إمام العمل الوطني السوري ومرجع المذهب الشيعي الأعلى، فهو على الصعيد الديني لا يقل أثراً وسعة أفق عن الإمام محمد عبده. وعلى الصعيد الوطني، كان رأس الوطنيين السوريين، وفي بيته أعلنت الحركة الوطنية في سورية سنة ١٩٣٦ إضراب الستة أشهر الشهير»[١٥]. ولا شك أن هذه المواقف، كانت تبث في الشعب السوري روح المقاومة والصلابة والتحدي تجاه الاحتلال الفرنسي،

وهذا ما ذكره بالفعل لطفي الحفار (أحد رؤساء الوزارة في سورية سابقاً)، إذ قال: «كنا نستمد قوة روحية، ورعاية واسعة، ودعوة صالحة من ا لإمام المجتهد السيد محسن الأمين. . وما عدنا من منفى أو سجن والمعارك سجال بيننا وبين هؤلاء أذناب المستعمر الذين يخدعون الناس ويضللونهم بالباطل إلا وكان الإمام السيد يدعو للثبات والتضحية والإخلاص في العمل. ويبارك جهود العاملين، ويدعو لهم بالقوة والتأييد. وكم كنا نأنس بزيارته من حين إلى آخر في سبيل الله والوطن. . .»[١٦].

وكان حرصه شديداً على حفظ الوحدة الإسلامية والوطنية بين فئات الشعب، وقد اشتهر عنه قوله: «لم نزل نتخاصم على شرعية الخليفة حتى صار المندوب السامي الفرنسي هو خليفتنا»[١٧]. وجاءه رجل يوماً وقال له: «أريد أن أكون جعفرياً» وعلى الرغم مما بين له من عدم وجود فرق بين السني والشيعي، فالرجل لم يقنع، فقال له: «قل: لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فقالها، قال له: «أصبحت جعفرياً»[١٨].

كان السيد (رحمه الله) قائداً سياسياً، يلتقي مختلف الطبقات، ويحثها نحو واجبها الأسمى في الدفاع عن كيان الدين والوطن، ويحدث رجال الكتلة الوطنية الذين كانوا يزورونه عن أهمية التضامن والوحدة، ومما كان يستشهد به في أحاديثه «ثورة التنباك» الشهيرة في إيران، وكيف أن تضامن الشعب الإيراني مع قيادته الإسلامية انتهى إلى إحراز النصر المؤزر على شركة التبغ الانكليزية الاحتكارية ومن ورائها الدوائر الاستعمارية البريطانية في إيران ويبدو من سيرته السياسية أنه قد تأثر في وعيه السياسي تأثراً عميقاً بتلك الثورة الفريدة، فكانت مثلاً يسعى للاقتداء به، وتجربة يؤمن بإمكانية تكرارها.

وتأكيداً منه على نهج الوحدة، قدم السيد الأمين للحكومة السورية، في عهد الاستقلال، كتاباً أعلن فيه أن الشيعة تعتبر المسلمين طائفة واحدة، ولا تريد الافتراق عن إخوانها السنيين، رداً على قرار الحكومة السورية بشأن تحديد عدد المقاعد النيابية للمسلمين السنة ولسائر الطوائف والأقليات، فكان لموقف السيد الوقع الحسن عند الوطنيين، وقررت الحكومة بأن المسلمين طائفة واحدة، لا فرق بين سنيهم وشيعيهم، وأن هذه المقاعد المعينة للمسلمين في جميع أنحاء الدولة السورية هي للسنيين والشيعيين على السواء[١٩].

وتكريماً للسيد الأمين ومواقفه الجهادية أعطت الحكومة السورية اسمه للمحلة التي يسكنها في

دمشق، وكانت تدعى «الخراب» فأطلق عليها اسمه محلة «الأمين»(٢٠).

ولم يقتصر جهاده السياسي على معالجة قضايا الساحة السورية فحسب، فقد كانت تهمه قضايا المسلمين كافة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، ففي اليوم الذي حددته الحكومة السورية يوماً لدعم فلسطين، أصدر السيد الأمين نداء إلى المسلمين، نشرته الصحافة العربية، يدعو فيه إلى مساندة القضية الفلسطينية ودعم الشعب الفلسطيني بالغالي والنفيس، وفيما يلي نص النداء:

«لقد رُوعت فلسطين ـ شطر الشام الجنوبي ـ بأشد مما رُوع به قطر، واستقبل العرب فيها أعظم ما يستقبله شعب، وصابروا فيها أقوى ما يُصابر الأبطال ويغالب الفحول. ففي كل يوم نضال واقتتال ودم بريء يهدر، وحق مهضوم يستصرخ، وفواجع في الأنفس والأموال والثمرات، وصراع قائم بين حق وباطل، ومن خلف الباطل دولة من أقوى الدول عديدا وعدة، أما الحق في هذا الصراع فهو أعزل إلا من قوة الإيمان، مخذول إلا من نصرة العقيدة، إن هذه البقعة من الأرض التي تضم أولى القبلتين وثالث الحرمين، والتي درج منها عيسى (النبي)، وأطلت منها دعوته، هي اليوم موطىء لطوائف من أخلاط الشعوب، يمدون الأيدي لاستلاب الإرث القومي التليد وانتزاع مخلفات الجدود... أيها العرب، أيها المسلمون:

إن لكم في فلسطين تراثاً، وإن لكم في كل غور ونجد وحزن وسهل منها دماً عجن به ترابها، واختلط به ماؤ ها ونباتها، وإن أربعة عشر قرناً زاخراً بالمفاخر والمآثر تحدق بكم اليوم، وأمجاداً من عليا معد ونزار، ترفرف أرواح في آفاقكم تستفز عزائمكم، وتستصرخ نجدتكم...»(٢١).

وهكذا كان السيد يستصرخ الضمائر، ويستحث الهمم في سبيل نصرة القضايا الوطنية والإسلامية، وللأمين، أحسن الله إليه، في باب الوطنية ما يُسجل بمداد الإكبار والإعظام، وكانت وطنيته من الطراز الراقي الناهض على التعقل والحكمة.

قاوم الاستعمار أشد مقاومة بوقوفه سداً منيعاً بوجه مطامع الأعداء ومخاتلتهم وأهدافهم المشبوهة في تفريق الشمل وبذر الأحقاد والاستمالة بالمال والوظائف.

لقد كان قدوة في العمل الوطني من خلال توجيهاته وفتاويه لصالح العروبة والإسلام في كل أزمة، وخاصة في قضية فلسطين، كما كافح السيد في سبيل تحرير سورية، وتأمين استقلالها، فكان بيته بدمشق في عهد الانتداب مدار الحركة الوطنية، وكذلك جاهد في سبيل توحيد الأمة العربية وجمع الصفوف. لذا احتل منزلة مميزة في الفكر الإسلامي المعاصر، وفي النهضة الإسلامية الحديثة، سواء بالانجازات التي حققها، أو بتأثيره الشخصي في أوساط معارفه وتلامذته ومحيطه، أو بمؤلفاته المهمة والمتنوعة والغزيرة.

عاش السيد محسن الأمين في مجتمع يعاني من أمراض الجهل والتعصب، فوقف حياته على محاربة هذه الآفات، وتطالعنا في مسيرة حياته صورة رائعة للرجل الذي يهتم بالآخرين بصدق وإيمان وإخلاص وسعادة. وانصب اهتمامه بشكل جليّ على وحدة المسلمين، وتبيان أن الشيعة الإمامية هم من الإسلام في الصميم، خلافاً لما تدأب على بثه بعض الأبواق التي تسعى إلى تفتيت المجتمع الإسلامي وشرذمته، في وقت يبدو هذا المجتمع بأمس الحاجة إلى الوحدة والتماسك في ظل الظروف الدولية الجديدة، والهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين، وعلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية الفتية التي تسعى بكل السبل لتعزيز وحدة المسلمين وترسيخها، ليعود للإسلام سابق عزه ومجده.

وبعد عمر حافل بالعطاء، وجهاد مستمر في شتى الميادين، يترجل الفارس عن صهوته، وينتقل إلى جوار ربه في الثلاثين من آذار سنة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ويُدفن في جوار السيدة زينب في دمشق، بعد تشييع رسمي وشعبي حاشد، ويصدر رئيس الدولة السورية مرسوماً يمنح بموجبه الإمام المجتهد الأكبر، المغفور له محسن الأمين الحسيني وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، تخليداً لأعماله المجيدة ومواقفه الوطنية وخدماته الجليلة التي أداها للبلاد.

وقد رثاه الكثير من الشعراء والأدباء والسياسيين والإعلاميين، وعددوا مآثره ومزاياه، وما أصدق المرحوم الشيخ أحمد عارف الزين صاحب «العرفان» في رثائه:

لمُحسننا الأمين كبير فضلٍ ... فلا يُحصى بكتب أو بصحف

«إذا عدّتْ رجال الفضل يوماً ... فإنك واحد بمقام ألفِ»

بفقدك قد فقدنا كل فضلٍ ... وفضلك جل عن نعت ووصف[22]

رحم الله السيد محسن الأمين، وأسكنه فسيح جنانه، «والعاقبة للمتقين» والفاتحة لروحه الطاهرة ولأرواح جميع الشهداء والصديقين، تسبقها الصلاة على محمد وآله محمد

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحواشي

(١) الأمين، السيد محسن «سيرته بقلمه..» ص١٠٧.

(٢) «أعيان الشيعة» م١٠، ص٣٦١

(٣) «سيرته بقلمه.» ص١١٠.

(٤) «أعيان الشيعة» م١٠، ص٤٢٥

(٥) مجلة التوحيد، العدد ٥٢

(٦) رسالة «التنزيه» ص٨ و٩.

(٧) كانت ردة الفعل الأولى في لبنان وطن السيد الأصلي، إذ ألف السيد عبد الحسين شرف الدين رسالة أسماها «رنة الأسى» لا يتردد فيها باتهام السيد الأمين بالمروق من الدين وتحريم إقامة العزاء ومع ذلك، فإن الضجة الكبيرة، قامت بالنجف الأشرف، ويصفها المستشرق «حنا بطرك» بما يلي. «لقد ظهر السيد محسن الأمين كواحد من أبرز المصلحين في رسالته المهمة «التنزيه» فقد انتقد بعنف الانفعالات المبالغ فيها التي يقوم بها أبناء طائفته في ذكرى عاشوراء. وبعد أن يذكر أبرز انتقادات السيد محسن، والتي سبقت الإشارة إليها، يُسهب في وصف الأجواء المحمومة التي عرفها النجف، إثر ظهور هذه الرسالة، وكيفية انقسام الناس إلى «أمويين» و«علويين» وبزيد الانتقادات والمعارك الكلامية التي تجعل من هذا المصلح الكبير «أموياً» في نظر الكثيرين، بل يزعمون أنه «يحرم ندب الحسين»!

ومع ذلك، لم يعدم السيد محسن من وجود ناصرين له، وفي طليعتهم شيخ النجف الأكبر، وجريدة الفجر الصادق، وخاصة الكاتب الأستاذ جعفر الشبيبي، وعندما عاد السيد إلى النجف، كانت المعركة قد هدأت، ووجد هناك الكثيرين الذين أقبلوا على تقبيل يديه»

حمّود، الدكتور محمد، مجلة «الثقافة الإسلامية»، العدد ١٢.

(٨) مروّة، محمد علي، مجلة «العرفان» م٤٢، ج٧.

(٩) «أعيان الشيعة» م١٠، ص٣٦٢.

(١٠) سلمان، عبد الكريم، مجلة «التوحيد» عدد ٥٢

(١١) «سيرته بقلمه..» ص١٣٤

(١٢) «سيرته بقلمه..» ص١٨٠.

(١٣) «سيرته بقلمه..» ص١٣٦

(١٤) كشف هذا السر الأستاذ أديب الصفدي في مقالة له بعنوان «الزعيم الوطني» في جريدة الشعب الدمشقية، راجع كتاب «سيرته بقلمه..» ص٢٢١

(١٥) المرجع نفسه، ص١٧٤.

(١٦) «أعيان الشيعة» م١٠ ص٣٨٣ و«سيرته بقلمه..» ص١٧٨.

(١٧) مجلة «المنطلق»، العدد الخامس عشر، رمضان ١٤٠١هـ

(١٨) «أعيان الشيعة» م١٠ ص٣٨٨

(١٩) المرجع نفسه ص٣٧٠.

(٢٠) علقت الصحف العربية على هذا الموضوع، فقالت جريدة القبس الدمشقية: ليس يجهل أحد ما لسماحة المجتهد الأكبر السيد محسن الأمين من أياد مشكورة مبرورة، في حقل الإصلاح الديني والثقافة الإسلامية، وليست تجهل دمشق نفسها التي اتخذها سماحته مقره الدائم ما له من فضل على الروح الوطنية التي دفعت الشيعة الدمشقيين إلى المشاركة في الجهاد الوطني السوري في مختلف مراحله، وإلى التضحية في هذا المضمار، وقد عرفت الحكومة السورية الوطنية لسماحته هذه المكانة العالية بصفته زعيم الشيعة الأكبر في هذه الديار، فأوعزت إلى بلدية العاصمة أن تقدر فضله بتخليد ذكره وإطلاق اسمه الكريم على المحلة التي يقطنها الشيعة في دمشق، بدلاً من اسم «الخراب» الذي كانت تعرف به... «أعيان الشيعة» م١٠ ص٣٧٠.

(٢١) «سيرته بقلمه..» ص١٨٠.

(٢٢) المرجع نفسه ص٢٥١، يمكن مراجعة المراثي وكلمات التأبين في كتاب «سيرته بقلمه..» من ص١٧٥ وحتى آخر الكتاب

الجانب الإصلاحي
للعلامة السيد محسن الأمين العاملي

******************** الدكتور عبد المجيد زراقط

بسم الله الرحمن الرحيم

في مواجهة مشكلات عصر النهضة، تعددت الرّؤى بين تبعية للغرب وتوفيقيّة.. ورؤية حاولت أن تبيّن سبل النهوض ليس نتيجة الإتصال بالغرب: الغزو الإستعماري والتقدم الحضاري فحسب، وإنما انطلاقاً من وعي الذات الإسلامية هويّتها وواقعها، وهو ما يتيح لها مواجهة ما يستجد من مشكلات في الواقع المعاش، ومن بينها خطر الغزو الغربيّ وإشكالية بناء المجتمع الحديث.

تستند هذه الرؤية إلى مبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» الذي يستمر قائماً طوال الزمن ليواكب التحوّل المجتمعي، محدّداً المعروف والمنكر، بالإستناد إلى النّص الأصل الثابت، وهذه الحركة الاجتهادية ينبغي ألا تتوقف.. وهذا الفهم لوظيفة الإجتهاد وطبيعته يؤكد حقيقة تدخل في تكوين جوهر الإسلام ومفادها أنه خاتم الدّيانات، وأن محمداً بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم أنبياء الله ورسله، وأن حلاله حلال وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

إنّنا؛ إذ نعود إلى ما حققه السيِّد محسن الأمين: تأليفاً وإنجازات عملية، نرى أنه كان يمتلك هذه الرؤية. ويقتضي بيان ذلك البحث في عدّة قضايا منها مفهوم الإصلاح في الإسلام وضرورته، شخصيَّة المصلح الإسلامي ومدى توفر شروطها لدى السيِّد الأمين، وحركة السبد الإصلاحية ومظاهر تجلّيها.

مفهوم الإصلاح وضرورته في الإسلام

نقرأ آيات من القرآن الكريم ونخلص إلى تحديد عناصر هذا المفهوم، كما يبدو لنا:

جاء في القرآن الكريم: قال: **﴿يا قوم، أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربِّي ورزقني منه رزقاً حسناً. وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. إن أريد إلَّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلَّا بالله. عليه توكلت وإليه أنيب﴾**. وجاء أيضاً: **﴿ما فرَّطنا في الكتاب من شيء. إنَّا أنزلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون﴾**.

يتيح الإطلاع على هذه الآيات الكريمة الخلوص إلى ما يلي:

١ ـ ينهى المصلح قومه عن المنكر، ويدعوهم إلى المعروف. وهذا ليس مخالفة وإنما إصلاح للخطأ ومنعه من أن يصبح واقعاً مقبولاً، وكأنه قدر. وهذا يعني حركة تجدد دائمة.

٢ ـ يصدر، في دعوته عن بينة من ربِّه ورزقٍ حسنٍ منه، ومن هنا عمق إيمانه ورسوخ قناعاته وضرورتها.

٣ ـ البيّنة وحي الأنبياء، واجتهاد انطلاقاً من النَّص بعد بعثه خاتم الأنبياء وهذا يعني تميُّز المصلح المجتهد بالقدرات القيادية، من ذكاء وثقافة شاملة عميقة ووعي بواقعه.

٤ ـ تشمل البيِّنة مختلف شؤون الحياة في جميع الأزمنة، وهذا يقتضي بقاء الإجتهاد في حركة دائمة ليبقي شريعة الحياة إلى يوم الدين. وفي هذا المعنى يقول الشيخ أحمد عارف الزين: (. . . ومعاذ الله أن يرسل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خاتماً للأنبياء، ثم يجعل رسالته رسالة فترة زمنية لأمة واحدة وجيل واحد، فذلك نقيض الألوهية). الإجتهاد يتحرك من ثابت هو النص ليرى إلى متحول هو مستجدَّات الحياة، وهذا ما يجعل حركة الشريعة مواكبة لحركة الحياة، وهوما يمنع الجمود، وما يمنع أن يكون الإسلام شرع فترة من الزمن. وشرع أمة واحدة.

٥ ـ لا ينتظر المصلح التَّوفيق السريع والمكاسب الدنيوية، وإنما يوكل أمره إلى الله، فمنه التوفيق في الدنيا والثواب في الآخرة، فالدنيا لديه مزرعة للآخرة. جاء في القرآن الكريم: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً﴾**. ومن هنا التجرّد وحتى إنكار الذَّات والصلابة حتى الإستشهاد.

٦ ـ ثقة المصلح بالإنتصار، وحتمية هذا الإنتصار في نهاية الأمر وقد تجسَّدت هذه العناصر عملياً في فترة من التاريخ لم تتجاوز العام السِّتين من الهجرة. وذلك عندما أراد صاحب السلطان أن يجعل الحكم الذي وصل إليه بقوتي السلاح والمال حقاً شرعياً، فما كان من الإمام الحسين(عليه السلام) إلَّا أن خرج يطلب الإصلاح في أمة جدِّه ليحطِّم ذلك الزِّيف وكانت الشهادة الخط الذي يؤكد أن في الإسلام قدرة إزالة المنكر من طريق العودة إلى ما بيَّنه الله.

إن وضوح مفهوم الإصلاح لدى أصحاب الإجتهاد واقتناعهم بضرورته جعل حركاتهم الإصلاحية تتصف بميِّزات منها: تولي علماء الدين المجتهدين قيادتها، واتخاذها في الغالب منحىً عملياً تغييرياً، وتجددها في كل فترة من التاريخ تحتاج إلى ذلك، وعدم المساواة والبعد عن التوفيقية التي تطول جوهر الدعوة.

وهذا يقتضي أن تتوفر في المصلح شروط منها: أن يكون على بينة من ربِّه، وأن يرى في الدنيا مزرعة للآخرة، وأن يكون حازماً غير مساوم، وواثقاً بحتمية الإنتصار، انطلاقاً من الإيمان بعدم تفريط كتاب الله بشيء وحفظ الله لذكره، وأن ينحاز إلى صفوف المستضعفين من عباد الله.

وإن يكن الأمر على هذا النحو يصبح طرح السؤال التالي والإجابة عنه أمرين ضروريين، والسؤال هو: هل كان السيد محسن الأمين يمتلك شروط المصلح المجتهد القادر على الإجابة عن أسئلة حركة الحياة، انطلاقاً من نص ثابت. واقتناعاً بأن التجديد هو اللبّ والأساس في القديم أو جوهره؟

شخصية المصلح الإسلامي / ومدى توفر شروطها لدى السيد الأمين:

ولد السيد محسن الأمين ونشأ في جبل عامل الذي لم تخمد فيه جذوة العلم والأدب ابتداء من القرن السادس الهجري، على عكس ما حدث في كثير من بلاد المسلمين. ولم يخل عصر لم ينبغ فيه عدد من المجتهدين ومما يشير إلى ذلك المعلومة التالية: (اجتمع في جنازة، في قرية من قرى جبل عامل، سبعون مجتهداً، في عصر الشهيد الثاني)[٢](ت ٩٦٥ هـ).

وينتمي إلى أسرة لم ينقطع «العلماء والأدباء منها، منذ عهد انتقالها من العراق ووشوج أعراقها في جبل عامل، أي ما يزيد عن قرنين ونصف القرن»[٣]. ويبدو أن جد تلك الأسرة السيد موسى بن حيدر، المكنى بأبي الحسن (١١٣٨ ـ ١١٩٤ هـ)، كان قدوة أبنائه وأحفاده، فقد أسس مدرسة بلغ عدد طلابها في ذلك الحين ثلاثمئة طالب، وبنى مسجد شقراء، وأم الزعيم الوطني ناصيف النصار في صلاة حضرها خلق كثير، وكان ذا عناية بالكتب فكون مكتبة خاصة نهبها الجزار، وبقي هذا النمط من

السلوك سائداً لدى أفراد الأسرة النابهين. فهذا السيد محمد الأمين، يأتي بخرج فيه كتب من دواوين شعرية وغيرها، ويعطي كل واحد من أبناء أقاربه كتاباً ويكتب عليه أنه وقف ويشترط شروطاً من بينها «أن يعيره ولا يمنعه» وكأنه وقف عليه ضيعة وفق تعليق السيد محسن الذي كان أحد الفتية الزائرين(٤).

وقد تربى في كنف والدين عنيا بتربيته أفضل عناية، وكأنها كانا يعدّانه ليلعب دوراً رائداً، فوالدته كانت وعلى الرغم من كونه وحيدها بين عدة بنات، تحرص على تعليمه مهما كلفه ذلك من مشاق، فقد تولت بنفسها تعليمه مبادىء القراءة والكتابة، وراحت تراقب انصرافه إلى الدّرس، وتوفر له شروط المتابعة، ووالده كان يقوم بالدور نفسه، فعلى الرغم من تواضع إمكاناته المالية وعجزه، بعدما غدا لفيفاً، أرسل ابنه إلى النجف ليكمل تعليمه وينال مرتبة الإجتهاد.

أتاحت له هذه الظروف الموضوعية الفرص فكان جديراً بإفادة منها إلى أقصى حد. فمنذ طفولته كان قادراً على تمييز جيد الأمور من سيئها واتخاذ قرار حازم بشأن ذلك. رفض أن يتعلم في الكتّاب لما رأى عقم طرق التعليم فيه وقسوة العقاب: العصّي والفلقة. وفي فترة تالية ترك الدراسة عند «من لو كان فاهماً للدرس لفهمنا منه»، على حد ما جاء في السيرة. وانصرف إلى شيخ آخر، وإن كلفه ذلك من العناء الكثير.

كانت القدرة على إعمال العقل في السائد ونقده وإصلاحه بارزة لديه طوال مراحل حياته، فأثناء متابعته دروس النحو حفظ منها الصحيح والضروري، وفي النجف لاحظ أوجه الخلل في الدراسة، واقترح الحلول لها، دون أن يفوته ذكر الإيجابيات المتمثلة بالتداول وإبداء الرأي والرد عليه، وقبول الشيخ برأي تلميذه إن كان مصيباً.

وهذه القدرة على فهم الأمور وتمييزها واتخاذ قرار بشأنها، كانت تستند إلى ثقة بالنفس وحزم، وهذا يكون فرادة فذّة يعبر عنها قوله لأحد الأساتذة الجامدين، سنة ١٩٢٠: «لماذا نحذو حذو الأقدمين هم رجال ونحن رجال»(٥).

وعلى الرغم من هذا الإعتداد بالذّات الواعية قدراتها كان السيد دمث الأخلاق، ويكاد يكون، كما خاطبه الشيخ موسى شرارة، وهو فتى حسينياً: «كل صفاتك حسنة إلاّ شدة الحياء». وتجلى هذا الحياء، في ما بعد، في شخصية لطيفة المعشر، هشّة بشّة، لبقة في التصرف، تثق بالناس، وتفترض الخير فيهم. يقول: غبننا بعض من وثقنا به فقال عمي: الثقة بكل أحد عجز، أعجبت بهذا الحديث لما فيه من الحكمة، ولكنني مع ذلك قد أثق بمن لا يوثق به». ولعل هذا الصفاء، أو الطهارة، ما جعل وجه السيد يشع، على حد وصف أحد عارفيه، «بالإيمان حقاً، فقد كانت له جاذبيته وسحره. وكان ينم عن نفس وادعة بعيدة عن التعقيد، لا غموض فيها ولا إبهام، فلا يلبث أن يراه أحد حتى يحبه». (٦)

ومنذ نعومة أظفاره في دروب تحصيل المعرفة كان لا يكتفي بالمقرر، وإنما يرغب في مصادر أخرى،

ويبحث، «طلب شراء ديوان شعر فاشترى له أحد أصدقاء والده ديوان أبي فراس، وأهديت له كتب أدبية فكان يقرأ، ويعمل فكره وذوقه في ما يقرأ، فيختار الشعر الجيد ويعلق عليه. ثم تجاوز ذلك إلى التأليف، فألف كتاباً في النّحو، ونظم أرجوزة في علم التصريف حوالي سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م. ولما يتجاوز السادسة عشرة من عمره. واستمرت الحال على هذا المنوال، فكان يمضي أوقاته في التدريس والمطالعة والعزلة عن الناس، ونفسه تتوق إلى الهجرة للعراق. وظل بعد أن نال درجة الإجتهاد لا شغل له، في جميع أيامه سوى المطالعة والتأليف والقضاء بين الخصوم وجوابات المستفتين، وأثناء رحلاته كان هذا دأبه. قال لزائره أثناء إحدى رحلاته العلمية: «إنني رجل مسافر وأوقاتي ثمينة، وما جئت هذا البلد إلاَّ لمقابلة هذا الكتاب وأمثال هذا، لا شغل لي سواه».

ولم يحد عن هذا الدأب حتى نهاية العمر، ففي السادسة والثمانين من عمره، كان يواصل الكتابة والإطلاع على رغم ما تراكم عليه من الهموم، كما يقول. وأثمر هذا نتاجاً يصفه بقوله: «ولو قسّم ما كتبناه تسويداً أو تبييضاً ونسخاً وغيرها على عمرنا، لما نقص كل يوم عن كراس مع معدم المساعد والمعين غير الله تعالى»(٧). وكان هذا النتاج موسوعياً يشمل مختلف علوم العربية وآدابها، ومن هنا يتخذ وصيته بدفن محبرته وأقلامه معه دلالتها المعبرة.

ولم يكن طلب العلم والتأليف فيه بمانعه عن الإتصال بالناس وتحمل همومهم ومباشرة الأمور بنفسه، إن كان ذلك ضرورياً، ورائده في ذلك القول المعروف «الحر معوان» وقول الشاعر:

وإنَّ الكريم، وأبيك يعتمل إن لم يجد يوماً على من يتكل

اهتم بزملائه الذين أصيبوا بالحمى فكنس الغرفة وأجرى الحقنة الخ. . . وقام بالدور نفسه عندما انتشر «الهواء الأصفر» في مسقط رأسه فكان الفقيه والطبيب والمعلم والمرشد والقاضي، وفي دمشق حيث أقام حوّل حيٍّ الخراب إلى حي للبناء والعمران والتعليم(٨).

وقد كان للعلماء الكبار أخلاقهم التي تحفظ كرامة العلم كان السيد يعرف ذلك تمام المعرفة ويعجب بمن يتحلى به. قال عن علماء جبل عامل: «وكل علمائها قانع بالقليل من عهد الشهيد الثاني الذي كان يحرس كرمه ليلاً بنفسه وبنى داره بيده». وهكذا كان عفيفاً قانعاً بالقليل، يتخذ الشهيد الثاني قدوة، ويأمل في تحقيق الإستقلال المالي، وهو يحرره من أي ضغط.

قال: «واستعنّا بالفلاحة فدرَّت علينا ما نمون به العيال والأطفال».

على الرغم من أن المال الوفير كان يصل إليه فيحوله إلى أصحاب الحقوق وذوي الحاجات. وظل مصدر رزقه إلى آخر حياته ما تدره الأرض والمؤلفات. وكان هذا دأبه منذ الحداثة، قال: «لا أرضى لنفسي حضور درسٍ فيه طمع بالمال». ورائده الصبر والثقة بالله، ولطالما ردَّد: «من لم يغيِّر عادته مع الله فحاشى لله أن يغيِّر عادته معه».

وتجلت القناعة وعزّة النفس في سلوكه العام ومواقفه، فلم يؤثر عنه أنه سعى إلى سياسي، وإن كان السياسيون يخطبون ودّه، أجاب الشاه مرة عندما سأله عن بساطة ثوبه: إننا ننظف قلوبنا وأنتم تنظفون ثيابكم. وقد عبر عن هذا السلوك بقوله:

والدهر يعلم من نابت نوائبه فتى لغير إله العرش لم يخف

كان السيّد يرى أنّ «من كان ذا معرفة لا يتحرّى إلاّ الصحيح» وهوذا التجرّد الذي يتيح له التعفّف وتأمين الاكتفاء المالي أن يتحقّق في أكمل صورة، وقد مارس السيد قناعته بوصفه ذا معرفة فلم يتحرَّ إلاَّ الصحيح. لم تمنعه خصومة مع أحد العلماء من الاستشهاد به بوصفه شاعراً كبيراً من شعراء الشام، وقال عن عالم آخر: «أمَّا موقفه ضدّ الحركة الإصلاحية وضدي أنا فله تفاسير أخرى لا يجوز أن تصدّنا عن قول الحقيقة» فالحقيقة كانت مطلبه بمعزل عن أيّ مؤثر خارجي، فالأسماء، كما يقول «لاتغيّر حقائق الأشياء والعادات لا تكون دليلاً للأحكام» وكأنّه بهذا يعيد قول الإمام علي عليه السلام: «اعرفِ الحق تعرف أهله». وتحرِّي الصحيح وطلب الحقيقة جعلاه يرتضي النقد البنّاء، وذلك، كما يقول: لأن من ردني عن غلط يجب أن يكون له منّة عليّ لا أن أغضب منه، فهو كمن يرى ثوبي ملطّخاً وينبهني إليه.. وما تكبر امرؤ إلاَّ لنقصٍ في نفسه».

نلحظ، في هذا القول، ميّزة، وهي الإصغاء إلى الآخر المحقّ في حوار مثمر، ويطور هذا الإصغاء إلى القبول برأي الآخر المحقّ، والعدول عن رأيه إن كان فيه غلط.

لكنَّ هذا اللِّين المحاور يبقى ليِّناً مع الحقيقة، ويغدو حزماً وصلابة من أجل الحقيقة عندما تتم القناعة بها، كان يمضي إلى تنفيذ ما يعزم عليه بإرادة من يرى أنّ الأمر قد نُفِّذ بمجرَّد اتّخاذ قرار بذلك. قال لصديق بعدما صعب عليه إيجاد كتابٍ ضخم ونسخ، «قلت: قد نسخته. قال: ما معنى هذا؟ قلت: قد عزمت على نسخه، ومتى عزمت على ذلك، فقد نسخته بمشيئته تعالى»[10].

وقد كان السيد، بفعل هذه المكوِّنات الموضوعية والذاتية، عالماً مجتهداً ينزع إلى الجوهر، بأسلوب في الحياة والكتابة، يجمع إلى العمق البساطة، فيفهم الناس العاديون ما يريده في وقت كان فيه كثير من الكلام رطانه.. وقد بدا السيد بفضائله الجمّة، وفي رأسها العزوف عن أباطيل الحياة الدنيا شبيهاً بأحد أئمة القرن الأوّل الهجري لا القرن الرابع عشر. وقد شهد بذلك أفراد بعثة عربية أمريكية مشتركة، فقال أحدهم: »إنّنا رأينا موسوعة في رجل» وقال آخر: «إنّ العظمة تحكيها عينا هذا الرجل قبل لسانه»[11].

هذه الشخصية التي تتصف بالعلم وبالقدرة على تبينّ ما أنزله الله، ومعاينة الواقع على ضوء ذلك، وتكوين رؤية متجرّدة إلى قضاياه ومسائله.. هذه الشخصية كانت عازفة عن أباطيل الحياة، وتنطلق في مسعاها من رجاء صاحبها بأن يختم الله أعماله بالصالحات وأن يجعل عمره مصروفاً في طاعته،

وأن يجعل ما أنجزه ستراً بينه وبين الجحيم، وبهذا يكون الهدف من كل ما يقوم به رضى الله، وشعاره في ذلك:

في بلغة العيش لنفسي مقنعة دنياك للأخرى يقيناً مزرعة

وقد نشط الشيد الأمين، بكلّ ما يملك من قدرات وإمكانات، في محيطه فكان العالم المجتهد، والمصلح العمليّ، ومحقق الكتب، والمؤرّخ والرّحالة وكاتب المقامات والروايات التمثيلية، ومؤرّخ الأدب، والباحث في الشعر وأنواعه والشاعر التعليمي والوجداني والمربّي.. وفي جميع نشاطاته كان يتوخى المنفعة العامّة والتثقيف الجماهيري وتغيير العلاقات الاجتماعية في حركة إصلاح صعبة كان منهجه فيها الصبر.

ومن يعد إلى مؤلفاته يستطيع أن يلاحظ التنوّع في الأسلوب المتأثر بنوع الكتابة وموضوعها، ويشعر أنّه إزاء غير مؤلّف لولا بساطة الأداء وعمقه وصدوره عن رؤيةٍ متماسكة شاملة ثابتة المبادىء المكوِّنة.

ففي «الدر الثمين» وهي مرجع مقلّديه الاجتهاي، كان دقيقاً في التعريف مقتصراً في الكلام من دون أن يفوته الوضوح. وفي «الحصون المنيعة في ردّ ما أورده صاحب المنار في حق الشيعة» كان يستطرد ويطيل، ويخوض مناقشات طويلة تبيّن قدرته على الجدل وإقناع الآخر بحجته المعلّلة وفي السيرة يروي ويصف ويفسّر ما يرد من صعوبات، ويسرد القصص والحكايات ويعلّق عليها بما يكشف الغرض من دون زيادة، ولا يفوته التركيز على كشف مظاهر التخلّف والفساد[١٢]. وفي الروايات التمثيلية والمقامات المسرحة، نلاحظ السهولة والقصد إلى الهدف التربوي. وفي معالجة مشكلات التاريخ، كان يعرض المشكلة، ويحدّد عناصرها في قصد إلى التقصي، ويورد حجة الآخر ويناقشها منتهياً إلى رأي تدعمه الأدلّة المتنوّعة والعديدة، ورائدة في ذلك كله الأمانة والحقيقة العلمية والجدية من دون أن تفوته السخرية الراقية.

ومن الأمثلة على تلك السخرية ما يورده عن رسائل ذويه. لم تكن تلك الرسائل تحتوي ما يحتاج إليه من مال، فسأله أحد زملائه عن الأخبار، فأجابه: إنّ كتبي كلها إنشاء وليس فيها أيّ خبر، في تورية واضحة للفطين وخفيةٍ على من لا يستطيع إدراكها. ومن الأمثلة أيضاً ذلك الزميل الذي أصرّ على التكلّم بالنحوي مع المكاري الذي لم يفهم أيّ كلمة من ذلك الكلام. وفي هذين المثلين إشارة إلى جهل بعض الدارسين وحذلقة بعض آخر منهم وحثّ على الفهم واستخدام لغة سليمة تمكّن من التفاهم مع الآخرين. وفي هذا التفات مبكّر إلى مشكلة اللغة ومشكلة طرق التعليم وأهدافه، وهاتان المشكلتان من المشكلات. التي سنتحدث عن رؤية السيد إليهما في مكان آخر من هذا البحث.

وكثيراً ما كان التعليق الطريف يرد في أعقاب التحدّث عن أحد مظاهر الجمود فتبدو المفارقة

شديـدة الـوضـوح، كأن يقـول: إنّ التلميـذ كان يعطي معلم الكتاب غِمَّة عندما يتمّ قراءة جزء عمّ، «بمناسبة قرب عمّ من غمّة، وكل ذلك كقرب زياد من آل حرب»[١٣].

وعندما يتحدّث عن أوجه الخلل في نظام التعليم، في النجف، ويصل إلى نظام العطل لا تفوته السخـريـة الكـاشفـة النـاقـدة، فيروي إجـابة أحد الظرفاء عن هذا السؤال: كيف تحصّل علومك؟ فيقول: «يومٌ أنام في الحمّام، ويومٌ شيخي في الحمّام، ويوم خلقي ضيّق، ويومٌ شيخي خلقه ضيّق، ويوم خميس ويوم جمعة، ويوم تحصيل بين تعطيلين، وتمّ الأسبوع».

ولعلّنـا نرى في هذه السخـريـة الكـاشفـة الملطّفـة خصيصة ضرورية ينبغي أن تلازم خصائص أخـرى تميّـز أسلوب السيّـد، ومن هذه الخصـائص: الصبر على المعـاينة، والجلد على الرّصد، ودقّة الملاحظـة، ونفـاذ الـرؤيـة، وقـدرة على تفسير الظواهر، أيّا تكن طبيعتها. فعندما يضطرّ، وهو شابٌ يطلب العلم في مدرسة بنت جبيل، إلى سماع الأغاني الجماعيّة المصاحبة لجرش البرغل الذي كان يتمّ في السهـرات يفسّـر رفض الفتيـات للسكـوت بقـوله: إنّ الأغاني هذه تنشّط البنات للعمل»[١٤]. وهذا التفسير يوافق ما قرّره العلماء بشأن نشأة الفنون، وبخاصة الشعر والموسيقى والغناء، إذ إنّ هذه النشأة تمّت في أحضان العمل الجماعي: أناشيد استسقاء وصلوات وأدعية وحرب وأعراس إلخ. .

وقد رأى السيد الأمين إلى مشكلات عصره بمثل هذه العين الرّاصدة الناقدة وتصدّى إلى حلّها بما يملك من قدرات. وقـد خبر التعصّب الطـائفي والمـذهبي فعنـدمـا ضايقه قبطان المركب بسبب من مذهبه، قال: هذه حالة المسلمين في تعصّبهم الأعمى الذي أدّى إلى ضعفهم وصير ورتهم غرباء في وطنهم»[١٥].

ولمس الفسـاد السيـاسي، والإداري، فسمـع الموظف يقول: إنّ دولتنا ترسل الموظف وتقول له: ارتشِ وافعل ما تشاء، ولاحظ أنّ من يعتقل لارتكابه الجرائم يعود بعد فترة مديراً للناحية، وعانى من الجهـل والتخلّف، فلاحـظ أنّ التنـافس الأعمى على الوجاهة يؤدّي إلى إفساد الحيز العام. وقد علّق على إحدى الحوادث بقوله عن الوجهاء: «وقد يفسدون الأمر لأنّ فلاناً قدّم اسمه في المعروض على فلان».

تغليب مصلحـة الفـرد على مصلحـة الجماعة أبرز صفات المجتمع المتخلّف يضاف إليها الإيمان بالخـرافـات والجمـود الـديني وتحجّـر العادات، وملاحظاته في كشف مظاهر هذه الظواهر عديدة، ومنها قصـة الضفـدعـة وطاقية الإخفاء وعدم أكل السمن الملفوف بورق عليه كتابة باللاتينية. . كان يلاحظ ويضع ويبينّ، ويعلّق مرشداً إلى طريق النهوض، فيقول: وهكذا يفعل الجهل بأهله فيدفعهم إلى ترك العلم.

ولعلّ هذا ما جعله يركّز، في خطواته الإصلاحية الرامية إلى النهوض بمجتمعه على نشر العلم:

تثقيفاً جماهيرياً من خلال مؤلفات تعنى بشؤون الناس العملية من تاريخ وأدعية وقراءة تعزية وتحقيق في المسائل الخلافية، وإقامة مدارس حديثة تنشىء جيلاً واعياً تمام الوعي. وبيان هذا كله يحتاج إلى البحث في حركة السيد الإصلاحية ومظاهر تجليها.

حركة السيد الإصلاحية ومظاهر تجليها:

شملت حركة السيد الإصلاحية «أموراً هي علّة العلل»، كما يصفها. وقد عمل على علاج هذه العلل، وتجلّى عمله في ميادين عديدة. نحاول في ما يلي أن نتحدث بإيجاز عن رؤيته إلى كلٍّ منها وعمّا حققه من إنجازات عملية فيها.

العلم والتعليم:

يتحدث السيد، في مقدمة كتابه «معادن الجواهر ونزهة الخواطر»[١٦]، عن فضل العلم وضرورته وأهمية العقل أداته، ووظيفته التي ترتبط أهميتها بالعمل الصالح. وعندما يتحدث عن فضل التأليف والعلم والحضّ على طلبه يستند إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأحاديث أهل البيت. وجميعها تؤكد أنّ العلم «ضرورة وفضيلة» يدلّ عليها «العقل والنقل»، ومن الأحاديث التي يوردها هذا الحديث على لسان الإمام الصادق: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد، ووضعت الموازين، فبوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء». ويرى أنّ فضيلة العلم وارتفاع درجته أمر كفى انتظامه في سلك الضرورة مؤونة الاهتمام ببيانه. وهو ضرورة لأنّه يؤدّي وظائف عديدة، و«بالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحَّد، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، والعلم إمام العقل، والعقل تابعه».

وتبدو أهمية العلم، عند السيد، إن عرفنا مرتبة العقل لديه، فالعقل هو، وكما يقول: الحاكم العادل والملك العظيم المسلّط الذي إلى حكمه تنتهي جميع الأمور». لكن هذا العلم ينبغي أن يقصد إلى رضى الله من خلال العمل، فشرفه ليس ذاتياً لأنّه يبقى في حدود اكتساب المعرفة، وتجاوز هذه الحدود إلى العلم يقتضي التحوّل بالمعلومات إلى سلوك، وهذا يقتضي إظهارها واستخدامها في ما يرضي الله فيكون العلم، مثله مثل أي إنجاز آخر ستراً لصاحبه من الجحيم. وهذا ما كان يمارسه السيد كما مرّ بنا في ما سبق. وقد نشأ واعياً له. . . ولعلّنا نذكر أنّ عمّه اشترط عليه ألاّ يمنع الكتب عندما أهداه إيّاها. ومن هنا قولنا بتماسك رؤية السيد: نظرياً وعملياً، وهي رؤي تسعى إلى تربية الإنسان المسلم.

والإنسـان لا يولـد عالمـاً، وإنّـما على الفطـرة إلخ . . وقد جعل الله لعلمنا بالأشياء أسباباً وهي : الحـواس والعقـل والنقـل، كما أنّ العقـل يرقى بالعلم، فإن يكن ملكـة نظـر، فهو في الأساس خبرات وتعلّم . . . هذا ما يراه السيـد، ومـا يدفعـه إلى القـول بإمكانية تجاوز حالة التخلف، والنهوض . وهذا يفرض معرفة جميع العلوم .

ولم يقف السيـد عنـد حدود التنظـير، وإنّما انبرى إلى تطبيق رؤيته عملياً، فأنشأ مدارس تنتمي إلى العصر الحديث في مناهجها وطرق تدريسها ووسائله . فتجاوز خلل دور التعليم المعاصرة، وقد كان يعرف أوجهه بالخبرة، ولطالما تحدَّث عنه ودعا إلى إصلاحه، سواءٌ في ذلك اعتماد معلم الكتاب على العقـاب واستخـدامـه طرقـاً عقيمة في التدريس أم نظام التعليم في النجف الأشرف الذي يعرف سبعة أمـور ينبغي إعـادة النظـر فيها، وتتعلق بتنظيم الدروس والامتحان والمادة واللغة والعطل . وهو، في هذا الجهد، يقف إلى جانب روّاد الإصلاح الكبار في الوطن العربي والإسلامي .

ولعلّنـا نقـول غير بعيـدين عن الصـواب أنّـه تجاوز هؤلاء إلى ممارسة عملية أشرف عليها بنفسه تأسيسـاً وإدارة ووضـع برامـج وتأليف كتب فأنشأ مدرسـة أولى للبنين هي العلوية، ومن ثم المحسنية، ومـدرسـة ثانيـة للبنـات هي اليـوسفيـة، ولعلّها الأولى في بلاد الشام من حيث تاريخ إنشائها، وحداثة نظمها، وهي بهذا خطوة أولى في طريق تعليم البنات في بلاد الشام .

ولم يكتفِ بإنشـاء مدرستـين نظـاميتـين تدرسـان العلوم العـرقيـة والعصرية . على أيدي مرتبين مختـارين، وإنّـما كوّن حلقتـين يوميـة وأسبـوعيـة لنشـر الثقافة، وألّف جمعيات كجمعية الاهتمام بتعليم الفقـراء والأيتـام، وجمعيـة الإحسان وجمعية المؤاساة، وكوّن لجنة للتأليف من أفاضل العلماء، وكان هو قطب الـرحى فيهـا، فألّف في ميـادين عديـدة، الأمـر الـذي أتـاح له أن يأتي بالجـديـد في ميدان أدب الأطفـال، وذلـك عندما كتب روايات تمثيلية وجمع مختارات من الشعر لتستخدم محفوظات، وهي الدّرر المنتقاة لأجل المحفوظات في ستة أجزاء» .

كتابـة التاريـخ :

ولا يتمثل الجهل بالأمّية، على مستوى إتقان القراءة، فحسب، وإنّما في مظهر آخر أشد خطراً . وهو العدول بالعلم عن وظيفته، وصير ورته ستاراً من الأضاليل والأوهام تحجب الحقيقة . إنّ مثل هذا الجهـل المتســتر بالعلم ذو أثـر فظيـع إن تفشّى بين النـاس واتخـذه ذوو الأغـراض أداة فاعلة لتنفيـذ أغـراضهم . وقـد عمـل السيـد الأمين، انطلاقاً من فهمه لأهمية العلم ووظيفته على كشف الكثير من الأضـاليـل والأوهـام، وبجهـد المؤرّخ الثقة ودأبه الرّصين وقدرته على الجدل المقنع . ومن الأمثلة على

ذلك حديثه عن تسمية جبل عامل وأصل أهله، فعندما يعرض إلى هذه المسألة يطرح سؤالاً يتفرّع إلى عدّة أسئلة، ويجيب، فيسرد الروايات التاريخية التي وردت في مجمع البيان وتاريخ الطبري وتاريخ ابن فنحون والقاموس وتاج العروس والعقد الفريد وصبح الأعشى وخطط الشام، وينتهي إلى القول: «ومن ذلك نعلم». وإذ يجد من يخالف ما يصل إليه يناقشه، فيعرض رأيه، ويردّه في ضوء الأدلّة التاريخية المستقاة من خطط الشام للهمذاني، وممّا ورد لدى المؤرِّخين عن غزوة تبوك وممّا ذكره اليعقوبي عن جند فلسطين، ثمّ يعزّز الأدلّة فيذكر أسماء من نسب إلى قبيلة عاملة من المشهورين في التاريخ، وينتهي إلى إيراد أدلّة أخرى تتصل بالنسب والعادات واللغة واللهجة المتميّزة بالأمالة والعطاء العلمي والأدبي، وينتهي إلى القول: «ومن ذلك يعلم عراقة العامليين في العروبة». ويضيف: «فليت صاحب التحفة الأزهريّة أسعده الحظّ فرأى هذه الكلمات المتقدمة قبل أن يكتب قوله»[١٨].

وغنيٌّ عن البيان أنَّ أهمية هذا الجهد، إضافة إلى قيمته العلمية المنهجية ودور ذلك في إصلاح كتابة التاريخ، تتمثل في إزالة ما من شأنه إثارة الخلافات (العرقية المزعومة هنا)، وهو ما يجهد المستعمر في القيام به.

ونلاحظ غير صفة تؤكد دقّة المؤرّخ الثبت والثقة، ومن ذلك:

ـ يحثّ المؤرّخين على إضاءة بعض ما يغمض من شؤون التاريخ. يرد ذكر العامليّ مؤلّف مصباح الظلام ـ، فيسأل من هو هذا العامليّ، ويقول: «لعلّ بعض من له علم به يفيدنا عنه، ويكتب شيئاً من أحواله»، وهذا هو المؤرّخ الكبير لا يدّعي المعرفة ويحث على الكشف.

ـ يحرص على أن يكون حكمه دقيقاً، فعندما تعرّض إلى مسألة تشيّع أهل جبل عامل يورد رواية من يعيد ذلك إلى نفي الصحابي أبي ذرّ إلى بلاد الشام ويعلّق على ما ذكره المؤرّخون في ذلك، فيقول مثلاً: فإنّا نرى ابن سعد في طبقاته يتطلّب الأعذار ونرى الطبري كيف جمجم، وتبعه ابن الأثير على غير عادته، ثم يناقش الروايات ويصل إلى خلاصة موضوعية، فيقول: «هذه كلها أمور يستأنس بها لتشيع أهل جبل عامل على يده، وتورث الظنّ به وإن كنّا لا نستطيع الجزم به»[١٩].

ـ يحافظ على التجرُّد الموضوعي، وهدفه قول الحقيقة، بمعزل عن أيّ تأثّر ذاتيّ. فقد مرّ بنا آنفاً أنّه قال: إنّ الخصومة التي نشأت بينه وبين أحد العلماء بشأن إصلاح إقامة مجالس العزاء، لا تمنعه من قول الحقيقة، كما أنّ هذه الخصومة لم تمنعه، وهو يقارن بين شعراء العراق وشعراء الشام، من القول: «أمّا شعراء العامليين في عصرنا. فهم لا يقصّرون عن شعراء العراق كالشيخ عبدالحسين صادق»[٢٠].

لم يكن السيد الأمين مؤرّخاً موضوعياً فحسب، وإنّما كان أيضاً، وفي الدرجة الأولى مصلحاً في كتابة التاريخ يدعو إلى تنقيتها وموضوعيتها وتوظيفها في خدمة التقدم الإنساني من خلال كشف الأضاليل وقول الحقيقة.

وفي هذا الإطـار من كشف الأضـاليـل والـدّعـوة إلى الـوحدة الإسلامية كانت موسوعته في علم الـرجـال: «أعيـان الشيعـة» التي يرى الأستـاذ حكمت هاشم أنّهـا «من الأوابـد الخـوالـد في تراثنـا الإسـلامي»، وذلـك لأنّـه يثبت بهذه المـوسوعة التي تشمل علماء الشيعة ومتكلميها وأصولييها وفقهائها ونحـوييهـا ومؤرخيهـا ونسـابيهـا وأطبـائهـا وشعـرائها وأدبائها ومصنفيها في كل فنّ. . يثبت بـ «الجهل المركب» الـذين كتبـوا عن الشيعـة فخلطـوا الحـابـل بالنـابـل، وكأنّـه يري مشعـلي العصبيـة العمياء وضحاياها، الحقيقة ساطعة. وفي هذا الصدد يقول السيد إنّ الخلط كان يصدر إمّا عن خيانة في النقل أو عن نوع من الجهل أو بسبب نفثةٍ من العداوة وسوء الظن».

ومن أجل التصدّي إلى هذه الأسباب جميعها، كانت ردوده، وكان أعيان الشيعة، وفي بيان أحد أسبـاب تأليف هذه المـوسـوعـة يقـول: «. . ليعـرف النّـاظـر في كتابنا حقيقة ما همّ عليه الشيعة. فإنَّ التحـامـل كاد يطمس كثـيراً من حقائق أحوالهم»(٢١). وهذا يعني أنّ أعيان الشيعة كان جهداً في سبيل الإصلاح: كتابة التاريخ الحقيقي من نحوٍ أوّل والوحدة الإسلامية من نحوٍ ثانٍ.

الوحـــدة الإســـلامية:

أكّـد السيـد، في دعـوته إلى الوحدة الإسلامية، حقيقة لا جدال فيها؛ وهي أنّ الدِّين عند الله الإسـلام. جاءه رجـل، ذات يوم، وقـال له: «أريـد أن أكون جعفرياً، وبعدما بيّن له عدم الفرق بين السنيّ والشيعيّ فلم يقنـع، قال له: قل لا إلـه إلاّ الله، محمـد رسـول الله، فقـالهـا، قال له: أصبحت جعفرياً، فبهت الرجل»(٢٢).

وفي نداء عام(٢٣) إلى طائفتي المسلمين المعروفتين، أينما كانوا، دعا إلى الوئام والوفاق والتحابب والتـآلف والعطف ليس على المسلمـين فحسب، وإنّـما على جميـع بني الإنسـان. وهـذا يعني توجّهـه الإنسانيّ العام من خلال مبادىء الإسلام. ولا يقف هذا التوجّه عند حدود الوعظ والكلام العام، وإنّما يرتكـز إلى مبـادىء محددة، وهي مبـادىء العـالم المسلم المجتهـد والمؤرخ المـوضوعي الكبيـر ورجـل الإصـلاح الـذي يريـد النهـوض بمجتمعـه إلى السـير في ركب العصـر الحـديث. ففي النداء نفسه، يتحدث السيد عن مسألة الوحدة وضرورتها فيركّز النقاط التالية، ويقول:

- توحيـد المسلمـين هدفي منـذ أربعـين سنـة، منـذ إقـامتي في هذه الديار، وأنا أدعو إليها بالقلم واللسان وأعمل من أجل تحقيقها. وقد رأى كثير من الباحثين أنَّ إقامته في دمشق رمزٌ للموقف التوحيدي.

- في الـوحـدة القـوّة، فالمؤمن كثير بأخيه، كما في الحديث الشريف. وفي الاختلاف الوهن، «لا زلنا نختلف على من هو خليفتنا حتى أضحى المندوب السامي خليفتنا».

ـ ليس من مشكلة في تحقيق الوحدة. فالدين عند الله الإسلام. وليس بين طائفتيه ما يؤدِّي إلى الافتراق، وإن يكن من خلاف يتعلّق بالخلافة فهذه لا موضوع لها اليوم، أمَّا الاختلاف بشأن الصحابة فقد مضى، ورحمة الله تسع الجميع.

ـ أمّا تعدّد المذاهب فلا يقف عقبةً في طريق الوحدة، لأنَّ الهدف هو توحيد المسلمين لا توحيد مذاهبهم، فهذه اجتهادات فكريّة وفقهيّة.

ـ من الضروري تشخيص الداء بغية معرفة الدواء. في القديم كانت السياسة سبب الاختلاف، وسبل السياسيين معروفة، وهي نيل المآرب بكلِّ وسيلة، وتكفير الآخر واضطهاده.. وفي هذه الأيّام تغيّر الوضع فالسياسة التي كانت سبب التفريق بين المسلمين يجب أن تكون سبب الوئام. وهذا ما تتمّ الدعوة إليه في هذه الأيّام لمواجهة قوى الاستكبار العالمي.

ـ الإسلام لا يدعو إلى الوحدة بين المسلمين فحسب، وإنّما يدعو إلى احترام جميع الأديان السماوية والعطف على جميع بني البشر، وفي السنَّة المطهّرة الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أبرّهم بعياله.

وتجلّى هذا التوجّه في مؤلفات السيد، ومنها ردوده العديدة، وفي مواقفه، ومنها احتجاجه على تفريق الحكومة السورية، آنذاك، بين السنّة والشيعة وإجابته دعوة إمام القدس إلى الصلاة، بعدما قال له: «ولِمَ لا نصلِّ معكم!؟ ألسنا وأنتم مسلمين». ولنصغ إلى هذا الحوار الذي جرى بينه وبين الضابط التركيّ، وهو يظهر الواقع السياسي الذي كان سائداً آنذاك ورؤيتين متناقضتين إليه. الضابط التركي: ابتلينا بخازوقين: الامتيازات الأجنبية والدِّين. السيد: ابتليتم بالخازوق الأوّل، هذا صحيح. أمَّا الخازوق الثاني فكان ترك الدين.

وفي مدرسته، كان كما يذكر الأستاذ عبداللطيف الخشن «يفتش عن معلمين للمدرسة يحسنون التدريس من دون النظر إلى الطائفة التي ينتمون إليها، إذ كان يفتش عن الإنتاج الفكري والنضوج العقلي والوعي في الأستاذ من دون أن يسأل عن طائفته.. ولم يكن في برامج التعليم أنّه صفة خاصّة أو ميّزة لفريق دون آخر من التلامذة»(٢٤).

إقامة مجالس العزاء:

وفي صدد مسألة الإصلاح الديني بذل السيد الأمين جهداً يتّصل، أيضاً، بكتابة التاريخ والتعامل مع المعتقدات والتقاليد الشعبية، فنهض إلى إصلاح إقامة مجالس عزاء سيد الشهداء عليه السلام (٢٥)، وتركّز جهده، في هذا المجال، على علاج عدّة أمور هي الجهل والأخبار الكاذبة والأغلاط الشائنة

وبعض الأعمال التي تجري في المجالس.

وفي صدد الجهل بدا للسيد أنّه يصل إلى حدود عدم معرفة بديهيات القراءة. ومن الأمثلة التي يذكرها قراءة أحد القرّاء أنّ الجمل في معركة الجمل كان اسمه عسكر بن مردويه.. ولما تمّت مراجعة كتب التاريخ تبيّن ما يلي. جاء في الكتاب: «وكان اسم الجمل عسكراً». ثم بدأ كلام جديد هو: «ابن مردويه». وكانت تتم تغطية هذا الجهل بأسلوب مشجع منمّق يبهر السامع ولا يفيده بشيء، كما أنّ أنه كانت تتم إضافة عبارات محزنة لتؤثر في عواطف السامعين وتهيجهم، وأدّى هذا إلى زيادة أحاديث موضوعة تصل إلى حدود الأغلاط الشائنة الأمر الذي جعل التلاوة في تلك المجالس أشبه بالقصص التي تتلى في المقاهي في هذا العصر، كما يقول السيد.

ولا يعجب السيد من هذه الأمور، إذ أنّها، كما يقول، تجري في كلّ فرقة وكل طائفة. وقد لاحظ هذه الأمور في فترة مبكرة، ومنذ أيّام دراسته في مدرسة الشيخ موسى شرارة، وتمّت محاولة آنذاك للإصلاح، لكنّها لم تكن كافية، ولهذا باشر في عملية إصلاح كان يدرك صعوبتها تمام الإدراك. كان يسمع قراءة أحد القرّاء، وسمع بعض تلك الأغلاط فسأل أحد العلماء: «أقسمت عليك بالله، هل في ما ذكره هذا الرجل حرف صادق؟ قال: لا. قلت: لماذا لا تنهون؟ قال: لا نستطيع».

وعلى الرغم من إدراك السيد للصعوبات باشر الإصلاح العملي، فألّف الكتب اللازمة، وفق منهجه التاريخي، فألّف كتاب «لواعج الأشجان»، وأردفه بكتاب «أصدق الأخبار في قصّة الأخذ بالثار». ولمّا كانت قراءة المجلس تحتاج إلى الشعر أيضاً، ألّف أيضاً كتاب «الدرّ النضيد في مراثي السبط الشهيد». وإذ لمس أنّ تأليف الكتب وحدها لا يكفي، عمل على تدريب القرّاء، ووضع من أجل ذلك كتاب «المجالس السنّية» في خمسة أجزاء.

أمّا وجه الخلل الآخر، في إقامة مجالس العزاء، وهو «جرح الرؤوس بالمُدى والسيوف ولبس الأكفان وضرب الطبول والنفخ في البوقات وغير ذلك من الأعمال» فقد رأى أنّه محرّم عقلاً وشرعاً ولا تترتب عليه فائدة دينية ولا دنيوية. وعندما يبحث هذا الخلل يعود إلى بدئه فيرى أنّه طارىء في النبطية وفي مشهد السيدة زينب أيضاً، ويبيّن أضراره الدينية والدنيوية على الفرد والمجتمع. ويضطر إلى خوض معركة انصرف فيها إلى الجدل المقنع، فكان يبدأ بعرض رأي الخصم ويفصل حججه، ويناقشها يصحّح لغوياً، ويردّ الحجج البلاغيّة الإنشائية فيقول: هذا كلام شعري. ثم يفنّد الحجج الأخرى معتمداً الحجج الفقهية والعقلية، وكأنّه بذلك يسجّل بداية ثورة إصلاحية تعيد للعقل موقعه. وتتضح أهمية هذا الإصلاح إن وضعناه في إطاره التاريخي، إذ جاء في وقت كانت الوهّابية وآخرون من المتعصبين يشنّون هجوماً على الشيعة وصل إلى حد التكفير. وبقي السيد يواصل جهوده على الرغم من أنّه اتّهم بتحريم إقامة العزاء وتطرّف بعضهم فنسبه إلى الخروج من الدين، لم يتراجع، ولم يسحب

رسالة التنزيه من الأسواق إذ إنّ طلب الناس عليها ازداد. واستطاع بصبره وجلده وقوّة إيمانه ورسوخ حجّته أن يخرج منتصراً.

والحقيقة أنّ السيد الأمين أراد أن تحقق مجالس العزاء عدّة أمور فيها:

١ ـ رواية التاريخ الحقيقي.

٢ ـ تجسيد التجربة الوجدانية إزاء هذا الحدث التاريخي الفريد في تاريخ البشر.

٣ ـ تقديم درس مجتمعي: دينياً وتربوياً واجتماعياً وسياسياً.

٤ ـ استخدام لغة عربية فصحى سليمة وسهلة في التلاوة.

والملفت من حركة السيد هذه تركيزه على سلامة لغة التلاوة من اللحن. ومن التكلّف البديعي فيعجب من المدافعين عن هذين الخللين، ويتساءل، بعد أن يعرض حجتهم المتمثلة بسهولة الفهم، فيقول بسخرية: «وهل قراءة الفاعل مخفوضاً والمفعول مرفوعاً تزيد في فهم المعاني» وتجعل الأعجمي يفهم اللغة العربية!؟.

اللغة والأدب:

وتدخلنا هذه المسألة في جانب آخر من جوانب حركة السيد الإصلاحية، وهو الجانب اللغوي الأدبي. ونلاحظ أنّه حقق، في هذا الجانب، إنجازاً نظرياً وعملياً كبير الأهمية، وذلك أنّه رأى إلى ضرورة استخدام لغة عربية فصيحة سليمة من اللحن والركاكة دقيقة في أداء المعنى، سهلة الفهم وبعيدة عن التكلّف البديعي. وهو بهذا يخلّصها من عيوب كانت تلازمها في تلك الفترة من التاريخ، وهي الخطأ اللغوي والركاكة وقيود الصناعة.

منذ فترة مبكّرة لاحظ أنّ الكلام المسجّع المنمّق البارد ليس من البلاغة بمعنى الوصول إلى المتلقي وإحراز تأثير فيه، قال: «كلام مسجّع منمّق، كان الشيخ يتلوه ويعجب من بلاغته!». وقال يصف كلاماً آخر في فترة تالية: «هذا التهويل وتكثير الأسجاع لا يفيد شيئاً ولو أضيف إليه أضعافه من قاطعات النحور ومجففات البحور إلخ..»[٢٦]. ويضيف إلى قوله عبارات مسجوعة لا يلبث بعدها أن يستأنف الكلام السهل المتين في آن، وكأنّه يريد أن يقول: إنّ استخدام هذا الأسلوب ليس صعباً، ولكنه يأبى عنه لأنّه متكلّف والأبهار به غير ذي جدوى.

وهذا الموقف ليس موقفاً لغوياً فحسب، وإنّما هو موقف وطني أيضاً، يصبّ في مجرى حركته النهضوية. بمعنى المحافظة على أصلين من أصول الهويّة، وهما الدين واللغة اللذان خرج بهما المسلمون ليكونوا خير أمّة أخرجت للناس. ومن أقواله في صدد تلازم هذين الأصلين وأهميتهما:

عجبــاً لقــوم نابـذوا الإســلام عن	جهــلٍ وفــرط تعـصّـب وعــنــاد
أســدى لكــم من فضــله مدنـيّـةً	أمـسـت لكـم كالعـقـد في الأجيـاد
وأخــوة ما بنــيــكــم تمحــى بها	منــكــم سخــائـم هذه الأحــقــاد
قادتــكـم الـعــربيــة الفصحى إلى الـ	ـحــســنــى لدى الأصــدار والأبــراد
منهــا الـغـنـى أمـسـى لفقــر لغــاتكم	وكأهــلهــا كانــت من الأجــواد[٢٧]

وحقّق السيد ما رآه عملياً، فاستخدم اللغـة العـربية الفصيحة الحيّة في جميع مؤلّفاته، وأثبت عملياً أنّها تستطيـع الأداء الـدقيق والجميـل في مختلف آداب العصـر وعلومه، من تاريخ وسيرة وقصّة وبحث وشعر وجداني وقصص تاريخي. وهو بهذا أجاب عن السؤال المهم الذي كان مطروحاً في ذلك العصر، وهو: ما مستقبل اللغة العربية إزاء تحدّيات العصر؟

كثيرة هي المحاولات التي جهدت في أن تثبت عقم اللغة العربية. وهي محاولات كانت ولا تزال قائمـة. ومن الأمثلة التي تشير إلى ذلـك، تلك الاستفتـاءات التي كانت تجريهـا صحف تلك الفترة. فهذه النشرة الأسبوعية التي كانت قد أنشأتها الإرسالية الأمريكية، بهدف نشر الإنجيل، وترأس تحريرها كرنيلوس فانـديـك، تستفتي الأدبـاء والأسـاتـذة حول استمـرار تعليم العلوم باللغـة العربية. وحذت المقتطف حذوها. أما الهلال فطرحت على مشاهير العلماء والأدباء، عام ١٩٢٠، سؤالها الشهير: ما هو مستقبل اللغة العربية؟

وقـد كانت إجـابـة السيد الأمين: نظرياً وعملياً قاطعة في هذا المجال؛ إذ دعا إلى استخدام لغة عربيـة فصحى سليمـة من اللحن والـركـاكـة والعجمـة وقيود الصناعة، وسهلة الفهم. وأثبت في جميع مؤلفاته قدرة هذه اللغة على النهوض بمهام العصر الحديث في مختلف علومه وآدابه.

وفي ميـدان الشعـر والأدب كان رائد تجديد. فعمل على تعميم ثقافة أدبية، وتشكيل ذوق أدبي راقٍ، وعلى تكوين مفهوم للأدب ونشره، على أوسع نطاق لتنقد النصوص على ضوئه. نشير، في ما يلي، إلى محاولته تعميم الثقافة الأدبية. ثم نحاول معرفة عناصر مفهومه للأدب والشعر.

في المدرسة النظامية كان التلامذة يحفظون قصائد مختارة وقد قام باختيار تلك النصوص من الشعر العربي الجيّد، وأنشأ حلقة تعليمية، وحلقة ثقافية كانت تعقد ليلة الأربعاء، في منتدى ثقافي، تتلى فيه الأشعار وتنقد، وتجري أحاديث السَّمر.

طبيعي أن يصدر السيد في نشاطه هذا عن رؤية للأدب والشعر فما هي؟ اهتم السيد بقراءة الشعر وتـذوقـه وحفظـه منـذ حداثتـه. اشـتـرى ديوان أبي فراس عندما كان في السنوات الأولى من التعليم. وواصـل هذا الاهتمام في ما بعـد وقـد ظهرت قدرته على فهم الشعر وتذوقه في فترة مبكرة. ومن الأدلّة

على ذلك الخبر التالي: جيء بملزمة من ديوان الشريف الرضي . . فإذا فيها هذا البيت:

ومـوقف صافحت أيـدي الـرِّجـال به طلى الـرِّجـال على الخـرصـان من كثب

فوجدتهم فسّروا كلمة الخرصان بقولهم: «الخرص شيء يوضع في الأذن». فقلت: «هذا خطأ فالخرص هذا ليس له محل هنا، وإلاّ لكان المعنى أنّهم يطعنونهم في آذانهم، بل الخرصان هنا أطراف الرِّماح»[٢٨].

وقبل ذلك كان قد صحّح فهم أستاذه للبطون العقائم في هذا البيت للشريف الرضي:

إذا نزلـوا بالمـاحـل استنبتـوا الـربى وكـانـوا نتـاجـاً للبطـون الـعقـائم

فقال: «ومعناه أنّ البطون العقيمة، بسبب المحل والقحط تعود منتجة ببذلهم وجودهم لا أنّهم نتجوا من بطون عقيمة»[٢٩].

كان، منذ تلك البدايات، يتذوّق الشعر ويدرك أسراره، ويقوم باختيارات يحفظها، تستند إلى مفهوم للشعر الجيِّد. ومن مختاراته التي تشير إلى ملامح ذلك المفهوم هذان البيتان لزميله محمد دبوق:

وربّ مخدّة زرقـاء أضـحـى لها حشـوٌ يفـوق الـشّـوك ليـنـا

جعـلت ربـاطـهـا «الـبـابـير» كيـما تزيـد ملاحـةً وتـقـلُّ شيـنـا

وفي هذين البيتـين ما يشـير إلى ارتبـاط الشعـر بالحيـاة وهموم العيش وإلى تلك الـذاتيـة التي تبعد عن الاحتذاء، وذلك في وقت كان فيه الشعر السائد لعباً بديعياً وتسكعاً في رحاب أصحاب الجاه والسلطان واتكاء على ما جاء به الأسلاف من صور وتراكيب ومجازات إلخ وما استخدموه من ألفاظ.

ويتأكّد لنا هذا المفهوم عندما نقرأ شيئاً من شعره. ونعني الشعر غير المخصّص لغرض تعليمي أو تاريخي. نقرأ من إحدى قصائده. وقد نظمها بمناسبة انتشار وباء الهواء الأصفر في جبل عامل وقيام عمه وعلي الزين بغسل الموتى في وقتٍ هرب فيه الأخ من أخيه.

ضيـفٌ جديـد به الأرواح أضيـع من كتـاب ربِّـك في أبـيـات زنـديـق

عمشـا كذاك «عـلي الـزين» أنفق من شاي ومـن سكّـرٍ في وسـط إبـريـق

ونلحـظ ارتبـاطـاً بالحيـاة وهموم النـاس بتجربة حياتية تشكل ما يجسدها، إن من حيث المعجم اللغوي والتشابيه والتراكيب أم من حيث المضمون الذي يشيد بفضائل الناس العاديين في وقتٍ كانت المدائح تقال فيه للبيك وأصحاب الجاه والمال. نلحظ، أيضاً، البساطة واستخدام لغةٍ وكأنّها الحديث اليـوم وصـور متكـررة طريفـة، نستمد عناصرها من المحيط وليس من الكتب والذاكرة. وفي هذا ريادة تجديد على صعيدي المضمون والشكل بما فيه المعجم اللغوي والعبادة والصور.

لا نزعم أنّ السيـد الأمـين تجاوز في كلِّ ما نظمـه ما كان سائـداً. لكنّنا نجد لديه ما يؤكّد نهوضه

إلى التجديد: مضموناً وشكلاً. ونضيف إلى ما سبق رؤيته إلى المقدِّمات الطلليَّة المتوارثة. فنقرأ له على سبيل المثال:

لا يوقفنَّك في ربعٍ لهم طلل ... ولا تسل أين حلُّوا أم متى رحلوا
ولا أحنُّ إلى نجدٍ وساكنه ... ما همَّني ساكنوا نجدٍ وما فعلوا
ولا أنا ممّن يستهيج فؤاده ... رسوم ديارٍ أقفرت ومغان
ولا أنا ممّن يملك الحبُّ قلبه ... لغانيةٍ تختال بين غوان
كفاني تسآل الرسوم التي انمحت ... سؤالي لأسفار العلوم كفاني
ولي من يراعي إن خلوت ودفتري ... نديمان عن كل الورى شغلاني[٣٠]

إنَّه بهذا، يضيف إلى اتجاهات التجديد اتجاه الشاعر العالم الرَّائي إلى نهضة علمية تثقيفية بتهيئة سبلها تنظيراً وعملاً محقّقاً، فيكون الأدب «تذكرةً وعبرة لمن تذكّر واعتبر واقناعاً لمن قرأ ونظر»[٣١]. وهذا يعني نصَّه على عنصري الأدب الأساسيين ووظيفته، وهما: المتعة الأدبية الفنيّة والفائدة وكأنّه بهذا من أنصار الأدب الملتزم شريطة أن يتضمن عنصر الامتاع، أي أن يتّصف بخصائص الأدب التي تثير إحساسات جمالية إضافة إلى المشاعر الإنسانية. هذا في ما يتعلّق بالأدب، بعامَّة. أمّا رؤيته إلى الشعر فتتضمن العناصر التالية:

١ - الشعر أحد مظهريّ الأدب المتصف بالفصاحة والبلاغة، وأقواهما وأشرفهما وأشدّهما تأثيراً في النفوس.

٢ - الشعر فنّ، وقد نفهم الفنَّ هنا بمعنى المهارة في الخلق، استناداً إلى أنّه اعتبر التميّز بالتصوير البياني شرطاً لازماً، أو ضرورياً له.

٣ - الشعر يخاطب الوجدان ويؤثّر فيه: «يشجع الجبان ويسخي البخيل..» وقد نفهم من ذلك أنّه لغة الوجدان.

٤ - للشعر وظيفة اجتماعية أخلاقية «يصلح الخصوم ويذلِّل الصِّعاب..».

٥ - وله وظيفة علمية، بوصفه أقوى معين على فهم كتاب الله العزيز وحقائق إعجازه وفهم السنَّة.

وهذا يعني أنّ الشعر نشاط إنساني، تتنوَّع مظاهره، وتحدّد طبيعته وتأثيره الحكم بشأنه: حرام أم حلال، جيِّد أم رديء، وقد سمعه الرَّسول صلى الله عليه واله وسلم وفعل الأمر نفسه الإمام علي عليه السلام.

ويلاحظ، في شعره، التأثّر بالقرآن الكريم وأساليب الشعر العربي القديم: موضوعات وصوراً، وكأنّه بذلك يؤكّد ضرورة الإحياء بالعودة إلى الجذور. وهو بهذا يرد منهليّ الابداع وهما الحياة كما مرّ بنا آنفاً والتراث كما نلاحظ الآن، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

يا من وعدتم وأخلفتم وكان لكم ... خَلْفُ المواعيد من عرقوب ميراثا

فكـنـتـم كالـتي من قبـل قد نقـضـت غزلاً لها بعـد طول الـفـتـل إنكـاثـا

وهو يذكّر بالمثل العربي «مواعيد عرقوب»، وبالآيتين الكريمتين ٩ و ٢ من سورة النحل:

﴿وأوفـوا بعهـد الله إذا عاهـدتم ولا تنقضـوا الأيـمان بعـد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا (. . .) ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها بعد قوّةٍ. أنكثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم (. . .)﴾.

التحـرّر الـوطنـي:

والحقيقة إنّ رؤية السيد إلى اللغة والأدب والشعر تندرج في إطار رؤيته الشاملة إلى الإصلاح في مختلف جوانب الحيـاة؛ وذلـك انطـلاقـاً من مبـادىء عامّـة ترى في الإصلاح ضرورة، بوصفه عملاً عباديّاً يستجيب إلى مؤدّي الآية الكريمة:

﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدونِ﴾.

فأي عمل في هذه الحياة هو عمل عبادي يغرس في مزرعة الآخرة.

مرّ بنا أنّ السيد رأى في الإسلام واللغة العربية الفصحى المكوّنين الأساسيين للهوية، وقد قبلت هذه الرؤية موقفـاً وطنيـاً يجتهـد في المحـافظـة على أبرز فاعلين مضادين للتبعية، إن لم نقل لانقراض الخصوصية. وهو موقف يمكن أن نضيف إليه العديد من المواقف الأخرى: النظرية والعملية.

لم يكن السيـد الأمـين سيـاسيـاً بمعنى محترف سيـاسـة. كما أنّه لم يسع إلى كسب ودّ السياسيين وإقـامـة الصـلات معهم. لكن هذا لا يعني أنّه عاش في معزل عن قضايا أمته السياسية، ولعلّه كان في قلبها باتخاذ مواقفاً فذّة، وفاعلة، تندرج في إطار رؤيته الإصلاحية الشاملة.

عرف السيـد الحكم الـتركي معـرفـة من عاش في أتـون اضطهاده وفساده وتعصّبه إلخ. . وعلى الرغم من ذلك قال للضابط التركيّ: صحيح أنّكم ابتليتم بخازوق الامتيازات الأجنبية، أمّا الخازوق الأساسي فهو ترك الدين. وهو بذلك يشير إلى دواء الرجل المريض، المتمثل في اتباع تعاليم الدين.

إنّ أرقه من أجل الإسلام ونلمس هذا الموقف في العديد من قصائده، ومنها:

إنّي أرقـت وهـاجـتـني صبـابـات وفـاض بالـدّمـع أجفـانٌ قريحـات
مالي أرى الـشـرك في سرٍّ وفي علنٍ له على دولـة الإسـلام غارات

ولّـا قامت الثـورة العـربيـة الكـبرى، كما سُمِّيت، وقف أبنـاء جبـل عامل إلى جانب الشريف حسين، وأيّدوه هو وابنه فيصل. وهذا ما فعله السيد الأمين إذ إنّه قال في ذلك شعراً منه:

لتـعـيـدوا مجداً لكـم وطّـدتـه بحـدود الـسّـيـوف شم الأنـوف

واستمرّ السيد في مؤازرة فيصل بعدما تُوّج ملكاً على سورية. ومن مواقفه الشاهدة بذلك قوله

للضابط الفرنسي الذي نال من الملك فيصل أمامه. وهذا القول يفصح عن رؤية السيد إلى حركة التاريخ الموصلة حتماً إلى انتصار الحق. قال السيد للضابط الفرنسي: «إنّك ضيفي في منزلي. وحرمة الضيافة وحدها تمسكني عن إهانتك. ولكن تأكّدوا أنّ التاريخ لم يسجِّل أنّ القوة استطاعت الانتصار على الحق انتصاراً أبدياً، ولا بد للعرب في سورية أن ينتصروا في النهاية بحقهم على قوتكم». وممّا يروى أنّه كان ينسِّق مع الملك فيصل في ما يجب اتخاذه من مواقف في جبل عام[٣٢].

ولم يكن اهتمامه منصبّاً على سورية وجبل عامل فحسب، وإنّما على ديار الإسلام جميعها التي عاث العدو بها وخفقت فوقها رايات الشرك وشغل أهلها بالنّزع في ما بينهم فضعفت قواهم وساقهم الجهل في أسوأ الدروب، وممّا يقوله في هذا الصدد:

هذي ديـاركـم عاث العـدوّ بها	وفـوقـهـا خفـقـت للشـرك رايـات
شغلتم بنزاعٍ بينكم ضعفت	منه قواكم وساقته الجهالاتُ

وهذا الواقع يقتضي موقفاً يأمر به كتاب الله، وهو الجهاد، فيدعوهم إليه طالباً منهم عدم القنوط والنهوض فالله ناصرهم إن أخلصوا النوايا. وممّا يقوله في هذا الصَّدد:

وبالجهاد أمرتم في الكتاب وما	صحَّت لكم في جهاد الضدّ نيات
لا تقنطوا وانهضوا فالله ناصركم	إن أخلصت منك لله نيّات

والدعوة إلى الجهاد كانت موقفاً عامّاً. أعلنه مجتهدو الشيعة في العراق، عام ١٩٢٠، ضدّ الإنكليز، وذلك بدافع إسلامي «لأنّ دفع غير المسلمين عن الثغور الإسلامية واجب إسلاميّ مقدّس..». ولم يكن هذا الموقف طارئاً فقد سبق أن أفتى المجتهدون بالجهاد لدفع غير المسلم عن أرض المسلمين في ظل الدولة العثمانية في بداية الحرب العالمية الأولى. وهذا يعني أنّهم تجاوزوا الخلافات المذهبية وآثار العصبية العمياء التي كان يسبِّبها لهم الأتراك. وفي الإطار نفسه تندرج فتوى الإمام الشيرازي عام ١٩١٨ التي صدرت على أثر الاستفتاء الذي جرى في العراق آنذاك، وكانت تنص على أنّه ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة على المسلمين»[٣٣].

ودعا السيد، من موقعه في بلاد الشام، إلى مقاومة الاستعمار الفرنسي بشتّى الوسائل، ومنها الثورة المسلّحة، فقال، في قصيدة تعدُّ من القصائد الوطنية الأولى في بلاد الشام:

إنَّ الحياة تنازعٌ وخصام	هيهات ما بسوى السيوف سلام
والعدل كالعنقاء فينا، والذي	لم ينف عنه الضيم فهو يُضام
قالوا: السلام نريده بفعالنا	والأمن تدركه بنا الأقوام
إن كان هذا منكم وسلامكم	فعلى السلام تحيّة وسلام
قالوا: الشعوب نفكها من رقّها	كلا، بل استعبادها قد راموا

هبوا بني قحطان طال رقادكم فإلام أنتم غافلون نيام
باسم الحماية والوصاية يحتوى حق لكم وتدوسكم أقدام[٣٣]

نلحظ في هذه القصيدة فهماً لطبيعة الحياة ودور القوَّة في حسم الصراع ورفع الضيم وإحقاق العدل، كما أنّنا نلمس إدراكاً واضحاً لحقيقة الغرب وأساليبه وأضاليله، وسبل مقاومته.

وقد تصدّى السيد لأساليب المستعمر في التفرقة بين المسلمين فاحتجّ على قانون الطوائف ببيان صدر باللغتين العربية والفرنسية، الأمر الذي أدّى إلى إلغائه.

وحاول الفرنسيون إغراءه بالمنصب والمال، فرفض أن يتولّى منصب رئاسة العلماء والإفتاء الذي عزم الفرنسيون على إحداثه «بمعاش كبير مشفوعاً بدار للسكنى وسيّارة خاصّة، قائلاً: «إن هذا الأمر لا أسير إليه بقدم ولا أخط فيه بقلم ولا أنطق فيه بفم» «إنّني موظف عند الخالق العظيم وسيِّد الأكوان. ومن كان كذلك لا يمكن أن يكون موظّفاً عند المفوض السامي.. وأحمل إليه أنّ المعاش الكبير والدار المنيفة والسيّارة الرفيهة، كل أولئك قد أغناني الله عنه بالقناعة»[٣٤].

وكانت داره في دمشق مقصد الزعماء الوطنيين، تعقد فيها الاجتماعات وتتخذ القرارات. ومن ذلك قرار مقاطعة شركة الجرّ والتنوير الفرنسية الذي أدّى إلى الإضراب الخمسيني الشهير في سورية. وفي ذلك يقول الأستاذ محمد جميل بارودي: «إنّ التفاصيل عندي لأنّي كنت ممن شهد تلك الليلة الثورية التي كانت من ليالي السيد محسن الأمين الرائعة التي طالما توالت في دمشق مزيجاً من الفقه والشعر والنثر والمحاورة والمباسطة والثورة والتجديد»[٣٥].

هذا الموقع الذي احتله السيد الأمين جعله يلعب دوراً يتحدث عنه لطفي الحفّار، رئيس الوزارة السورية الأسبق، وأحد مؤسسي الكتلة الوطنية يقول تحت عنوان: «إمام في الوطنية»: «في هذه الحقبة من أيّام النضال والنِّزال على اختلاف ظروفه وأحواله، كنّا نستمد قوة روحية ودعاية واسعة ودعوة صالحة من الإمام المجتهد السيد محسن الأمين لما نلاقي في أحاديثه الممتعة من التشجيع.. على متابعة الجهاد في سبيل الله والوطن وتحقيق غايات البلاد في الحرية والاستقلال والدفاع عن كرامة ا لإسلام والمسلمين والتضامن مع مختلف الطوائف..»[٣٦].

تشير هذه الشهادة إلى دور السيد الأمين في دعم الكتلة الوطنية التي نشأت في سوريا بعد مجيء لجنة كراين الأمريكية، هذا الدعم الذي أسهم إضافة إلى جهود عديدة أخرى لقيام الثورة السورية الكبر ى من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٢٨.

كانت قضايا العرب والمسلمين جميعها تشغله. وإن كان لا بد من التوقف إزاء قضية فلتكن قضية فلسطين نموذجاً نلمس من خلاله مدى التزامه وبعد نظره. تأزّمت الأمور في فلسطين على أثر

تدفق المهاجرين اليهود إليها ووقوف سلطات الانتداب إلى جانبهم فحدّدت سورية يوماً دعته يوم فلسطين لجمع التبرّعات، فأصدر السيد الأمين نداء موجّهاً إلى العرب والمسلمين، ونشرته الصحافة العربية، وقد حدّد فيه موقع فلسطين في الوطن العربي وأهميتها للمسلمين، فهي شطر الشام الجنوبي وأولى القبلتين وثالث الحرمين. وفيها الأرث القومي الممتد على مدى أربعة عشر عاماً. وحدّد أيضاً طبيعة الخطر الذي تتعرض له، فقد غدت مواطىء لطوائف من أخلاط الشعوب يمدّون الأيدي لاستلاب الأرض المقدّسة، ورأى أنّ الصّراع الذي يدور بين أبنائها من جهة، وبين أخلاط الشعوب وسلطات الانتداب من جهة ثانية غير متكافىء، فالباطل تؤيّده دولة من أقوى الدول عديداً وعدة والحق أعزل إلاّ من نصرة العقيدة، ولكن هذا لا يعني الاستسلام فالتاريخ المجيد حافل بالصراع وبطولات المسلمين الذين حققوا الانتصارات العظيمة. وأبناء اليوم ينبغي أن يكونوا مثل الأجداد وعليهم بذل كل ما يجب من أجل ذلك، والمطلوب أن تبقى فلسطين عربية صريحة، ومن دون تحقيق ذلك لا تطيب الحياة ولا يلذّ العيش.

عمل الاستعمار على أن يؤسّس لبقائه، بأشكال أخرى سوى الوجود المباشر. وقد رأى السيد الأمين إلى تلك السياسات وكشف حقيقتها وأهدافها. وإن كان لنا أن نتحدث عن إحدى مسائل تلك السياسات، فلتكن مسألة الإعلان عن دولة لبنان الكبير بعد ضمّ ما كان يسمّى الأقضية الأربعة إليه، ومنها منطقة جبل عامل.

وقف متأملاً الحدث، وقال ما يكشف حقيقة هذا الضمّ ويبيّن نتائجه، من دون أن تفوته السخرية ممّا سُمِّيَ استقلالاً ومن الوعود الخلاّبة، مشيراً إلى طبيعة الحكم الظالم ورجاله الثعالب الصناديد. ومما قاله:

هنيئاً لكم «أهل الجنوب» سعدتم ... بلبنانكم، فلتملأوا الجوَّ تغريدا

وعدتم بجرٍّ الماء نحو بلادكم ... ألا فاشربوا، أهل الجنوب، مواعيدا

وقالوا لنا: لبنان من بعد أعصر ... غدا مستقلاً ليس يقبل تقييدا

فقلنا: استقلّ العدل عن جنباته ... جميعاً، وأمسى ساكنوه عبابيدا

رجالاتنا عند الفعال ثعالب ... وتلقاهم، عند المقال، صناديدا(٣٨)

ولم يمنع الغرب بوجهه الاستعماري السيد من أن يرى الوجه الآخر له، وهو التقدم الحضاري. فقد رأى أنّ الأوروبيين يتميزون بعقلية حققت إنجازات حضارية متقدمة. وأبدى إعجابه بهذه العقلية، وسماهات الخلق الأوروبي العمليّ المتمثل بالتفكير العميق والعزم المصمم والثبات الدائب وسعى نظرياً وعملياً إلى اكتساب هذه العقلية التي تقف وراء الإنجازات، مؤكّداً أنّ الأوروبيين أخذوها عن الإسلام في حين تخلّى عنها المسلمون.

ونلاحظ في هذا المقام، أمرين:

الأوّل: هو أنّ السيد الأمين لم تبهره إنجازات الغرب، وإنّما رأى شروط تحقّقها، وعمل من أجل توفير هذه الشروط في مجتمعه.

والثاني: هو أنّ السيد حرص، وهو يعمل من أجل توفير تلك الشروط، على تأكيد الهوية والمحافظة على عناصرها الأساسيّة. ففي الوقت الذي درّس فيه العلوم العصرية مستخدماً مدرِّسين من جميع الطوائف، وقف ضد التعلُّم في مدارس أنشئت للتبشير بغير دين الإسلام وفي مدارس تجرُّ إلى الإلحاد.

وفي هذا كان موقفه، بشقيه، بعض مكوِّنات رؤيته الإصلاحية الشاملة المتماسكة. إنَّه يريد نهوضاً فاعلاً لا ارتماء تبعياً أو توفيقياً وهو بهذا يختلف عن دعوات إصلاحية أخرى عرفها العالم الإسلام في تلك الفترة.

التضامن الاجتماعي:

وقد أولى السيد مجتمعه اهتماماً بالغاً. وقد مرَّت بنا، في ما سبق إشارات إلى ذلك الاهتمام. ونحاول في ما يلي أن نضيف إليها بعض ما يفي بالدلالة في تلك الجلسة التي اتخذ خلالها قرار مقاطعة شركة الجرّ والتنوير الفرنسية وهو ما أدّى إلى ما عُرفَ بالإضراب الخمسيني، تحدّث السيد عن سبل المقاومة وتحقيق الأهداف الوطنية. فركّز على التضامن الوطني واستشهد بحادثة معروفة. تمكّن خلالها الشعب الإيراني من تحقيق هدف مرسوم، وهي الحادثة المعروفة بـ «حادثة النارجيله»[39] التي أثبت المسلمون خلالها قدرتهم على مقاومة المستعمر المحتكر والحاكم المحلّي التابع له والنجاح في ذلك.

وقد أثبت هذا التضامن فعاليته في الأيّام التي تلت تلك السّهرة وبغية جعل مثل هذا التضامن أمراً طبيعيا تجدث كلما احتاج الشعب إليه سعى السيد إلى تحقيق شروطه في محيطه. وفي ذلك يقول: «أمّا أمر الحزبية والتشاكس الواقع بينهم فرفعه أمر واحد، وهو المساواة بين الناس وعدم التحيّز لفريق دون آخر. وهذا أمر طبعنا عليه، ولم نتكلّفه تكلّفاً».

وانصرف، في جهد عملي نادر، إلى تنقية المجتمع من الشوائب، ومن الأمثلة على ذلك ما يقوله جعفر الخليلي: «حمل عدداً ممن عثر بهنّ الحظّ. . [على] التزام التوبة. ثم دفع بهنّ إلى من هيّأ لهنّ زواجاً. فعشن شريفات ورزقن بأولاد صالحين ببركة مساعيه».

وقد حقق هذا الجهد ثماره. فقد جاء في شهادة أحد معاصري السيد أنّه حقّق نمطاً «من الحياة الفكرية والروحية والاجتماعية ليس من الغلوّ البتّة أن أقول: إنّه نظام أمثل (. . .) لجماعات إنسانية تعيش في طمأنينة ودعة وانسجام وترابط عجيب يسود ذلك كله عدل. .».

خاتمــة:

ويمكن القـول، في الختـام: إنّ السيـد محسن الأمـين العالم المجتهد المتصف بشخصية المصلح الإسـلامي، بمختلف شروطهـا، نظر إلى مشكـلات عصره، برؤية شاملة متماسكة نستند إلى مفهوم الإسـلام للإصـلاح المتمثـل بضـرورة الاجتهـاد الـذي لا ينقطـع عن معـاينة التحوّل الحياتي ومعالجة قضـايـاه، انطـلاقـاً من نصّ ثابت. كما أنّه عمل بجهد منقطع النظير لتحسين رؤ ينه. وبقي الكتاب: اطلاعاً وتأليفاً صاحبه الذي لا يرضى عنه بديلاً قال، وهو على فراش المنون:

بكـيـتِ، ومـا بكـيـت لفـقـد دنيـا أفـارقـهـا ولا خلٍّ ألـيـف
ولـكـنـي بكـيــت على كتـابٍ تصـنّـفـه يداي إلـى صنـوف
سيـمـضـي بعـد فقـداني ضيـاعــاً كما يمـضـي شتـاء بالخـريـف

ولعلّنـا، في ضوء ما أنجزه نجـل السيـد الأديب الكبـير والمؤرّخ والمحقق السيـد حسن الأمـين نستطيع أن نقول: إنّ شيئاً من الكتب لم يضع وإنّ الشتاء لم يمضِ بالخريف بل تلاهما ربيع للفكر، إذ وفّى السيـد حسن بالـوعـد، فانكبّ على مخطوطات والده يخرجها الواحد تلو الآخر في حلّة رصينة أنيقة وفّقه الله إلى مزيد من العطاء ورحم الله السيد محسن الأمين وقدّرنا جميعاً على فعل ما يرضيه.

الحواشــي

(١) ـ لخّص الإمام الخميني (قد سره) هذه الشروط شرطين عندما قال بـ «لزوم توافر شرطين في الخليفة وفي زعيم المسلمين على الإطـلاق: العلم والعـدالـة. وهـذا هو الأمر الذي يتوافق العقل والشرع عليه» للمزيد: راجع د. أحمد كمال أبو المجد «تطبيق الشريعة لا يلغي دور المجتمع في سن قوانينه»، الحياة، العدد ١٠٦٢٠، ص ١٤.

(٢) ـ السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل، بيروت: الدار العالمية، ص ٤٤ و ٧٤.

(٣) ـ المصدر نفسه، ص ١٣.

(٤) ـ الإمام السيد محسن الأمين، سيرته تعلمه وأقلام آخرين، ١٩٨٣، ص ٣٣.

(٥) ـ المصدر نفسه، ص ٨١ و ١٧٦.

(٦) ـ المصدر نفسه، ص ٤٦ و ٨٢ و ٥٠ و ١٦٧.

(٧) ـ المصدر نفسه، ص ١٥٥ و ١٣٣ و ٢١ و ١٤٠، رحلات السيد محسن الأمين ص ١٧٦ و ١٧٧.

(٨) ـ المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٩) ـ المصدر نفسه، ص ١١١ و ١١٢، و ١٣١.

(١٠) ـ المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(١١) ـ المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(١٢) ـ راجع المصدر نفسه، ص ٧٢. حيث يتحدث عن أعاجيب الشيخ عبدالقادر.

(١٣) ـ المصدر نفسه، ص ٢٨. الغمّة هي الرأس والأكارع والكرش من الذبيحة.

(١٤) ـ المصدر نفسه، ص ٨٠

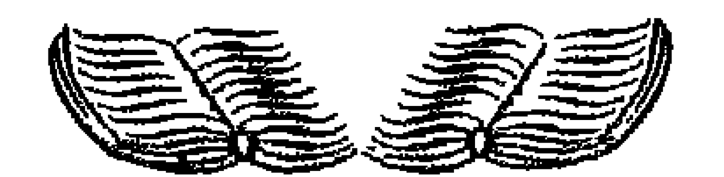
(١٥) ـ المصدر نفسه، ص ٦٩، ١٠٤، ٩١، ٥٩، ٣٦، ٩٨، خطط جبل عامل، ص ١٤٦.

(١٦) ـ يراجع في ما يتعلق بالعلم، السيد محسن الأمين، معادن الجواهر ونزهة الخواطر، بيروت: دار الزهراء، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ١ / ١٠، ١١، ١٢، ٥٣، ١٨٥، ٤٥، ٤٩، ٢ / ٣٨٤، والسيرة، ص ٧٨. الدر الثمين، ص ٥، ٦.

(١٧) ـ أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص ٧.

(١٨) ـ خطط جبل عامل، ص ٤٧، ٦٠.

(١٩) ـ المصدر نفسه، ص ٨٤.



موقع السيد الأمين
في مجرى الحركة الإسلامية السياسيه الحديثة

****************************** الدكتور حسن جابر

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمة تحديد عرفي لمفهوم «السياسة» يمارس سطوته على الخاصة فضلاً عن العامة فيتهيب منه البعض ويتوجس بعض آخر ويقتحمه ثالث عن سابق عزم وتصميم، وفق هذا الفهم الذي يرى «أن السياسة هي فن الوصول إلى السلطة وإدارتها»، يضحي الممارس لها على طرف يناقض القيم الأخلاقية والحقوق الإنسانية «تغليباً للأعم». والناس الذين يرتكز في وعيهم الباطني هذا الفهم، هم على حق إذا ما تهيّبوا الوقوع في دائرة موسومة بالفساد والإفساد، وبالأنانية وحب الهيمنة والتسلط.

غير أن هذا التحديد المجمل في معناه والمطلق في امتداد دائرته، وإن كان يعد من أدق التعريفات لمعنى السياسة إلا أن عدم وضوحه يوحي بضرورة الحذر والخوف من الوقوع في الشبهات، وهو ما يقودنا إلى تعريف أكثر دقة من جهة المعنى وأضيق دائرة من المفهوم الشائع السابق، هذا التعريف الذي يقدم

السياسة على أنها «فن تذليل العقبات المنصوبة في طريق المشروع السياسي»، وإزالة العقبات كما تعني الـموجـودة فعـلاً تعني أيضاً المقدُرة الحصول، ويمكننا إستطالة المفهوم ليشير إلى ضرورة زرع المزيد من المعوقات من أمام المشاريع الأخرى.

والمفهـوم الجـديـد لا يلغي القلق الذي زرعه الأول وإنما يخفف من سطوته ويجعل السياسة أقرب إلى فعـل الـرد وممارساته الحياتية، والإضافة، الإيجابية، التي تبعث على الاطمئنان، هي ربط الممارسة السياسية بمشروع، وهذا ما يؤطر الحركة ويحصرها في حدود مقننة من الضوابط التي يفترضها المشروع نفسه.

والثغـرة الأسـاس في المفهـوم الجديد، تتمثل في إمكانية تفسير معنى المشروع بما يخرج عن حدود الضـوابـط العقـديـة و«الإيـديـولوجية» ولهذا نستطيع إضافة قيد، نحترز به عن كل معاني «البرغماتية» الشخصيـة، والـوصـوليـة الـذاتيـة، فيضحي التعريف على الصورة التالية: «السياسة هي فن تذليل العقبات المنصوبة في طريق المشروع السياسي العام».

انطـلاقـاً من هذا التحـديـد، الـذي يصح القول فيه أنه مصوّب للفهم العرفي ومدرج للحركة السياسية في المجرى الإيجابي للممارسة دون السلبي، بات بالإمكان قراءة النشاط المتعدد الوجوه والحقول قراءة سياسية، بدء من مرحلة وجود الدولة الإسلامية «الخلافة» وانتهاء بالمرحلة الراهنة التي بدأت لحظة دخول الاستكبار العالمي بكافة أشكاله إلى المنطقة.

وإذا كانت السمة العامة للفقهاء في مرحلة ما قبل دخول الاستكبار، هي ممارسة النشاط العلمي في مختلف الحقـول: اللغـة، الفقـه، الأصـول، علم الكلام، علم الحديث، التراجم، المنطق وأخيراً الفلسفة، فإن هذه السمة هي تعبير عن شكل من أشكال الممارسة السياسية بالمعنى المقرر أعلاه، إذ أن العلم بالمشروع الإسلامي يسهم، إلى حد بعيد، في تذليل عقبة رئيسة من جملة العقبات المنصوبة أمام المشروع، وهي الجهل بالإسلام ومراميه التربوية والإنسانية. وإذا ما رشح في التاريخ ما يشعر بمهادنة للحاكم أو تعاون، بحدود ما، فهما لا ينقضان القاعدة بل يثبتانها، وإلا كيف يمكن تفسير معنى التقية إذاً، إذا لم تكن لونـاً من الـممارسـة السيـاسيـة التي تهدف إلى تذليـل عقبة ما؟ وكيف نفسر مناداة الإمام الصـادق(ع) للمنصـور «أمير المؤمنين» وكذلك الإمام الكاظم للرشيد والرضا(ع) للمأمون... الخ، مع أن الأئمة(ع) ينهون عن نعت أحد من الأئمة والخلفاء بـ «أمير المؤمنين» حتى المعصومين منهم غير الإمام علي بن أبي طالب(ع). أليس هذا شكل من أشكال الممارسة السياسية المذللة للعقبات؟.

علاقـة الشـريفـين الـرضي والمـرتضى والشيخـين المفيـد والطـوسي بالبويهيين، ألم تكن في إطار ممارستهم الـواحـدة والثـابتـة، صورة من صور استثـمار المنـاخ السيـاسي لخدمـة مشـروعهم الإسلامي الرحب؟ ويكفينا دليلاً على ما تقدم غزارة النتاج العلمي الذي قدمه هؤلاء الأعلام الأربعه في أقل من

قرن، بينما ينحسر هذا النتاج ويضعف في مرحلة ما بعد وصول السلاجقة إلى بغداد، عندما يتكثف الشعور بالضيق، الأمر الذي انعكس على نتاجهم العلمي الذي وصل إلى أدنى مستوى من مستوياته. ثم تعود الحركة العلمية إلى سابق زخمها واندفاعها في مرحلة سقوط السلاجقة وضعف مراقبة السلطة المركزية في بغداد، وفي زمن المغول، إذ استفاد الفقهاء من انعدام الرقابة الرسمية من جهة وخضوع المنطقة برمتها لحالة عدم التوازن بعد التحولات السياسية والعقائدية في آسيا الوسطى والهضبة الإيرانية وبغداد، وفي هذا الإطار يمكن إدراج علاقة «الحلي» بخدابنده، وسعي الأول لاستمالته مذهبياً، دون أن يمارس «خدابنده» أي نفوذ على «الحلي»، وهذا كله نستطيع إدراجه في سياق الممارسة السياسية المستمرة، المتمظهرة حينذاك بصورتها الفكرية، لأن الطابع الغالب على مجمل النشاط الفكري والسياسي في عهد الخلافة الإسلامية هو التقية.

وائتلافاً مع التصور السابق، تنخرط استجابة المحقق الكركي لدعوة الصفويين، وكذلك رفض الشهيد الثاني في جبل عامل للدعوة وكذلك الأردبيلي في النجف الأشرف.

والمحقق المتبصر، في حقائق الأمور، لا يجد صعوبة في تفسير ظاهرة انعدام النص السياسي في كتابات الفقهاء الإمامية طيلة مرحلة التقية السياسية التي سبق وحددناها زمنياً، بينما تتكثف عندهم المادة الفقهية والكلامية والأصولية وغيرها من الموضوعات التي ترتبط بالبنية الكلية لفكر الإسلامي، وما ذلك إلا لإدراكهم حقيقة دورهم التاريخي، الذي ما انفكوا يعبّرون عنه. ولشدة وضوحه ورسوخه قروناً طويلة، لم يستطيع عدد لا يستهان به من الفقهاء من تطويره بما يتوافق والظروف الموضوعية المتغيرة دائماً، وخاصة بعد دخول الاستكبار العالمي.

هذا المدخل التاريخي والفقهي، يُعد ضرورياً، في عملية رسم مسار الحركة السياسية للفقهاء، بعد سقوط الوظيفة العملية المرحلية ـ المعبر عنها بالتقية ـ ومباشرتهم العمل السياسي الصريح.

والعلامة الأمين (رضوان الله تعالى عليه) هو أحد رموز الحركة الإسلامية السياسية الحديثة الذي أدرك، بسرعة كبيرة، المتغيرات التي حدثت في المنطقة، وأمسك، في الوقت عينه، بمِلاك أو علة ثبات الفقهاء في المرحلة السابقة على التقية، فانساق في مجرى التحول السياسي ـ الفقهي الحديث والمعاصر وتماهى بمشروعه مع كل من سبقه من الفقهاء وأضاء الكثير من المحطات أمام الجيل المعاصر من العلماء والمجاهدين.

إذا تتبّعنا مفردات التصدي المباشر للفقهاء الذين عاصروا مرحلة دخول الاستكبار العالمي، بدء من فتوى المجتهدين بوجوب التصدي للغزو الروسي لإيران سنة ١٨٠٩م، مروراً بفتوى الشيرازي بمقاطعة شركة التنباك الإنكليزية في نهاية القرن التاسع عشر، والثورة الدستورية سنتي ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦م التي نظّر لها الميرزا حسين النائيني واحتضنها الفقيه الكبير الشيخ الآخوند محمد كاظم

الخراساني، المعروف بصاحب كفاية الأصول، وفتوى علماء النجف بلزوم التصدي للعدوان الإيطالي على ليبيا سنة ١٩١١م، وثورة العشرين التي قادها كبار علماء النجف ضد الإنكليز وغيرها من المفردات التي لا تزال تسجل حضوراً يومياً وفعلاً سياسياً حضارياً يراكم بما يقود إلى القطع بحدوث التحول الذي أشرنا إليه بعد دخول الاستكبار العالمي.

ومعاينة متفحصة لحقيقة نشاط الفقهاء في العصر الحديث، كفيلة بهدايتنا لمسار خط الحركة الفقهية والسياسية المستجدة، إذ لم ينحصر النتاج، كما كان ديدن العلماء، على الفقه والأصول والأبحاث الخلافية، وإنما اتسعت دائرة الاهتمام لتتخطى الموضوعات التقليدية إلى مسائل لها علاقة بالتحولات السياسية والثقافية، الأمر الذي يشير إلى تجاوز الهم المذهبي إلى الدائرة الأوسع، ولم تعد التوترات المذهبية هي التي تقلق الفقيه، بل زاحم همُّ السيطرة الغربية ذلك وجعله في الدرجة الثانية وربما الثالثة من الاهتمام.

لكن ما ينبغي الإشارة إليه أن التطور الإيجابي في حركة الفقهاء الحديثة لم يحررهم من قيود بعض الأعراف المتوارثة التي كانت تحد من خطابهم المباشر، وتبقيهم على مسافة من هموم المجتمعات السياسية الحديثة التي كانت في تعاظم مستمر.

ونخلص من هذا المدخل إلى القول أن الممارسة العملية للفقهاء في مرحلة ما بعد دخول الاستكبار لم تلغ شكلاً ومضموناً ما كان قد ألفه الفقيه السابق للمرحلة وإنما زادت من اهتماماته وغيرت في ترتيب جدولها.

والعلامة الأمين، الذي عاصر تاريخياً وسياسياً، مرحلة الهيمنة الاستكبارية، قدم في ممارساته ونصوصه صورة مكثفة لإنموذج الفقيه المستوعب للتحولات ومقتضياتها العملية والفكرية، فهو يتصل بجيل ما قبل السيطرة الإستكبارية في الثقافة الكلامية والفقهية والأصولية واللغوية، وقدم في معظمها إن لم نقل كلها مساهمات قيّمة لا تقل أهمية عما سبق؛ فكتب بالحديث «البحر الزخّار في شرح أحاديث الأئمة الأطهار» والمنطق «شرح إيساغوجي ـ الكليات الخمس»، أصول الدين: «إرشاد الجهّال»، «الدر الثمين والتقليد آفة العقول»، أصول الفقه: «حذف الفضول عن علم الأصول» حواشي المعالم، حاشية القوانين، الدر المنظم في مسألة تقليد الأعلم، الفقه: كأساس الشريعة وغيره الكثير، النحو والصرف والبيان، وله مؤلفات في الردود والنقود والتراجم، أعيان الشيعة، وله مؤلفات كثيرة في الشعر والقصص.

جديد العلامة الأمين، الذي يخرج فيه عن مألوف علماء ما قبل المرحلة الاستكبارية في التصنيف، متابعته للتحولات ذات الطبيعة المدنية والفكرية والسياسية، وقد عكس كتاب الرحلات ذلك بكثير من الدقة، ويمكن مراجعة تعليقه على تفاصيل المناهج العلمية في الأزهر الشريف،

ورصده لواقع التعصب المذهبي في العالم الإسلامي الذي اعتبره آفة سياسية وإجتماعية، ساهمت إلى حد كبير في ترسيخ الهيمنة الأجنبية. يقول العلامة الأمين رداً على أحد المصريين الذين التقاهم في رحلته من القاهرة إلى السويس: «فانظر إلى ما يفعله الجهل والتعصب وما يبثه المفسدون مما يفرق كلمة المسلمين ويحملهم على عداوة إخوانهم في الدين!!»، وينسق هذا الموقف مع تصريح آخر قاله عند خروجه من بيروت أثر قصة عرضت له بقوله: «هذه حالة المسلمين في تعصبهم الأعمى الذي أدى إلى ضعفهم وصير ورتهم غرباء في أوطانهم». راجع سيرته، ص٦٩.

وهذا الأمر يؤشر إلى وجود رؤية لدى الأمين مؤسسة على فهم عميق لحقيقة المخاطر التي تحيط بالعالم الإسلامي، وأثر التناحر المذهبي، الذي لا مسوِّغ سياسي له، في تعبيد الطريق أمام الغرب للوصول إلى أهدافه الخبيثة.

والملفت في نتاج السيد (رضوان الله تعالى عليه) ذلك الطابع التاريخي، فقد حرص على معاينة كل ما يمكن أن يدرج في سياق الدراسات الإجتماعية والنفسية والسياسية التي تقدم مادة حيوية للباحثين في مختلف الحقول فيما بعد، وإطلالة سريعة على ما سجله في خطط جبل عامل كافٍ لتأكيد هذه الحقيقة، فقد ضمّن الخطط عرضاً للشعر الزجلي العاملي، والعادات الإجتماعية والأمثال، وتعداداً للمكتبات العامة والخاصة، المساجد الحسينيات، المحاصيل الزراعية، أنواع الحيوانات، النقد والقضاء، هذا فضلاً عن دراسة سياسية وإدارية لتاريخ جبل عامل الحديث.

والمعلَم البارز في مسيرة العلامة الأمين، حضوره السياسي المكثف في مرحلتي ما بعد سقوط الخلافة العثمانية واحتلال الفرنسيين والانكليز للمنطقة على أثر الحرب العالمية الأولى، وصعوبة تحديد خيارات جذرية وفق المعطيات الموضوعية التي يفرضها الواقع؛ فمسألة ترميم الكيان السياسي الإسلامي، الهرم، مع ما أفرزه من عوارض مرضية موهنة، لم تُبق أمامه إلا خيار الأقل ضرراً الصورة الأقل خطراً، في مقابل الرهان الخاسر على العثمانيين الأتراك الذين خسروا كل شيء حتى تأييد المسلمين والرأي العام الشامي تحديداً، فلجأ إلى موقف الضرورة السياسية الذي كان يفترض دعم حكومة فيصل، بالرغم من كل سلبياتها.

هنا، إستحضر العلامة الأمين قاعدة التزاحم، وهي قاعدة أصولية تُستخدم في مورد امتثال تكليفين في آن والتي ترشد إلى ضرورة الإلتزام بالحكم الأقرب للمصلحة الإسلامية العليا دون ذلك الذي يباعد في المصلحة ويجلب المفسدة، فكان خياره، تأسيساً على هذه القاعدة، دعم حكومة فيصل، وهو موقف أجمع عليه أعيان جبل عامل يومذاك، فتوجه لتهنئته بالمنصف الجديد على رأس الحكومة السورية، واستمر الأمين على خياره إلى سقوط حكومة فيصل، عندها كان لا بد من تبني الموقف الذي أجمعت عليه الأمة والفقهاء، وهو خيار مناوأة المستكبِر لطرده من البلاد.

وقد تمثل نهجه السياسي الأصيل، المتماهي مع الحركة السياسية للفقهاء، بمسعاه إلى إحباط مؤامرات الفرنسيين الرامية إلى تعميق مشاعر التفرقة بين المسلمين، وجهودهم في استمالة ما يعتقده الفرنسيون أقليات في المنطقة. فتعاون مع العلماء من المذاهب الإسلامية الأخرى لإسقاط قانون الطوائف، ورفض أي تمييز بين موقفه وموقف إخوانه بالرغم من حرص الفرنسيين على التمييز، وهنا نحيل القارىء إلى سيرته ص١٣٥ حيث يورد، هناك، تفاصيل ما جرى.

وفي الإطار عينه، رفض تعيينه في منصب مهم، هو رئاسة علماء الشيعة في سورية ولبنان، وأبطل مفعول مرسوم التعيين[١].

وكتعبير عن قناعة سياسية ـ عقدية مكينة في وعيه، جهد لإلغاء مبدأ تقسيم المقاعد النيابية في مجلس النواب السوري، الذي يميز بين السنة والشيعة ويدرج الطائفة الأخيرة في خانة الأقليات، وقد وُفّق في ثني الحكومة السورية عن موقفها وإقرارها بعدم التمايز بين السنة والشيعة في إطار الدين الجامع ـ الإسلام[٢].

وأخيراً، لا بد من التأمل في دلالات الإضراب الخمسيني الذي بادر إلى [illegible] والتزام العمل بمضمونه في منتصف الثلاثينات، فالعلامة الأمين آثر البقاء على الوضعية المدنية البدائية على الوقوع في براثن الشركات الاستكبارية، وقد نجح في إقناع زعماء الكتلة الوطنية بضرورة إعلان الاضراب، وبالفعل أدت هذه الحركة الاحتجاجية إلى إذعان المفوض السامي الفرنسي الكونت دي مارتيل[٣].

لقد صاغت هذه المواقف المشدودة إلى نهج سياسي بتوافق وروح العقيدة والمتصلة بجذر ثقافي أفرزه الإسلام تحديداً، من العلامة الأمين شخصية قيادية سلّمت بريادتها كافة القيادات الوطنية، وذابت بحرارتها كل الأدران الموروثة والمؤثرات السلفية التي جهدت عبر قرون لإقامة حواجز نفسية بين المسلمين فمنعت تواصلهم ووأدت فيهم روح الشورى التي هي من مكونات الشخصية الإسلامية التي حددها القرآن الكريم ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

والذي يراجع ما كتبه الأستاذ أديب الصفدي ولطفي الحفار والأستاذ جان حبور والشيخ علي الجبور وغيرهم الكثير، يصل إلى قناعة سياسية ودينية تصلح أن تكون قاعدة في إطار العمل السياسي، وهو أن العمل في إطار القضايا الكبرى يهب الإمكانية للحوار والتعاون بل والتوحد مع الآخر في تلك المساحة، بينما الذي ينكمش على نفسه ويلملم تشظيات التخلف ليصوغ منها قضية حية لا يمكن أن يصل حتى إلى مستوى المصالحة مع نفسه، وأستحضر في هذا السياق ما قاله رئيس تحرير مجلة «الجيل» الذي اختصر مسيرة جهاد العلامة الأمين فقال بأنه: «حمل رسالة التطور في أمور الدين يجتهد في وسائله وطرحه وأساليبه ليحقق مراميه السامية ومغازيه الرفيعة واضعاً حداً لكل ما هو دخيل على الدين مما يقيد العقل ويفسح المجال لمصطلح الخرافات والبدع فكان القمة الشامخة في تفهم

الدين على حقيقته وجوهره لرقي المجتمع وارتقاء نفسيته وتحسين سعادته»[٤].

ونخلص، بما قدمنا من مواقف إلى جملة ضوابط، التزم بها العلامة الأمين في مجمل مراحل حياته؛ فقد قرأ جيداً المعوقات التي تقف دون انطلاقة المشروع الإسلامي الحديث، ثم رسم على ضوئها خطوط تحركه العامة التي يمكن تكثيفها بالقواعد التالية:

١ ـ ضرورة العمل على بلورة وتوضيح الفكر الإسلامي الشيعي، ليكون في متناول الجميع، مزوداً المسلمين وغيرهم بمادة كبيرة في هذا المجال. وقد كانت الافتراءات والدسائس من بين المعوقات التي تقف دون إجراء المصالحة بين المذاهب، ويعد هذا الجهد جزء من الممارسة السياسية وفق التعريف المتقدم.

٢ ـ تنقية ما شاع عند بعض المسلمين الشيعة من ممارسات تفتقد إلى الحد الأدنى من المسوغات الشرعية، كما هو حالهم في ما يتعلق ببعض العادات المتخلفة في إطار إحيائهم لشعائر كربلاء كضرب الرؤوس والأبدان.

٣ ـ لزوم مواكبة العصر، إن لجهة العلوم الإنسانية والتطبيقية، أو لجهة المنهج في التدريس والبحث والكتابة، وقد أفاد كثيراً من تجربته المميزة في المدرسة العصرية في منطقة الخراب.

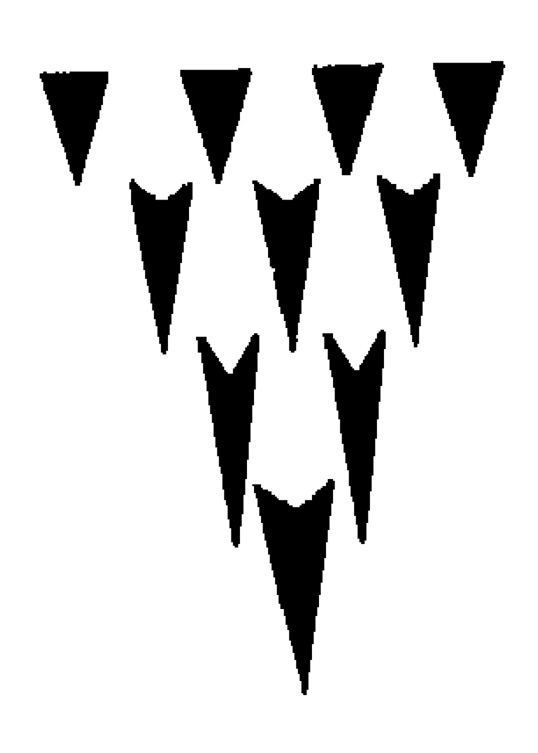
٤ ـ التصدي للغزو الغربي المكثف الذي، كان يرى فيه خطراً حقيقياً على الإسلام كثقافة وحضارة وعلى الجغرافية السياسية للمنطقة لجهة تجزئتها إلى كيانات، ستعيق، بالتأكيد انطلاقة المشروع الإسلامي السياسي.

والمتبصر في أبعاد هذه الخطوط العامة، لا يجد صعوبة في اكتشاف العلاقة بينها وبين ما التزم به فقهاؤنا، في ظل مرحلة سيطرة الاستكبار الغربي، ولا يحتاج إلى جهد كبير لموقعة حركته في مسار الحركة الإسلامية الحديثة، فقد أسهمت جهوده في مراكمة الإنجازات السابقة التي بدأت عملياً من تاريخ صدور الفتوى بوجوب مقاومة الغزو الروسي إلى ثورة العشرين، كما أنها مهّدت ـ أي هذه الجهود ـ لبلورة وعي عملي وسياسي عند فقهاء المسلمين في مرحلة ما بعد الخمسينات، نلحظه في مواقف البروجردي (رضوان الله تعالى عليه) وحركة الإمام الخميني (قدس سره) سنة ١٩٦٣م ومواقف السيد الحكيم (قدس سره) والسيد الشهيد الصدر (رض)، وأخيراً في الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الفقيه العادل الجامع للشرائط الإمام الخميني.

من هنا، شكل اللبس في مفهوم السياسة، عائقاً أمام تفسير وفهم حركة الفقهاء السابقين، والخلط والضياع في مواكبة جهود المحدثين والمعاصرين. وأنتهز، هنا، فرصة انعقاد هذا المؤتمر التكريمي، لأوجه دعوة للباحثين والعلماء إلى ضرورة قراءة التجربة العلمية والسياسية للفقهاء، بعناية

فائقة تلحظ معطيات عصر كل واحد منهم وضرورات كل مرحلة، والابتعاد عن التعميم والاسقاطات التعسفية التي لم ولن تقوى على الاستمرار في ظل تطور الدراسات التاريخية والفقهية المعاصرة.

أخيراً، أتقدم بشكري الجزيل للمستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق ولشخص مستشارها حجة الإسلام الشيخ محمد شريعتي، للجهود التي يبذلونها في سبيل إحياء فكر أعلام الأمة الإسلامية، الذين بات نتاجهم موضع حاجة ملحة يسعى لمعرفته كل طلاب العلم والثقافة في العالم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



كلمة الختام

* *

حجة الإسلام الشيخ محمد حسن أختري

سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق

إخواني وأعزائي السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته :

بما أننـا في هذه الـدقـائق المباركة نقترب من نهاية المؤتمر لذلك لا أُريدُ أن أطيل عليكم الكـلام ولا أن أبحث موضـوعـاً خاصاً في هذا المجال ولكنني أردت أن أشكر كلَّ الأعـزة من الأخـوة والأخـوات ولا سيـماّ العلماء والبـاحثـون المحققـون المدققون لمشاركتهم في هذا المؤتمر الكريم الذي أُقيم إجلالاً وتكريماً لعلَم من الأعلام، ولمرجع ديني إسلامي كبير ضحى بنفسه وقدم كل إمكانياتهِ في سبيل الإسلام ووحدة الصف الإسـلامي وجـاهـد في سبيل الله تبارك وتعالى ولم تأخذه لومة لائم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

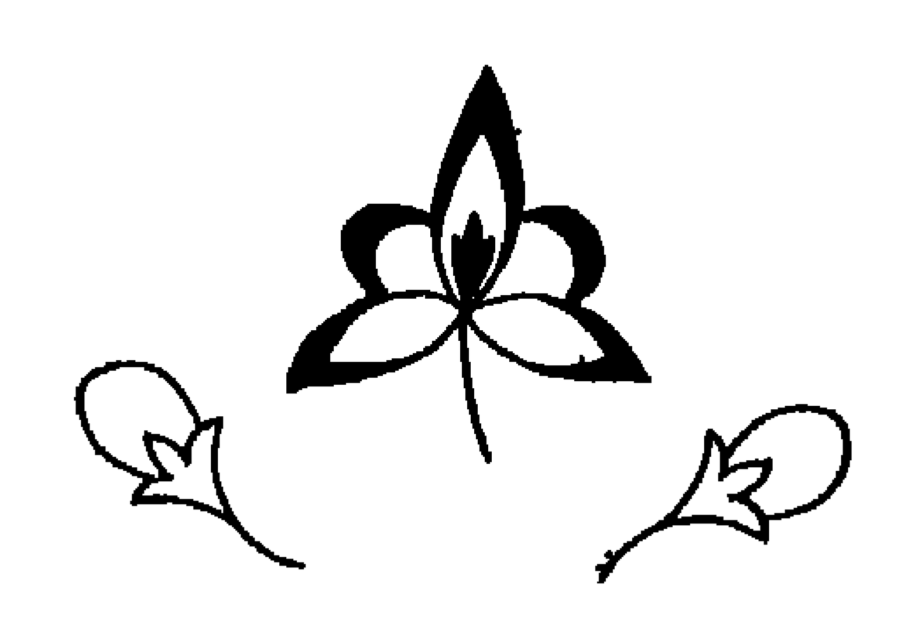
أشكـركم على مشـاركتكم وقـد استمعتم والحمـد لله إلى محاضـرات كاملة وشـاملة ولـو أن الجـانب الـوحـدوي من حركة العلامة المجاهد المرجع الديني الكبير المرحوم السيد محسن الأمين كان جديراً بأن يحظى بأكبر قدر من البحث والحديث لأن البحث في هذا المجال ضروري في هذا العصر ونتمنى من الله تبارك وتعالى أن يوفقنا للاستمرار في مثل هذه الخطوة المباركة.

وقـد أخـذت الجمهـوريـة الإسلامية على عاتقها مهمة مواجهة الغزو الثقافي الغربي بكلّ طاقاتها وترى في ذلك فريضة من أهم فرائضها في هذا العصر بعد إقامة الحكم الإسـلامي ودولتـه الكريمة. وقد وفقت الجمهورية الإسلامية في هذا المجال إلى حد كبير والحمد لله وذلك باقامتها المؤتمرات داخل إيران الإسلام أو خارجها من قبـل سفـاراتهـا ومستشـارياتها في الخارج، وتدور مهام تلك المؤتمرات في دائرة إحياء التراث الإسلامي وإحياء ذكريات أعلام الدين وأعيان المسلمين وكبار المحققين وقادة العلم والفكر الإسلامي.

وكانت المبادرة إلى عقد مثل هذا المؤتمر إحدى الخطوات التي خطتها وتخطوها الجمهـوريـة الإسـلاميـة لتحقيق تلك الأهداف السامية ونتمنى أن توفق الجمهورية الإسـلاميـة للاستمـرار في الخطوات الاحقة على هذا الصعيد. وإحياؤنا لذكريات الشخصيات الإسلامية والمناسبات والفكر الإسلامي يجعلُ المسلمين يطمئنون من أن لهم كيانهم ولهم عزتهم وتراثهم وكرامتهم وإنهم أهل العلم والثقافة والسياسة وإنهم أي المسلمـين ليسـوا بحـاجـة إلى الغـرب وإلى غير المسلمـين على أننـا لا نمانـع ولا نعـارض التبـادل الثقـافي والاستفادة من خبرات وتجارب الغير ولكننا كمسلمين لدينا طاقات عظيمة علينا أن نفجرها ونستفيد منها قبل الاستفادة من تجارب وطاقات الغير.

علينا أن نعود إلى كرامتنا وعزتنا عندما كان تمسّكنا بالإسلام شديداً، علينا أن نوحد الصف الإسلامي أكثر فأكثر لمواجهة المؤمرات والمخططات الاستكبارية والصهيونية على العالم الإسلامي والتي تحاك دوماً على كلِّ الأصعدة والأبعاد السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية. ومن هنا فإن عقد مثل هذه المؤتمرات يعد خطوة إلى الأمام في طريق المواجهة.

أشكركم مرة أخرى كما أشكر مستشاريتنا التي أقامت هذا المؤتمر وأشكر كذلك المسؤولين المشرفين على مكتبة الأسد لتقديمهم التسهيلات اللازمة لإقامة هذا المؤتمر وأشكر ثانية العلماء والباحثين الذين أفادونا بأبحاثهم وأناروا الفكر الإسلامي بتسليطهم الأضواء على شخصية هذا الإمام الراحل ونشاطاته ومواقفه والحمد لله رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

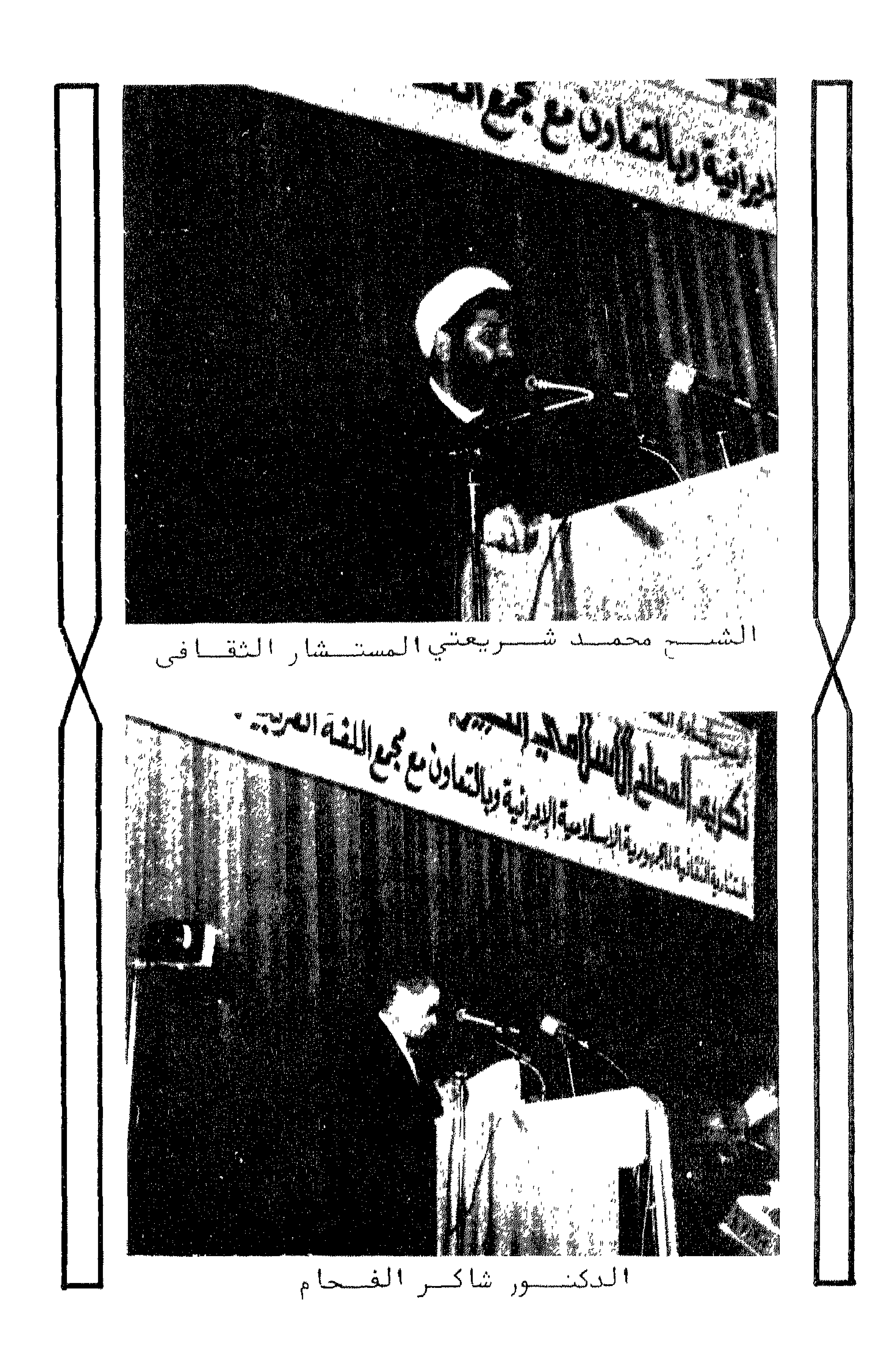


الفهرس

* *

* *





الشيخ محمد شريعتي المستشار الثقافي

الدكتور شاكر الفحام



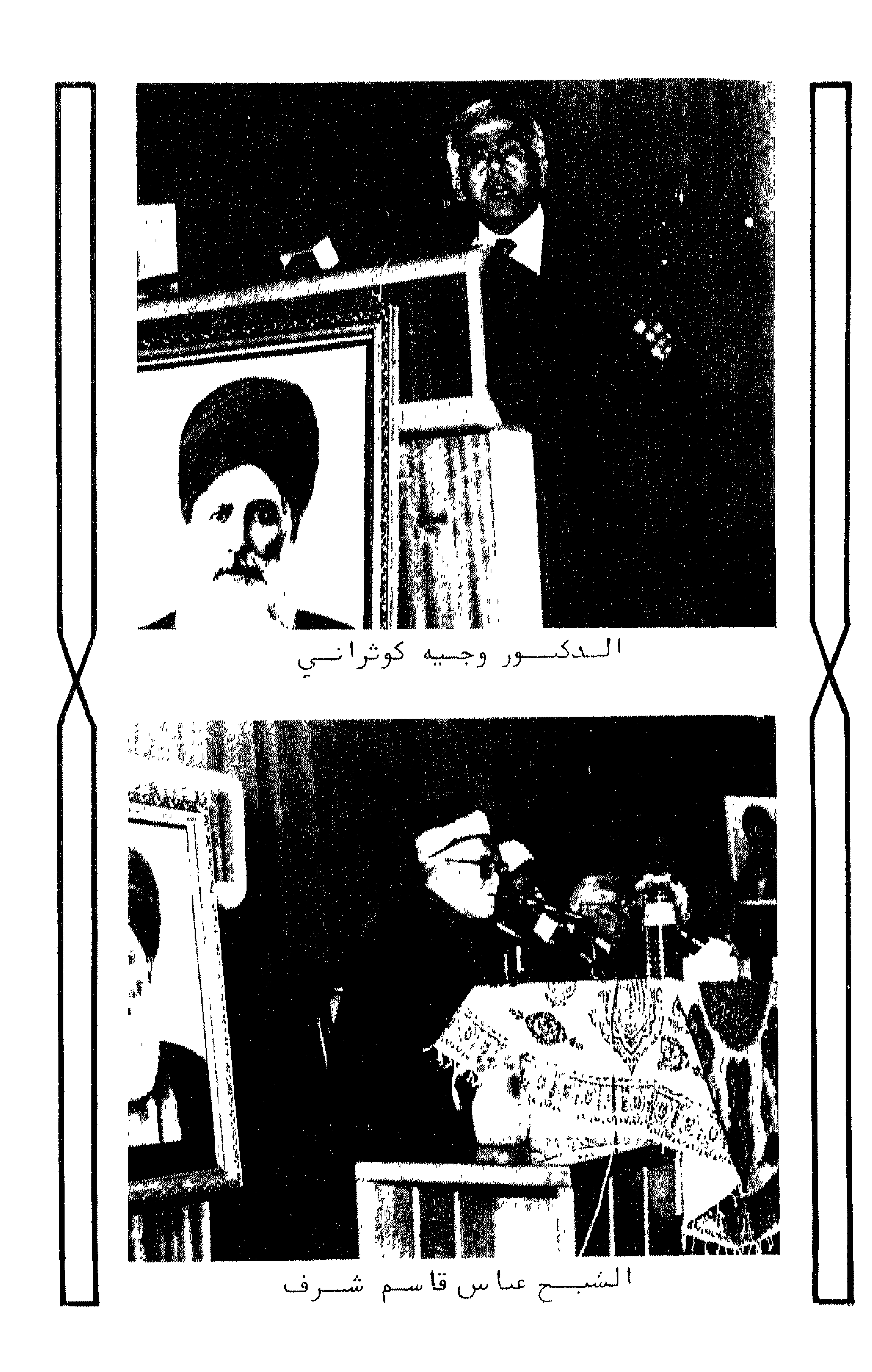
العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين

حجة الإسلام الشيخ المهاجري



العلامة السيد محمد حسين فضل الله

السيد حسن الأمين



الدكتور وجيه كوثراني

الشيخ عباس قاسم شرف



الأستاذ محمد علي شمس الدين

الدكتور شفيق نظام



الدكتور عاطف عواد

الدكتور حسن ابو عليوي



الدكتور عبد المجيد زراقط

الدكتور حسن جابر



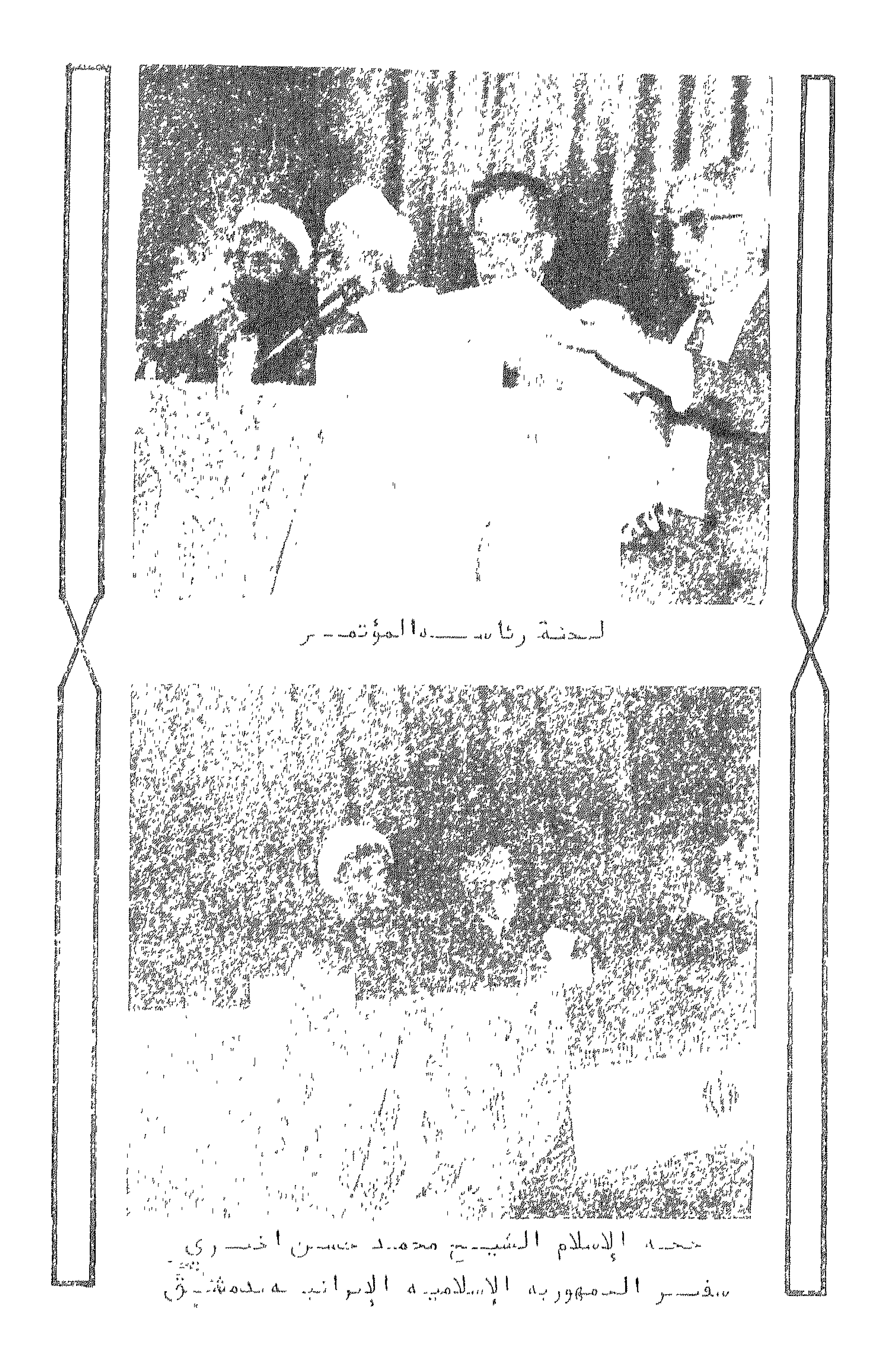
جانب من الحضور

جانب من الحضور



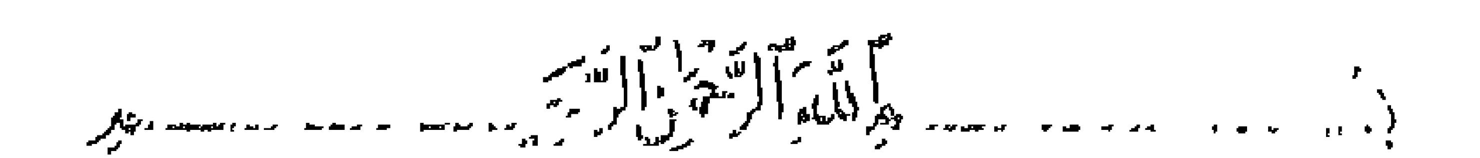
جانب من الحضور

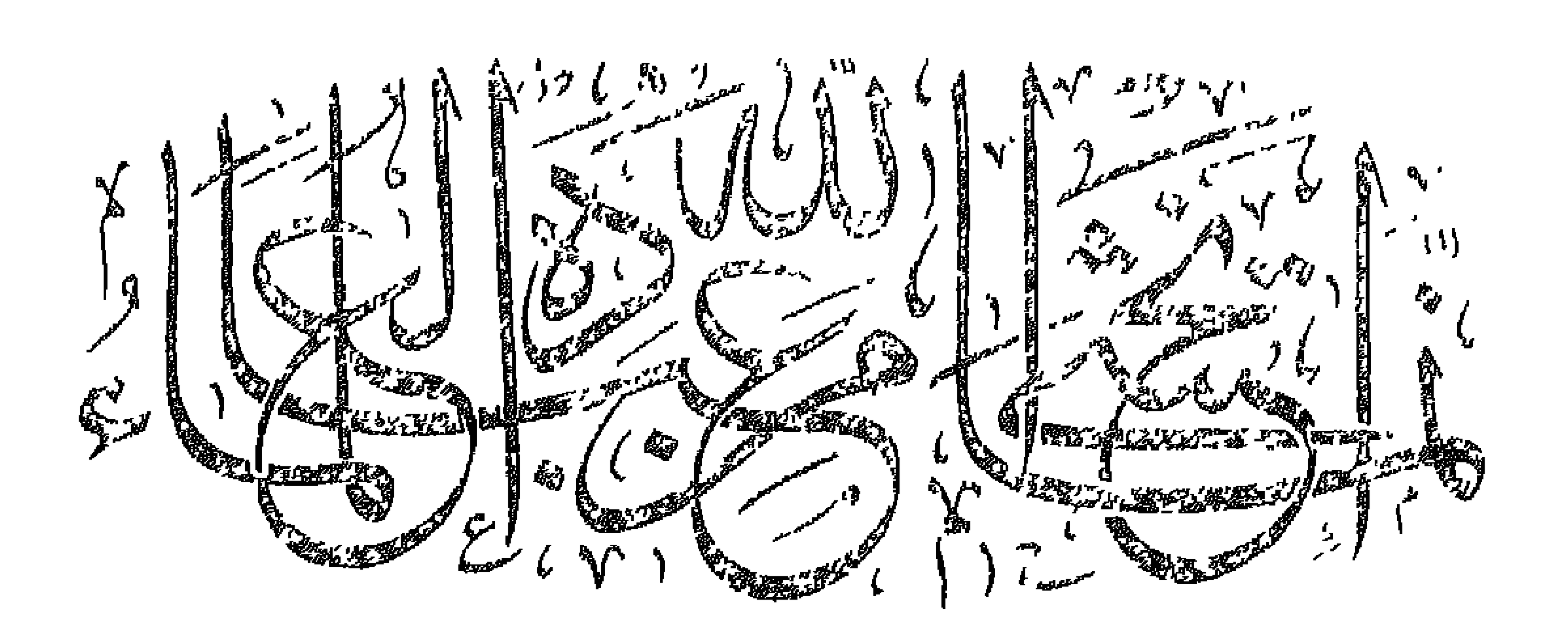
لجنة رئاسة المؤتمر

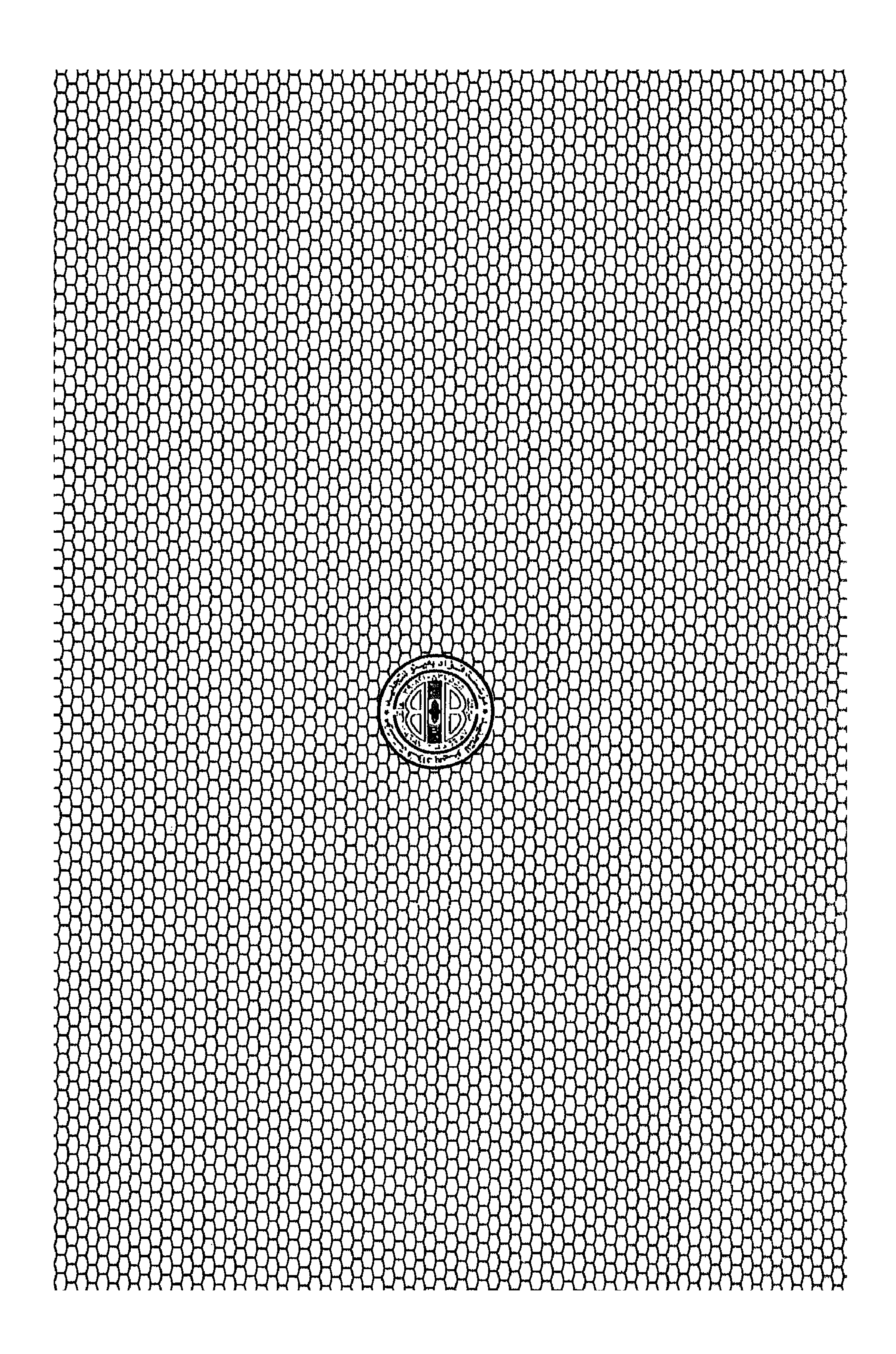


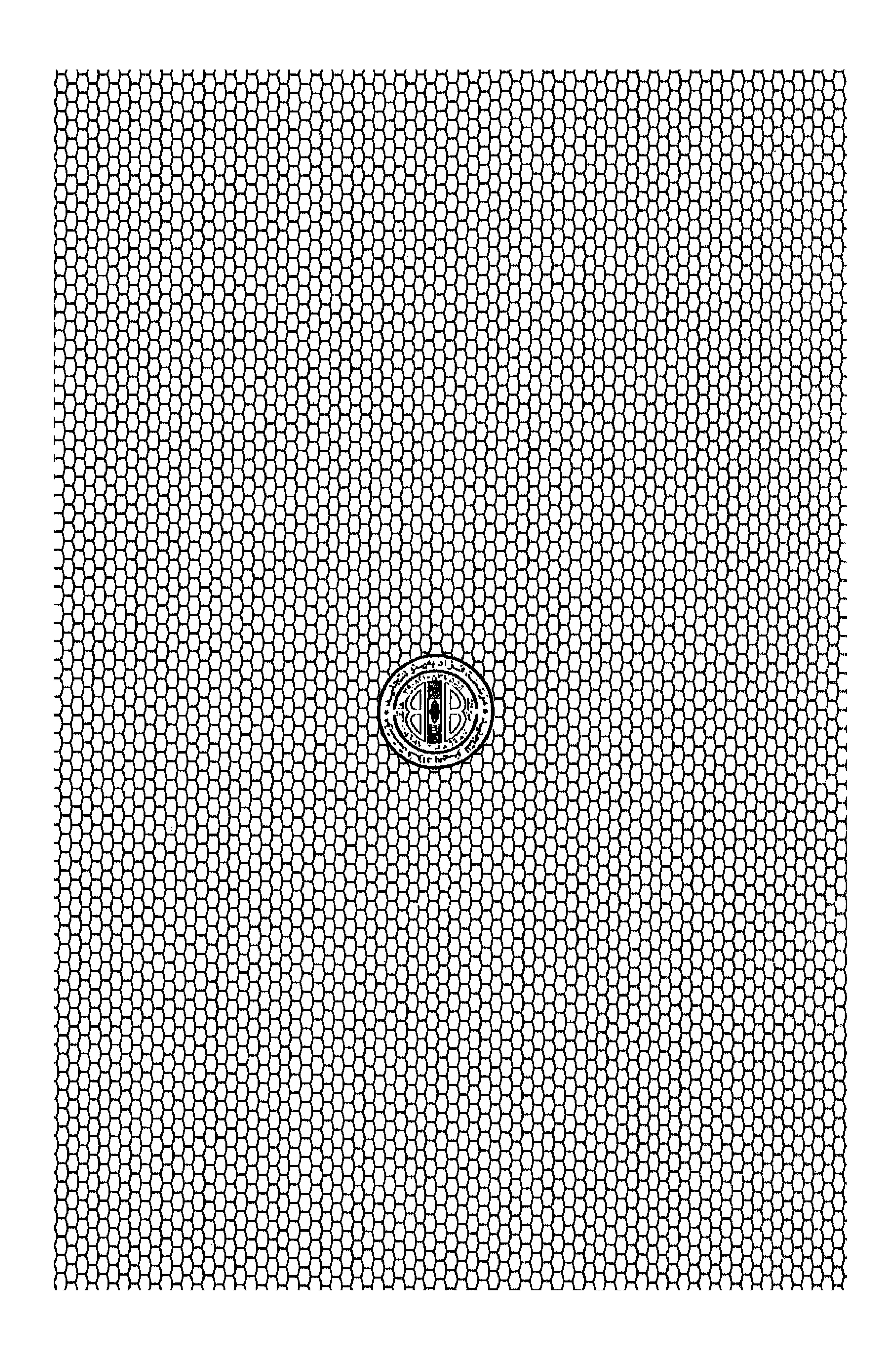
لجنة رئاسة المؤتمر

حجة الإسلام الشيخ محمد حسن اختري
سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق



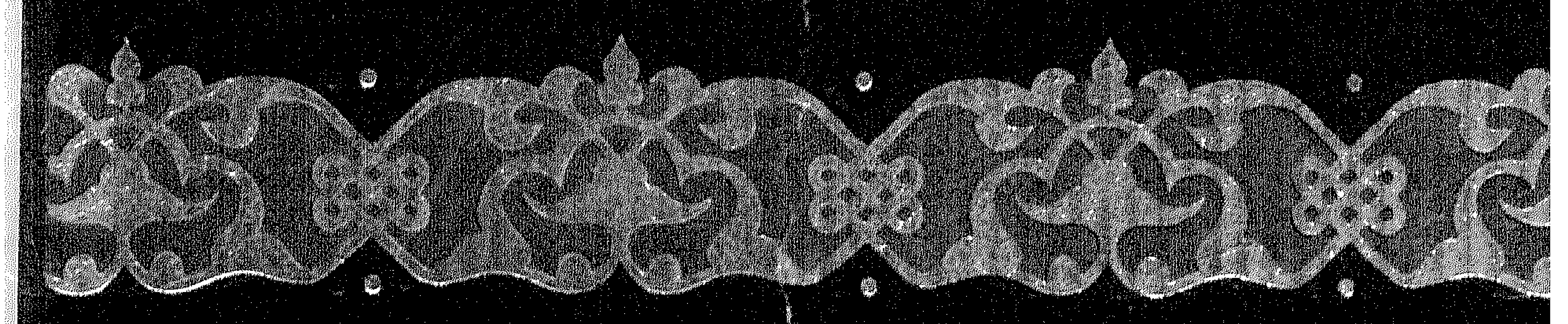






THE ISLAMIC REFORMER AL-SEYED MOHSIN AL-AMEEN

In his 40th anniversary



THE CULTURAL CENTRE OF
THE ISLAMIC REPUBLIC
OF IRAN - DAMASCUS